منشورات الجامعة اللبنانية
قسم الدراسات التاريخية
٤٣

نيابة طرابلس في عهد المماليك

(٦٨٨ - ٩٢٢ هـ/١٢٨٩ - ١٥١٦م)

الدكتور الياس القطار



التوزيع:
دائرة منشورات الجامعة اللبنانية، الادارة المركزية، المتحف
الفروع الجامعية في المناطق

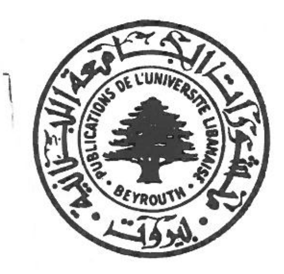
بيروت ١٩٩٨

منشورات الجامعة اللبنانية
قسم الدراسات التاريخية
٤٣

نيابة طرابلس في عهد المماليك

(٦٨٨ - ٩٢٢ هـ/ ١٢٨٩ - ١٥١٦م)

الدكتور الياس القطّار



التوزيع:
دائرة منشورات الجامعة اللبنانية، الادارة المركزية، المتحف
الفروع الجامعية في المناطق

بيروت ١٩٩٨

محتويات الدراسة

توطئة

هذا الكتاب، هو محاولة في دراسة التاريخ الإجتماعي، الإداري، العمراني والإقتصادي لنيابة طرابلس، إحدى وحدات الإدارة المملوكية، التي كانت تضم الأجزاء الساحلية من شمالي سوريا ولبنان الحاليين وما يشرف عليها من مرتفعات جبلية.

وقد أدخلنا، عرضاً، إلى هذه الدراسة، بمثابة مقدّمة مطوّلة، فصلاً يعالج الإطار الجغرافي الذي أبصرت فيه نيابة طرابلس، لأهداف سياسية ـ دينية، النور لأول مرة كوحدة إدارية قائمة بحدّ ذاتها في جسم الدولة الإسلامية، ثم نمت وتركزت خلال قرنين ونصف القرن من الزمن.

وما نقوم به هو بحث يسعى لتجاوز الأطر الكلاسيكية التي تجنح إليها الدراسات التاريخية في بلادنا، عبر محاولة قراءة جديدة: من خلال أفق جديد لمادة تاريخية قد يظنّ البعض أنها استهلكت؛ وذلك لأن الوثيقة التاريخية تحتوي على كمية لا تنضب من المعلومات، فكلّما طرحنا عليها أسئلة جديدة ضمن أفق جديدة للبحث، توصلنا إلى نتائج جديدة.

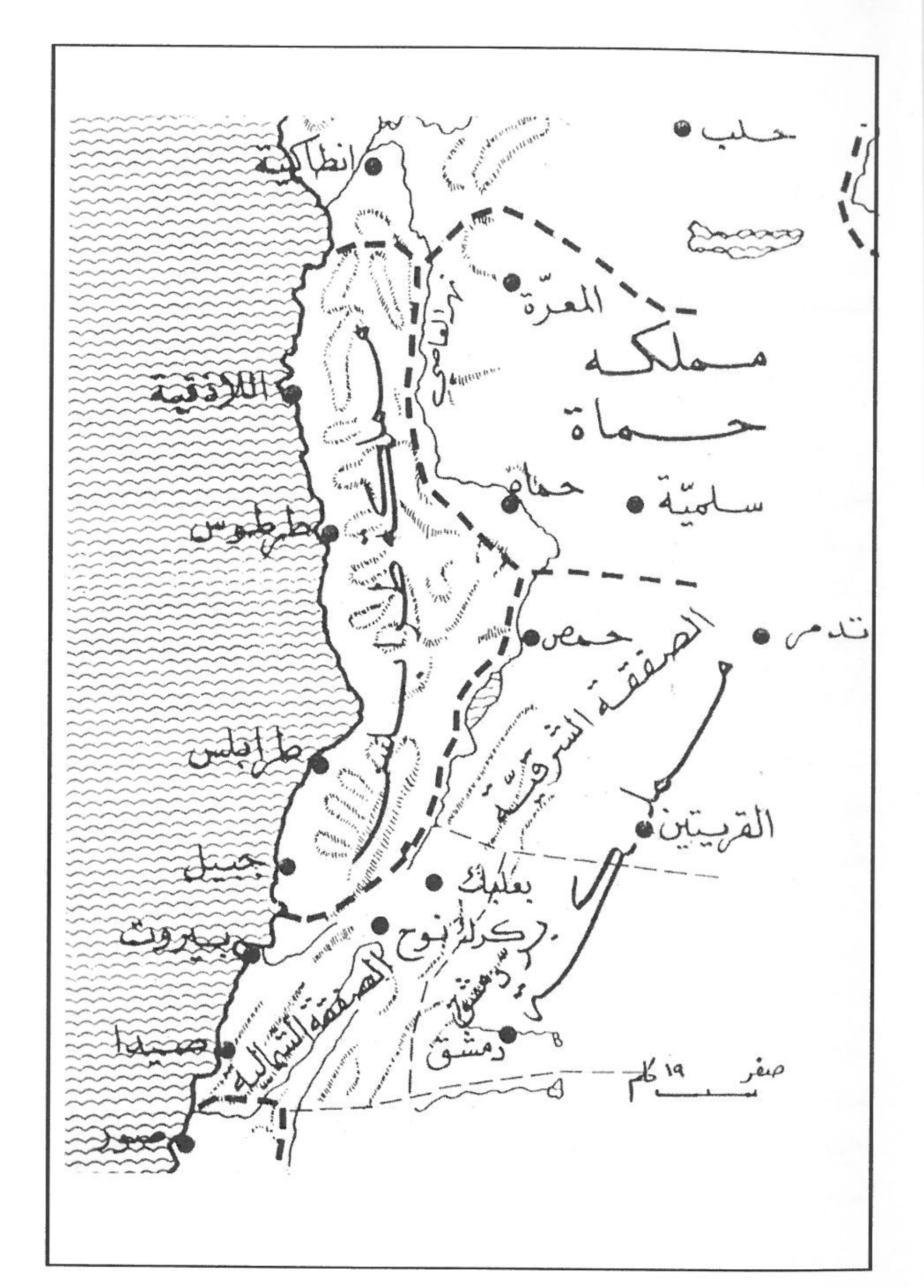
الموضوع الإجتماعي والإداري والعمراني والإقتصادي في نيابة طرابلس لم يعالج من قبل إلاّ بطريقة سطحية، لا تحسن التفريق بين الثابت والمتحوّل؛ ولا تحسن الدخول في عمق التركيب الإجتماعي، وفي منهجية دراسة التطوّر الإداري وربطه بدراسة مقارنة مع باقي وحدات الإدارة في بلاد الشام وفي الأدارة الأم؛ ولا تسعى إلى تلمّس التطوّر العمراني كل نصف قرن ودراسة أسباب

التطور والتخلف فيه، والدخول في عمق الوظيفة المدنية لطرابلس، والعلاقة بين الريف والمدينة؛ كما لم تتطرق إلى شرح المناخ الإقتصادي الذي ألزم الدورة الزراعية والصناعية والتجارية بشروطه الخاصة، وناء بثقله على المؤسسات الزراعية وغيرها.

وبرغم ما لا قاه تاريخ طرابلس السياسي، وإلى حدّ ما التاريخ الحضاري من اهتمام، خاصة من قبل الدكتور عمر تدمري، فقد وجدنا أن الموضوع يتطلب إعادة نظر على صعيد المنهجية كما على صعيد المضمون، وان يكن الموضوع السياسي يدخل، عرضاً، في صلب بحثنا.

فالمشكلة المنهجية الأساسية التي يقع فيها بعض المؤرخين العرب وبعض الأكاديميين منهم، أنهم متأثرون بمنهجية الفقهاء الذين يصوّرون المجتمع، لعدة قرون، جامداً لا يتغيّر، ويتحاشون الدخول في صلب تركيبه العميق.

وقد أسقطنا، عمداً، موضوع علماء الدين والفقهاء، ولم نتطرق إليهم إلا من خلال موقعهم الإداري، كما أسقطنا موضوع الأدب والثقافة عموماً، وما إلى غير ذلك من مواضيع، لأنها تشكل، كل منها دراسة قائمة بحدّ ذاتها، نظراً للفيض في المعلومات، عنها، في المصادر الإسلامية.



نيابة (مملكة) طرابلس على عهد المماليك

مقدمة

حكم المماليك بلاد «المشرق» طيلة قرنين ونيّف من الزمن (٦٤٨ ـ ٩٢٢ هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م)، وتميّزت دولتهم، التي عرفت بدولة الأتراك أو المماليك «البحرية» (٦٤٨ ـ ٧٨٤ هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٣٨٢ م) ثم بدولة «الجراكسة» أو المماليك «البرجية» (٧٨٤ ـ ٩٢٢ هـ/ ١٣٨٢ ـ ١٥١٧م)، بتنظيمها الإداري المتقن، الذي أخذه هؤلاء، حسبما كان سائداً في أوساط المؤرخين، عن الدولة الأيوبية، التي جمعت بين التقاليد الإدارية للفاطميين وللسلاجقة.

وأبعد من التأثير الأيوبي وأعمق منه، نجد الأثر المغولي. فهذا التأثير كان عظيماً في نظام دولة المماليك، وكانت المؤثرات المغولية واضحة في الكثير من نظم هذه الدولة. فبعد هزيمة المغول في عين جالوت، أسر منهم عدد كبير عرفوا بـ «الوافدية» انتشروا بأعداد كبيرة في مصر والشام فنشروا عاداتهم وتقاليدهم فيها، ويبدو أنها أعجبت السلطان بيبرس (٦٥٨ ـ ٦٧٦ هـ/ ١٢٦٠ ـ ١٢٧٧ م)؛ فتجمع المصادر على أن الظاهر بيبرس لما تسلطن أراد أن يسلك في ملكه بالديار المصرية طريقة جنكزخان وأموره، ففعل ما أمكنه ورتّب في سلطنته أشياء كثيرة لم تكن قبله بديار مصر، فجدد وظائف كثيرة في مراتب الأمراء والجند، وان كان بعضها قد وجد قبل ذلك، فلم تكن على الصيغة التي أوجدها الظاهر بيبرس.

استدعت هذه التعديلات والوظائف الجديدة وضع توصيف وشرح لها. وقد قام بهذا العمل نفر من كتّاب الإنشاء والعاملين بدواوين الدولة المملوكية،

كان من أوائلهم محيي الدين بن عبد الظاهر وابن فضل الله العمري[1] اللذين ستتعرف إليهما لاحقاً.

كان السلطان هو رأس الدولة، يستمد شرعيته من خليفة من بقايا الأسرة العباسية استقدمه السلطان بيبرس إلى القاهرة ونصّبه خليفة على المسلمين. وكان أبرز سلاطين المماليك في الدولة المملوكية الأولى: المعزّ أيبك (٦٤٨ ـ ٥٥ هـ/ ١٢٥٠ ـ ٥٧م)، المظفّر قطز (٦٥٧ ـ ٥٨ هـ/ ١٢٥٩ ـ ٦٠م)، الظاهر بيبرس، المنصور قلاوون (٦٧٨ ـ ٨٩ هـ/ ١٢٧٩ ـ ٩٠م)، الأشرف خليل (٦٨٩ ـ ٩٣ هـ/ ١٢٩٠ ـ ٩٣م)، الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣ ـ ٩٤ هـ/ ١٢٩٣ ـ ٩٤م، ٦٩٨ ـ ٧٠٨ هـ/ ١٢٩٩ ـ ١٣٠٩ م، ٧٠٩ ـ ٤١هـ/ ١٣١٠ ـ ٤١ م)، ثم تتابع أولاد قلاوون وأحفاده وأبناء أحفاده وأحفادهم على العرش، حتى جاء عام ٧٨٤ هـ/ ١٣٨٢ م دور «الجراكسة»، من المماليك البرجية، (نسبة إلى أحد أبراج قلعة القاهرة، مركز السلطنة، حيث كان يقيم عدد من المماليك من أصل جركسي من بلاد القفقاس). وأول من تسلّم السلطنة من المماليك «البرجية» الملك الظاهر برقوق (٧٨٤ ـ ٨٠١ هـ/ ١٣٨٢ ـ ٩٩ م)، وخلفه ابنه الناصر فرج (٨٠١ ـ ١٥ هـ/ ١٣٩٩ ـ ١٤١٢ م). ثم بطلت عادة انتقال الملك عن طريق التوارث أو كادت. وأصبحت السلطنة بعد فرج لمن تغلّب عليها من الأمراء «البرجية». ومن أبرز هؤلاء المؤيّد شيخ (٨١٥ ـ ٢٤ هـ/ ١٤١٢ ـ ٢١ م)، والأشرف برسباي (٨٢٥ ـ ٤١ هـ/ ١٤٢٢ ـ ٣٨ م)، والظاهر جقمق (٨٤١ ـ ٥٧ هـ/ ١٤٣٨ ـ ٥٣ م)، والأشرف إينال (٨٥٧ ـ ٦٥ هـ/ ١٤٥٣ ـ ٦٠ م)، والظاهر خشقدم الرومي (٨٦٥ ـ ٧٢ هـ/ ١٤٦١ ـ ٦٧ م)، والأشرف قايتباي (٨٧٣ ـ ٩٠١ هـ/١٤٦٨ ـ ٩٥ م)، والأشرف قانصوه الغوري (٩٠٦ ـ ٢٢ هـ/ ١٥٠١ ـ ١٦ م).

يعدّ العصر المملوكي بين أهم عصور التاريخ العربي ـ الإسلامي، إذ فيه تمّت الصياغة شبه النهائية للأوضاع الإجتماعية والنظم الإقتصادية والسياسية والعمرانية للمشرق العربي. ولذلك، فموضوع الأوضاع الإجتماعية والإقتصادية

في النيابات المملوكية، خلال العصر المملوكي (٦٤٨ ـ ٩٢٢ هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م)، وهو عصر طويل نسبياً، موضوع مهم جداً لأنه يعيدنا إلى جذور المجتمعات الحالية في المشرق، حيث الطوائف الإجتماعية شبه المستقلة ذاتياً، في بعض أحياء المدن وفي القرى هي أبعد ما تكون عن المجتمع الواحد الذي ينشده الدين الإسلامي، والأحزاب «القومية». فالطائفة الإجتماعية، دينية، مذهبية، أو اجتماعية بحتة، هي أقوى من السلطة المركزية والعقائد «الأيديولوجية»، دينية كانت أو سياسية. فالسدود والحواجز، بين هذه المجتمعات، لا تعدّ و لاتحصى، وهي ترتبط إلى حدّ كبير عامودياً برجال الدين وبزعماء هم بحاجة إلى تغطية من رجال الدين.

هذه الدراسة لا تطمح، إلاّ إلى التعرّف إلى الأوضاع الإجتماعية والعمرانية والإدارية والإقتصادية، ضمن إطار نيابة طرابلس في عهد المماليك، التي شملت كامل الرقعة التي كانت للوحدة الإدارية التي كانت قائمة على عهد الفرنجة وعرفت بـ «قومسيّة» طرابلس[2].

ولدراسة الأوضاع السياسية نجد المصادر الإسلامية العديدة، ولكن هذه المصادر لا تقدّم سوى معلومات ضئيلة عن الوقائع الإجتماعية والإقتصادية والإدارية، وفي حال وجدت بعض هذه الوقائع في صيغة جامدة لا تعير أي اهتمام لما يمكن أن يكون قد طرأ على الحياة من تغيّرات خلال قرنين ونصف من الزمن.

وقد شكّلت طرابلس بمفردها، أو كنيابة، ولاية فيما بعد، موضوعاً لدراسات متعدّدة كانت طليعتها وركيزتها الأساسية، التي استند إليها الجميع، ما نشره موريتز سوبرنهايم في مطلع هذا القرن ضمن إطار كتابه الشهير[3]، يضاف إلى هذا المؤلف النفيس ما سطره حكمت بك الشريف في الربع الأول من هذا القرن، في مخطوط نشر حديثاً[4]، وما كتبه سميح الزين[5] وسيد عبد العزيز سالم[6]، والموسوعة التاريخية التي ألفها الدكتور عمر تدمري، خاصة كتابيه: **تاريخ وآثار** مساجد ومدارس طرابلس (١٩٧٤) و**تاريخ طرابلس**، ج١ و ٢،

(١٩٧٨، ١٩٨١)، إضافة إلى العديد مما نشره من مصادر تختص بتاريخ طرابلس، وسيأتي ذكرها تباعاً في الدراسة، هذا إلى جانب رسائل واطروحات ومقالات نشرت عن طرابلس، وكان لفروع الشمال، في الجامعة اللبنانية، بهمة بعض أساتذتها، دور أساسي فيها، في إبراز دفائن تاريخ طرابلس.

العديد من هذه المؤلّفات يقدّم للقارىء تقميشاً غنيّا بالمعلومات، ولكن تنقصه في أحيان كثيرة الدقة والروح النقدية، واعتماد التقنيات المنهجية في مقارنة النصوص، وتحليل الخطاب الوارد فيها انطلاقاً من النّص، أولاً، الذي يفترض أن يسبق أي تحليل حتى لا نقع في مغالطات الأفكار المسبقة. فالنص أولاً ثم تحليله ثم مقارنة ما ورد فيه بما نعرفه عن مؤسسات أخرى ونظم عامة، مع مراعاة تطوّر المفاهيم عبر الزمن، وتطوّر المؤسسات، ومقاربة منهجية نشر النصوص، خاصة عندما يكون البحث عائداً إلى القرون الوسطى.

المشكلة الأساسية في معالجة المواضيع الإجتماعية الإدارية، العمرانية، الإقتصادية، هي قلّة الأصول التي تخوّلنا مقاربة هذه المواضيع، برغم ما نعرفه عن غنى الفترة المملوكية بالمصادر التي هي بالعشرات. فهذه المصادر هي كالقول الشعبي المأثور «كثير الصنايع قليل البضائع»، فهي، إلى حدّ ما، تكرّر بعضها البعض، ولا تهتم إلا بالوقائع السياسية والعسكرية، ولا تقدم سوى إشارة مبهمة عن التاريخ الإجتماعي بتشعباته.

وفي طليعة هذه المصادر، نجد وثائق أرشيف، وهو أمر نادر وبالغ الأهمية بالنسبة للقرون الوسطى.

١ ـ وثائق «الأرشيف» أو المحفوظات:

نجد بعض وثائق «أرشيف» من العهد المملوكي، وعادة يأتي «الأرشيف» أو المحفوظات في طليعة الأصول التاريخية، وقبل المصادر المخطوطة. ولكن أهميته العملية هنا ثانوية، وان تكن أهميته المنهجية لا وجود لشبيه لها في المصادر التاريخية الإسلامية.

ومن المعروف أن اكتشاف أي وثيقة من القرون الوسطى حتى ولو كانت صغيرة، هو عمل عظيم بحدّ ذاته، لأن الوثيقة المتبقية من القرون الوسطى هي كالعملة النادرة. وقد قيّض لنا أن نقع على منجم من الوثائق، ولكن للأسف هي محدودة الإفادة والإطار، ولا تختص إلا بفئة من فئات المجتمع في نيابة طرابلس، هم الموارنة، سكان الجبال المشرفة على مدينة طرابلس. وإلى جانب هذا «الأرشيف» نجد ما تبقى من نصوص منقوشة على جدران أبنية طرابلس، وهذان «الأرشيفان» هما:

أ ـ النصوص المدوّنة على صفحات انجيل «ربّولا»، وهي «أرشيف» الكرسي البطريركي الماروني بكل معنى الكلمة بالنسبة للفترة الممتدة من القرن الثاني عشر من العهد الصليبي إلى القرن السادس عشر. وقد دوّن هذه الوثائق البطاركة الموارنة بأنفسهم أحياناً، وهي في أكثرها، كما سنتعرّف إلى ذلك في الكلام على الموارنة، نصوص وقفيات وهبات وغيرها، مدونة على هوامش الإنجيل المذكور الذي اعتمده الموارنة سجلاّ لهم، برغم قيمته الفنيّة في صوره التي ربّما تعود إلى القرن السادس الميلادي، فشوّهوا أجزاء من هذا التراث الفنّي العظيم.

ب ـ النقوش المدوّنة على أبواب وجدران المساجد والمدارس والحمامات في طرابلس والعائدة إلى عهد المماليك بالذات، وأيضاً إلى عهد آل عثمان.

وإلى جانب ذلك، فقد أعطتنا الحقبة المملوكية نوعاً من المصادر عرف باسم «الموسوعات» يساعد كثيراً على التعرف إلى المؤسسات والنظم والعادات. ويمكن بمقارنة نصوص هذه «الموسوعات» ببعضها البعض، الخلوص إلى رصد التطوّرات الحاصلة.

٢ ـ «الموسوعات» المملوكية:

أ ـ **مباهج الفكر ومناهج العبر**: التي ألفها جمال الدين محمد بن إبراهيم المعروف بالوطواط المتوفى سنة ٧١٨ هـ/ ١٣١٨ م، هي أولى موسوعات

العصر المملوكي، وهي موسوعة في العلوم الطبيعية والجغرافية، غير منشورة، أخذ عنها النويري، وموجودة في المكتبة المارونية بحلب[٧]. ومن المؤسف أننا لم نأخذ عنها ولم نستفد منها.

ب – **نهاية الأرب في فنون الأدب**: التي ألفها شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب البكري النويري المتوفى سنة ٧٣٢ هـ/ ١٣٣٢ م، وقد استغرق تأليفه للموسوعة عشرين سنة، ونقل نصوصاً كاملة لمؤلفين ضاعت عنا مؤلفاتهم[٨].

ج – **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، والتعريف بالمصطلح الشريف**، التي ألّفها ابن فضل الله العمري في النصف الأول من القرن الثامن/ ١٣٤٩ م. من أهم ما أنتجه عصر سلاطين المماليك. وهو كما يقول العمري، بالذات، الغرض منه «إثبات نبذة دالة على المقصود في ذكر الأرض وما فيها ومن فيها وحالة كل مملكة، وما هي عليه، وأهلها في وقتنا هذا... لما قرب إلى الإفهام... ما هي عليه أمّ كل مملكة من المصطلح والمعاملات... ليبصر أهل كل قطر القطر الآخر، وبينة بالتصوير: ليعرف كيف هو...».

وقد هيأ للعمري عمله الحكومي في ديوان الإنشاء الاطلاع على الوثائق كما أن مصادر أخباره ومعلوماته متعددة للغاية، مما مكنه من إخراج لوحة مفصّلة في وصف العالم المعاصر له. وعيب العمري في مصنفه الضخم، برغم أنه يمثل عصره، عرضه مادة واسعة بشكل غير منتظم، بعكس القلقشندي الذي يمتاز مصنفه بدقة التبويب ووضوح العرض، ولكن تنقصه الأصالة التي نجدها عند العمري الذي اعتمد عليه القلقشندي[٩].

د – **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، الذي ألفه شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي الفزاري القلقشندي، المتوفى سنة ٨٢١ هـ/ ١٤١٨ م. وهو آخر موسوعة كبرى لعصر سلاطين المماليك. وقد بدأ القلقشندي بتأليف كتابه فور التحاقه بالعمل بديوان الإنشاء في مصر سنة ٧٩١ هـ وانتهى من

تأليفه في شوال سنة ٨١٤ هـ. ولكنه ظل يزيد عليه إلى حين وفاته في سنة ٨٢١ هـ. وقد اقتفى القلقشندي أثر كتاب ابن فضل الله العمري في التعريف بالمصطلح الشريف، حتى أنه طبّق في بعض الأحيان ترتيبه وتبويبه بحذافيره[١٠].

ولم يعتمد القلقشندي على ابن فضل الله العمري فقط في جمع مادته الجغرافية، بل يرجع أيضاً إلى من سبقه من الجغرافيين. وقيمة الكتاب الأساسية أنه يورد نماذج من الوثائق الأصلية المحفوظة في ديوان الإنشاء، مما جعل كتابه مصدراً أساسياً للتاريخ والإدارة والحياة الإجتماعية للعالم الإسلامي والأقطار المتصلة به طوال أربعة قرون من القرن الخامس وحتى أوائل القرن التاسع للهجرة[١١].

د – **المقصد الرفيع المنشا الهادي لديوان الإنشا**، الذي ألفه أحد معاصري السلطان برسباي، بهاء الدين محمد بن لطف الله العمري الخالدي، ومؤلفه محفوظ في المكتبة الأهلية في باريس برقم or ١٥٧٣ وهو يتبع بدقة تبويب القلقشندي[١٢]. وقد أخذ عنه المستشرق «دومنبين» في كتابه عن سوريا في عهد المماليك.

و – **السلوك لمعرفة دول الملوك**، الذي ألفه تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي الشافعي المقريزي (٨٤٥ هـ/ ١٤٤١ م)، وهو أشهر المؤرخين في مصر في العصور الوسطى، ولكنه ليس بقدر أمانة القلقشندي. وفيه مادة غزيرة تغطي جوانب كثيرة من تاريخ المماليك، وينقل معلومات من سبقه عن الفترات التي لم يعاصرها، وهو في الجزئين الثالث والرابع ينقل معلوماته كشاهد عيان.

ز – **زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك**، الذي ألّفه غرس الدين خليل ابن شاهين الظاهري (ت ٨٧٣ هـ/ ١٤٦٨ م)، وأهميته في معلوماته الجغرافية والإدارية بحكم كونه من كبار موظفي السلطة المملوكية.

هذه هي الركائز الأساسية أو أدوات العمل في بحثنا في التاريخ

الإجتماعي، الإداري، العمراني والإقتصادي. وإلى جانبها نجد المصادر المملوكية الأخرى، التي تشكّل مصادر رديفة أو مكمّلة للبحث، ولكن لها قيمتها في دراسة التاريخ السياسي - العسكري، ولا بدّ من ذكر أبرز مؤلّفيها، وهم حسب تسلسل تاريخ وفاتهم.

٣ - مصادر التأريخ المملوكي:

أ - مصادر النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي:

عز الدين ابن شداد (ت ٦٨٤ هـ/ ١٢٨٥ م) مؤلف تاريخ السلطان بيبرس، وابن عبد الظاهر (ت ٦٩٢ هـ/ ١٢٩٢ م)، مؤلف سيرة السلطان بيبرس، السلطان قلاوون والسلطان الأشرف خليل. وكتبه بمثابة سجلٍّ رسمي لأعمال السلاطين الثلاثة، وقد أخذ عنه المؤرخون اللاحقون، ابن واصل (ت ٦٩٧ هـ/ ١٢٩٨ م).

ب - مصادر النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي:

عن بدايات التاريخ المملوكي نجد اليونيني (ت ٧٢٦ هـ/ ١٣٢٦م) الذي يكمل سبط ابن الجوزي، بيبرس الدواداري (ت٧٢٥ هـ/ ١٣٢٥ م)، شيخ الربوة الدمشقي (ت ٧٢٧ هـ/ ١٣٢٧ م)، ابن الأخوة (ت ٧٢٩ هـ/ ١٣٢٩ م)، أبو الفداء (ت ٧٣٢ هـ/ ١٣٣١ م)، النويري (ت٧٣٢ هـ/ ١٣٣٢ م)، ابن أيبك الدواداري (ت ٧٤٣ هـ/ ١٣٣٤ م)، الجزري (ت ٧٣٩ هـ/ ١٣٣٨ م)، ابن فضل الله العمري (ت٧٤٩ هـ/ ١٣٤٩ م)، المؤرخ المجهول (ت ٧٤١ هـ/ ١٣٤١ م؟)، الذهبي (ت ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٨ م) أو (ت ٧٥٣ هـ/ ١٣٥٢م)، ابن الوردي (ت ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٩م).

ج - مصادر النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي:

من مصادر هذه الفترة نجد ابن القيسراني (ت ٧٥٣ هـ/ ١٣٥٢ م)، مفضل

بن أبي الفضائل (ت ٧٥٩هـ/ ١٣٥٨ م)، اليوسفي (ت ٧٥٩ هـ/ ١٣٥٨ م)، وابن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤ هـ/ ١٣٦٣ م)، ابن ايبك الصفدي (ت ٧٦٤ هـ/ ١٣٦٣ م)، اليافعي (ت٧٦٨ هـ/ ١٣٦٦ م)، السبكي (ت ٧٧١ هـ/ ١٣٧٠ م)، ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ/ ١٣٧٢ م)، إبن بطوطة (ت ٧٧٩ هـ/ ١٣٧٧ م)، ابن حبيب (٧٧٩ هـ/ ١٣٧٧ م) وابن صصرى (ت ٨٠٠ هـ/ ١٣٩٧ م).

د - مصادر النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادي:

بعضها من أهم المصادر بالنسبة لبحثنا، ومن مصادر هذا القرن: ابن الفرات (ت ٨٠٧ هـ/ ١٤٠٥ م)، القلقشندي (ت ٨٢١ هـ/ ١٤١٨ م)، صالح بن يحيى (ت ٧٤٠ هـ/ ١٤٣٦ م)، المقريزي (ت ٨٤٥ هـ/ ١٤٤١ م) ابن الشحنة الأب (ت ٨٥٠ هـ/ ١٤٤٧ م)، ابن قاضي شهبة (ت ٨٥١ هـ/ ١٤٤٨ م)، وابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٣ هـ/ ١٤٤٩ م).

هـ - مصادر النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي:

هي لا تقلّ قيمة عن مصادر النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادي، ومنها: ابن عربشاه (ت٨٥٤ هـ/ ١٤٥٠ م)، العيني (ت ٨٥٥ هـ/ ١٤٥١ م)، ابن شاهين الظاهري (ت ٨٧٣ هـ/ ١٤٦٨ م)، ابن تغرى بردى (ت ٨٧٤ هـ/ ١٤٦٩ م)، ابن آجا (ت ٨٨١ هـ/ ١٤٧٦ م) ابن الشحنة الإبن (ت ٨٩٠ هـ/ ١٤٨٥)، الصيرفي (ت ٩٠٠ هـ/ ١٤٩٤ م)، السخاوي (ت ٩٠٢ هـ/ ١٤٩٧ م) ابن الجيعان (ت ٩٠٢ هـ/ ١٤٩٧ م). البصروي (ت ٩٠٥ هـ/ ١٥٠٠ م).

و - مصادر من القرن السادس عشر الميلادي:

هذه المصادر مخضرمة بين آخر عهد المماليك ومطلع العهد العثماني، ومنها: السيوطي (ت ٩١١ هـ/ ١٥٠٥ م)، ابن أياس (ت ٩٣٠ هـ/ ١٥٢٤ م)، ابن طولون (ت ٩٥٣ هـ/ ١٥٤٦ م).

ز ـ مصادر متنوعة:

إلى هذه اللائحة من المصادر، تضاف مؤلفات فقهية، تحليلها يفيد في توضيح بعد النقاط التاريخية كمؤلفات ابن تيمية من مطلع العهد المملوكي، ومؤلفات فقهية متخصصة توضح مسائل عن الاقطاع وغيره، واستثمار الأرض، والحسبة، أضف إلى ذلك مؤلفات الرحالة الغربيين.

يظنّ البعض أن المنهجية تقوم على إسناد المعلومات إلى المصادر حسب تراتبيتها الزمنية. في المطلق، هذه القاعدة المبنية على السياق المنطقي قد تكون صحيحة، وهذا ما توخينا إلى حدّ ما مراعاته. ولكننا في أحيان كثيرة، خرجنا عن هذا السياق الزمني فقدمنا مصدراً على آخر لاعتبارات مرتبطة بتحليلنا لمعلومات المصدر، من حيث الموضوعية أو العدالة أو الضبط في ما يقمشه من معلومات. ومن البديهي القول مثلاً أن مؤرخاً كأبي الفداء هو لربما أهم من عز الدين ابن شداد أو ابن عبد الظاهر، وهما من كتبة السلطة الحاكمة ومن المؤرخين لها، برغم كونه متأخراً عنهم زمنياً، لا لشيء إلا لأن أبا الفداء، هو أقرب إلى الحدث جغرافياً منهما، بالنسبة لنيابة طرابلس، وأبعد منهما عن الرواية الرسمية للحدث، وأعمق منهما كونه من المسؤولين المشاركين في صناعة القرار، لا من المتفرجين عليه من كتبة...

وقد قسمنا كتابنا إلى فصول راعينا فيها التقسيم الكلاسيكي. فكان الفصل الأول بثمابة مقدمة عامة مطوّلة، مهّدنا فيه لنيابة طرابلس، بوضع النقاط الأساسية للإطار الجغرافي ثم عالجنا مسألة الفتوحات المملوكية التي قادت إلى طرد الصليبيين تدريجياً وخلق نيابة طرابلس، وتوقفنا عند عدة مسائل منهجية، تدرس، انطلاقاً من تحليل النص، مواضيع محددة، تخرجنا عن إطار التعميم في دراسة الموضوع، ومثالنا على ذلك النقطة التي تثير مسألة عدم تحوّل طرابلس مباشرة إلى مركز للنيابة وعدم تكنّي النيابة بها قبل عام ١٣٣٣ م. وقد اعتمدنا في ذلك ما يعرف في علم دراسة اللغة بدراسة الخطاب، عبر رصد الكلمات التي تتكرر فيه.

كما سلطنا الضوء على الحملات المملوكية على كسروان انطلاقاً من النصوص وخرجنا بالنتائج بعد تحليلنا لها ومناقشتها.

وفي دراستنا لهاتين المسألتين، الفتوحات والحملات الكسروانية، حاولنا تجاوز المتعارف عليه في المضمون وفي المنهجية، فتوصلنا إلى نتائج جديدة كثيرة.

ولإكمال الصورة السياسية ـ العسكرية لنيابة طرابلس، توقفنا عند مواضيع متنوعة كالصراع مع الفرنجة ومع المغول والأرمن والمشاركة في أحداث بلاد الشام. وفي هذه المواضيع اتكلنا على بعض المصادر.

ولم نجهد كثيراً في استخراج معلومات جديدة وفي نقد الروايات كما فعلنا في السابق، لأن الموضوع لا يدخل مباشرة في صلب موضوعنا.

في الفصل الثاني درسنا المجتمع. وقد حاولنا الوصول فيه إلى اكتشاف ديمغرافيا مدينة طرابلس وباقي أرجاء النيابة، عبر بعض التقنيات التي وضعها المستشرقون. وسلطنا الضوء على المجتمع في ريف طرابلس فتوقفنا عند الطوائف الأساسية المنتشرة فيه كالموارنة والإسماعيلية والنصيرية، فحاولنا دراسة جغرافية وجودها ونشأتها وانتشارها واستكشاف ما نظنه الصورة المعقولة لمعتقداتها، وضبط تنظيمها الداخلي، وهواجسها التاريخية التي تستمد جذورها من التمييز الديني ـ المذهبي، وأخيراً كانت لنا محاولة اجتهاد في معرفة الفئات الشعبية التي تتكون منها نيابة طرابلس والكشف عن الفتن الإجتماعية التي عصفت بعاصمة النيابة.

في الفصل الثالث، درسنا الإدارة في نيابة طرابلس، وكانت منهجيتنا واضحة ودقيقة. فقد اعتمدنا مبدأ استعمال النّص كمدخل لدراسة كل وظيفة على حدة، حيث يوجد نصّ مراسلة بين السلطة الحاكمة والمسؤول عن الوظيفة في طرابلس، يكون عادة مدرجاً في «صبح الأعشى» للقلقشندي. وبعد إيراد نص المراسلة استخرجنا المعلومات الواردة فيه ثم حاولنا ربط الوظيفة بالإدارة

الأمّ ومقارنتها بما لدينا من معلومات عن نيابة دمشق من جهة ونيابة صفد من جهة أخرى، وتوخينا بقدر ما تسمح به المعلومات الكشف عن التطورات الحاصلة في سير عمل الوظائف والإدارات عبر التاريخ المملوكي الطويل. وضمن هذا الإطار المنهجي العام، درسنا مسألة التقسيم الإداري والوظائف الإدارية من وظائف عسكرية وديوانية ودينية في طرابلس عاصمة النيابة من جهة وفي النيابة ككل من جهة أخرى. وحاولنا استقراء ما يمكن استجداده من فتن بين الموظفين ومدى ارتباط الإدارة في نيابة طرابلس بمصلحة الناس.

في الفصل الرابع درسنا تطور العمران في العاصمة طرابلس من جهة وفي النيابة ككل من جهة أخرى. فكانت لنا وقفة مع اشكالية البحث في التاريخ المدني في المشرق. ثم خرجنا عن المألوف في الدراسات المشرقية. فوضعنا منهجية لدراسة تطوّر المدينة كل نصف قرن عبر ما استجدّ فيها من مساجد ومدارس وحمامات وبيمارستانات وغيرها. فتوصلنا إلى نتائج مهمة على هذا الصعيد أخرجتنا من حلقة الصورة الشبيهة بالصورة الفوتوغرافية للمدينة، والتي لا تراعي اطلاقاً التطورات التي عرفتها المدينة، فأخرجت لنا العمران بما تبقّى منه لا بما أبقت يد الإنسان فيه عبر تاريخ طويل من الزمن. وانطلاقاً من دراسة هذه التحوّلات دخلنا في صلب وظيفة المدينة وفي مسألة السكن والعلاقة بين الريف والمدينة.

في الفصل الخامس والأخير كانت لنا اطلالة على المناخ الإقتصادي الذي وُضِعت فيه نيابة طرابلس خلال عقدين من الزمن ونيف سواء على صعيد الأوبئة والآفات والعوارض البشريّه والجوية وحركة العملة. وقد حاولنا الكشف عن وضعية الزراعة ومصاعبها ووضعية الصناعة ومشاكلها، وأخيراً كانت لنا جولة مع التجارة البحرية ومشاغلها.

هذا، في صورة سريعة وخاطفة، ما تمكّنا من الوصول إلى دراسته حالياً، فعسى الأيام تسمح لنا بالعودة إلى هذا الموضوع لاغنائه بمعلومات جديدة ستوفرها لنا المصادر العديدة التي سنطلع عليها لاحقاً، وأبحاث الزملاء من

المؤرخين الذين سيفتحون آفاقاً جديدة في مواضيع التاريخ المملوكي عامة، وتاريخ طرابلس خاصة.

لقد عملنا ما في وسعنا أن نعمله حالياً ورائدنا في هذا البحث، كما في كل الأبحاث المنشورة أو تحت الطبع وفي الحياة عامة، الكلام الشريف والكريم: من عمل وأصاب فله أجران، ومن عمل ولم يصب فله أجر واحد.

الهوامش

(١) انظر حول الأثر المغولي: أيمن سيّد، مقدمة **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تأليف شهاب الدين أحمد ابن فضل الله العمري، المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة، ١٩٨٥، ص ٤.

(٢) - Jean RICHARD, *Le Comté de tripoli sous La dynastie toulousaine* 1102 - 1187, Paris, p. Geuthner. 1945.

(٣) M. SOBERNHEIM, *Corpus inscriptionum arabicarum*, institut français du caire, T. XXV, 1909.

(٤) حكمت بك الشريف، **تاريخ طرابلس الشام من أقدم أزمانها إلى هذه الأيام**، تحقيق منى حداد يكن ومارون عيسى الخوري، طرابلس ـ لبنان، ١٩٨٧.

(٥) سميح وجيه الزين، **تاريخ طرابلس قديماً وحديثاً**، بيروت، ١٩٧١.

(٦) د. سيد عبد العزيز سالم، **طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي**، الإسكندرية، ١٩٦٧.

(٧) اغناطيوس كراتشكوفسكي، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، جزءان، ترجمة صلاح الدين هاشم، لينتغراد، ١٩٥٧، ج ١، ص ٤٠٧. سيّد، المرجع المذكور، ص ٨ ـ ٩.

(٨) كراتشكوفسكي، **تاريخ الأدب**، المرجع المذكور، ص ٤٠٨ ـ ٤١٠. سيّد، مقدمة **مسالك الأبصار**، المرجع المذكور، ص ١٠ ـ ١١.

(٩) كراتشكوفسكي، المرجع نفسه، ص ٤١٠ ـ ٤١٣. سيّد، المرجع نفسه، ص ١٢ ـ ٢٣.

(١٠) SAUVAGET et Cl. CAHEN, *introduction à l'histoire de l'Orient musulman*, Eléments de bibliographie, Maisonneuve, Paris, 1961, p. 183.

(١١) كراتشكوفسكي، **تاريخ الأدب**، المرجع المذكور، ج ١، ص ٤١٥ ـ ٤٢١. السيّد، مقدمة **مسالك الأبصار**، المرجع المذكور، ص ٢٣ ـ ٢٧.

(١٢) سيّد، المرجع نفسه، ص ٢٧.

SAUVAGET et CAHEN, op. cit., p. 183.

الفصل الأول: الإطار الجغرافي ـ السياسي

أولاً: الإطار الجغرافي

أ ـ جغرافية مدينة طرابلس وجوارها:

للموقع الجغرافي دوره في نشأة وتطوّر أي تجمّع بشري محدد في حدود جغرافية معينة.

ولمدينة طرابلس موقعها الفريد والمميز بين المدن المتوسطية الواقعة في الساحل الشرقي للمتوسط. فهي تقع في الطرف الشمالي من الساحل اللبناني، وتمتد بين خطي عرض ٢٤َ ٣٤° و٢٨َ ٣٤° شمالاً، وخطي طول ٤٨َ ٣٥° و ٥٠َ ٣٥° شرقاً[١].

ومن حيث الخصائص الطبيعية، فهي تظهر كنتوء جبلي يمتد من البحر ويسمّى رأس طرابلس، وهو عبارة عن شبه جزيرة لها شكل مثلّث تبلغ مساحته حوالي ١٥ كلم^{2} يمتد رأسه في البحر لينتهي بزاوية قائمة تتفرع منها عدة جزر تظهر على شكل قوس يمتد في البحر لمسافة تبلغ حوالى سبعة كيلومترات[٢].

موضع المدينة يشمل، بالإضافة إلى السهل الساحلي، قسماً كبيراً من الهضبة (هضبة زغرتا ـ الزاوية) المطلّة على زغرتا والكورة، والتي يبلغ متوسط ارتفاعها حوالى ٨٠ متراً، حيث توجد أحياء القبة والسويقة، التي يفصلها مجرى نهر أبو علي عن حي أبو سمرا في الشرق[٣].

وتزداد أهمية هذا الموضع للعوامل الآتية:

١ ـ تنوّع التضاريس المجاورة والمحيطة بالموضع الممتد بين البحر والسهل

والهضبة، ثم مواجهته لكتلة الجبال في لبنان الشمالي التي تغطّيها الثلوج طيلة فصل الشتاء.

٢ ـ امتداد الرصيف البحري للمدينة كشبه جزيرة في البحر[٤].

٣ ـ وقوع المدينة على الطريق التي تربط دول شرق البحر المتوسط ببعضها بالإضافة لأهمية الطريق البرية الداخلية، عبر ممرّ تل كلخ ـ حمص، الفاصل بين سلسلة جبال النصيرية في الشمال والجبال اللبنانية في الجنوب. فهذا الممرّ يصل الداخل السوري بمنطقة الشاطىء عبر سهل العاصي[٥].

٤ ـ توفّر المياه ووسائل الريّ، والتربة الخصبة[٦].

التضاريس البارزة والمجاورة لمدينة طرابلس، تتكوّن من السهول الساحلية والتلال والهضاب المحيطة، امتدادا حتى سلسلة الجبال الشمالية (جبل المكمل).

السهول الساحلية المجاورة، تمتدّ متعرّجة على موازاة الشاطىء، من مصب النهر الكبير الجنوبي حتى جنوب مدينة طرابلس، وهي سهول منبسطة قليلة الانحدار (انحدارها أقل من ١٪) وتشمل سهول عكار والمنية في الشمال، التي يبلغ متوسط عرضها حوالى ١٦ كلم، وهي تبدأ من الساحل حتى حدود خط ارتفاع ١٠٠ متر تقريباً، ويمتد هذا الخط من الجنوب الشرقي، بالقرب من التواء حلبا إلى الشرق في تلّ كلخ والشمال الشرقي في جبال النصيرية. أما السهول الساحلية الممتدة من بلدة العريضة في الشمال حتى طرابلس في الجنوب، فتغطيها االترسبات الرملية «البلايو ستينية» المؤلفة من الرمال، والحصى ورواسب المجمعات، وتجري فيها عدة مجاري نهرية أهمها، النهر البارد، أبو علي، وقد حملت، معها، هذه الأنهار، الرواسب الغيضة التي تغطي السهول الساحلية، وسماكة هذه الرواسب في معظم مناطق سهل عكار، تتراوح بين ٢٠ و ٢٥ متراً[٧].

تحدّ هذه السهول من جهة الشرق بعض الالتواءات الجبلية والتلال المنعزلة والمدرجات البحرية البلايوستوسينية والحديثة، ومنها الالتواء المحدب في حلبا، كذلك التواء جبل تربل المحدب في شمال شرق طرابلس والذي يصل ارتفاعه إلى ٦٨٣ متراً. ثم ثنية جبل كلهات الذي يصل ارتفاعه إلى ٤٢٨ متراً شرق القلمون. أما إلى الجنوب من مدينة طرابلس، فتضيق السهول الساحلية تدريجياً وتبرز الحافات الصخرية الميوسينية، خاصة في رأس شكا المشرف على البحر[٨].

وعلى بعد ٢٥ كلم إلى الشرق من طرابلس، تبرز كتلة الجبال اللبنانية التي تصل أعلى قممها الثلاث في القرنة السوداء إلى ٣٠٨٨ م. وتوجد على سفوحها الغربية مدن مهمة: إهدن على بعد ٣٠ كلم من طرابلس وبشراي على بعد ٥٠ كلم، وتعتبر هذه الجبال مصدراً غنياً بالمياه، حيث تتفجّر الينابيع وتجري الأنهار باتجاه الساحل (نهر قاديشا)[٩].

أما سهل طرابلس فتبلغ مساحته حوالى ١٥ كلم^2، ومتوسط ارتفاعه حوالى ٢٠ متراً، بحيث أن أعلى نقطة ارتفاع تصل إلى ٢٨ متراً في منطقة التل، ويرويه نهر أبو علي، وتغطيها الترسبات الحديثة من العصر الرابع، بالإضافة للرواسب الفيضية التي يحملها نهر أبو علي، وينشرها أثناء فيضانه. أما التكوينات الرملية الموجودة، فهي تتمثل بتكوينات الحجر الرملي، وهي تحتوي على نسبة ضئيلة من الصلصال الأحمر، التي تعمل كمادة لاحمة لجزئيات التربة، هذا بالإضافة إلى رمال الكثبان الساحلية البلايوستوسينية، الموجودة على الشاطىء الممتد من جنوب الميناحتى البحصاص، وهي المعروفة بتكوينات الرملة، التي تستخدم في بعض الأماكن لصنع حجارة البناء.

كذلك تظهر التربة الحمراء التي تشاهد في معظم المناطق الساحلية، وهي تتألف من مواد دقيقة وناعمة جداً، وتزداد خصوبة هذه التربة عندما تختلط بالرمال والتربة البيضاء، وقد أدى تراكم الرواسب الفيضة، أثناء فيضان نهر أبو علي، إلى تجدّد هذه التربة[١٠].

تأثرت طرابلس بالموضع البحري، الذي يوفر لها الموارد البحرية المتنوعة، العضوية والمعدنية، لتوفّر البيئة الطبيعية المعتدلة، فالحرارة تتراوح عند السطح بين ١٥ و ١٦ درجة مئوية، لكنها ترتفع كلّما اتجهنا من الغرب إلى الشرق، فتصل بالقرب من الشاطىء إلى حوالى ٢٠ درجة. وموضع المدينة ملائم للإبحار، وتشكّل التضاريس البحرية عملية النقل البحري، والجزر المتعددة قبالة الساحل (بللا، سناتي، البلح، رامكن، تاولين، الرمال وغيرها)، تشكّل امتداداً لشبه جزيرة الميناء وتكون حاجزاً طبيعياً في وجه الأمواج والرياح الجنوبية الغربية.

وأهمية مرفأ طرابلس، بالمقارنة مع بقية مرافىء الساحل الشرقي للمتوسط، لموقعه بالقرب من ممر حمص، فهو بوابة سوريا الداخلية.

كما أن أهميته متأتية من هزال الموقع الطبيعي لمرافىء جبيل والبترون وانفه، بالقياس على طرابلس، ما حدا بالفرنجة إلى بناء قلعة طرابلس لحصر المرفأ والدفاع عنه[١١].

ويمثل نهر أبو علي، منذ القديم، مصدر الخير والعطاء لمدينة طرابلس، وقد شقت الأقنية لجر المياه إلى بساتين طرابلس، ونقلت المياه إلى دور السكن، ولا تقتصر أهمية هذا النهر على ما يوفره من مياه للري، بل كان دائماً يحمل معه الترسبات، وهو ينبع من منطقة الأرز، ويتغذى بمياه نهر رشعين ومن نهر أبو علي وروافده مثل نهر مار سركيس، بالإضافة للمياه الباطنية، وتبلغ مساحة حوضه حوالى ٤٨٤ كلم[١٢].

بالإضافة إلى نهر أبو علي، تتغذى طرابلس اليوم بينابيع مغارة هاب، في البحصاص[١٣] ولا نعرف ما إذا كانت طرابلس حصراً تستفيد من هذه المياه في القديم أم فقط المنطقة المحلية المجاورة للنبع.

يتبع مناخ مدينة طرابلس نظام المناخ المتوسطي، مع بعض الفروقات الحاصلة بين فصلي الصيف والشتاء، الشتاء معتدل إجمالاً، أما الصيف فحار ورطب ترتفع خلاله الرطوبة النسبية إلى معدل سنوي يبلغ ٧٠ درجة (بينما في

بيروت هو ٦٩ درجة) ويبلغ متوسط الحرارة السنوي في طرابلس حوالى ٢٠ درجة مئوية (٢١ درجة في بيروت)، تصل الحرارة في الصيف إلى ٢٧,١ درجة (حد أعلى) و١٢,٨ درجة في الشتاء (حد أدنى). ولا تتعرض طرابلس كبيروت، إلا نادراً، لارتفاع الحرارة الناجمة عن هبوب رياح الخمسين الصحراوية، أيام الجليد في طرابلس أكثر مما هي في بيروت وأقل من سهل عكار. معدّل الأمطار السنوي فيها ٩٣٠ ملم (معدّل الساحل اللبناني بين ٨٠٠ و ١٠٠٠ ملم، وتتلقى منطقة البترون أكثر من ١٠٠٠ ملم). وتتعرض مدينة طرابلس للرياح الجنوبية الغربية التي تهبّ على طول الساحل اللبناني (بمعدل ١٩٨ يوماً في طرابلس و٩٦ يوماً في بيروت)، كما تتأثر بهبوب الرياح الشمالية الباردة التي تعبر ممر حمص، أما الرياح الشرقية فهي ضعيفة جداً حيث تعترضها سلسلة جبال لبنان الغربية[١٤].

هذه المؤثرات المناخية، كانت عوامل إيجابية لنموّ مدينة طرابلس.

ب ـ المكان الجغرافي في شمالي نيابة طرابلس:

المنطقة الممتدة من حدود لبنان الحالي إلى تركيا الحالية، هي، كطرابلس والمنطقة المجاورة لها، من المناطق ذات المناخ المتوسطي.

السهل الساحلي ضيّق في بلاد جبيل في الجنوب وفي مرقية في الشمال، ولا يتسع إلا في أطرافه، في الشمال، في سهل جبله، وفي الجنوب في سهل عكار. الشاطىء ضحل واطىء وتضربه الأنواء، ولا نجد مرافىء آمنة، بل مرافىء صغيرة كانت تستعملها البحرية القديمة، في أوغاريت واللاذقية وأرواد الجزيرة الشاطئية الوحيدة، المأهولة على طول البحر المتوسط الشرقي. الشتاء لطيف، ولكن الرطوبة تجعل الصيف صعباً. والزراعات التقليدية هي الزيتون والحبوب، إلخ...[١٥]

وراء هذا السهل يرتفع جبل النصيرية أو جبل العلويين الذي يشكّل تكملة لجبل لبنان ولكن في ارتفاعات أقل، تصل في الشمال إلى ١٥٦٢ م في جبل

«سلنفه». هذا الالتواء الكلسي، بسفحه الشرقي فيه الكثير من الفجوات، أما سفحه الغربي فلطيف وهو ينحدر باتجاه الغاب، في الشرق، بطريقة قاسية. هذه الكتلة الجبلية تخترقها الوديان، لا نجد بينها سوى قمم ضيقة نجد عليها الطرق والقرى. الصخور عادة عارية والينابيع متواضعة والسكن لا يتجاوز علو ١٠٠٠ م والاقتصاد تقليدي. والسكان يعيشون بكثافة في الجنوب، حيث تكثر القرى المأهولة بأقليات دينية استقرت فيها في القرون الوسطى كالعلويين في القرنين العاشر والحادي عشر والإسماعيليين في القرن الثاني عشر[١٦].

الغاب يشكّل استمراراً للأخدود الذي ينطلق من البحر الميت مروراً بسهل البقاع حتى سهل الأموك في تركيا، ويشرف عليه بقسوة جبل العلويين ويخترقه نهر العاصي. هذا السهل الواطىء، المنبسط، الذي تكثر فيه المستنقعات والأرض المعطّلة، أضحى اليوم من أغنى المناطق الزراعية بعد استصلاحه[١٧].

وفي شرق الغاب، يظهر خط مرتفعات ثاني، مكوّن من هضاب لا تتجاوز الألف متر: في جبل الزاوية في الجنوب، جبل سمعان في الشمال. الصخور الكلسية، وقلة التساقط، والفوارق بين درجات الحرارة تجعل من هذه المنطقة منطقة مرور بين المناطق المتوسطية وسهول الجنوب، مع وجود مساحات كبيرة مزروعة بالزيتون[١٨].

ولوضع هذه الجغرافية في إطارها التاريخي، نجد أن نيابة طرابلس في عهد المماليك كانت تشتمل على:

مدينة طرابلس، عمل حصن عكار، عمل جبة المنيطره، عمل جبال الضنية، عمل بشراي، عمل انفه في شمال لبنان الحالي.

وعمل حصن الأكراد، عمل بلاطنس، عمل قلعة صهيون، عمل اللاذقية، عمل المرقب، عمل الرصافه، عمل قلعة الخوابي، عمل قلعة القدموس، عمل قلعة الكهف، عمل المنيقّة، عمل العليقه، عمل انطرطوس، عمل جبله في شمالي سوريا الحالية (راجع تفاصيل هذه الأعمال في باب الإدارة).

وبذلك تكون نيابة طرابلس المملوكية مشتملة على الشريط الساحلي المحصور بين البحر المتوسط غرباً والسلسلة الجبلية المطلة عليه شرقاً، من جسر المعاملتين صعوداً حتى المنيطره إلى ما بعد اللاذقية حتى أول خليج انطاكية، ومنه صعوداً إلى قرب مجرى نهر العاصي، أو منحدرات جبال العلويين.

وبهذا تكون شبيهة بكونتية طرابلس التي امتدت من الشمال من حدود مرقيه إلى وادي المعاملتين في الجنوب، ومن البحر إلى خطّ تقسيم المياه، وقد تجاوزت ذلك في القرن الثاني عشر إلى ضفاف العاصي وضفاف بحيرة حمص[١٩].

وهذا ما عبّر عنه ابن فضل الله العمري[٢٠] بقوله إن نيابة طرابلس يحدها من الجنوب جبل لبنان ممتداً على ما يليه من مرج الأسل، حيث يمتد نهر العاصي، ومن الشرق نهر العاصي، ومن الشمال قلاع الدعوة الإسماعيلية، ومن الغرب البحر الرومي. وبذلك يكون العمري قد رسم حدود نيابة طرابلس على أنها، من الشرق تتوقف عند مقلب المياه في سلسلة جبال لبنان الغربية، ثم تنعكف إلى مجرى العاصي شرقاً، أما من جهة الشمال فإلى ما بعد بلدة اللاذقية إلى قلاع الدعوة الاسماعيلية، دون أن يكمل مع مجرى النهر؛ ومن الغرب البحر، ومن الجنوب الخطّ التقليدي في وادي المعاملتين قرب مدينة جونية الذي يفصل معاملة طرابلس عن معاملة بيروت.

ونجد وصفاً لنهر العاصي وللجبال التي تشكّل حدود هذه النيابة في نصوص الحقبة، منها ما جاء عند القلقشندي.

فبخصوص نهر العاصي، يذكر أنه يسمى أيضاً نهر حماه، ويسقي الأرض بنواعير بعكس الأنهر الأخرى، كما يسمى النهر المقلوب لجريه من الجنوب إلى الشمال بعكس الأنهر الأخرى التي تجري من الشمال إلى الجنوب. وهو ينبع من ضيعة تسمى الرأس شمال بعلبك، ثم ترفده مياه مغارة الراهب، ثم يمتد من هناك إلى بحيرة قدس غربي حمص، ثم يتجاوز حمص إلى الرستن فحماه

فشيزر فبحيرة إفامية، فدركوش، فجسر الحديد شرق جبل اللكام. فإذا وصل إلى جسر الحديد انقطع الجبل المذكور هناك، واستدار النهر وسار باتجاه الجنوب الغربي فيمرّ على سور انطاكية ومنه باتجاه غرب جنوب حتى يصبّ عند السويدية في بحر الروم[٢١].

ويذكر ابن الشحنة، أن للنهر أسماءاً بحسب الأماكن التي يمرّ عليها، فيقال له «الميماس» في جهة بعلبك، والعاصي في حماه و«الأرند» في انطاكية[٢٢].

أما بالنسبة للسلسلة الجبلية المتاخمة في جزء منها لهذا النهر، فيذكر القلقشندي[٢٣]: إن اسم هذه السلسلة جبل الثلج، وهو يسمى جبل (سنير) في شمال دمشق، ويسمى جانبه المطلّ على دمشق جبل (قاسيون)، والجبل المقابل لبعلبك جبل (لبنان)، وإذا تجاوز بعلبك وصار شرقي طرابلس سمّي جبل (عكار)، إضافة إلى حصن بأعلاه يسمّى عكاراً، ثم يمرّ شمالاً ويتجاوز طرابلس إلى حصن الأكراد من عمل طرابلس، ويسامق حمص من غربيها على مسيرة يوم ويمتد حتى يجاوز سمت حماة، ثم سمت شيزر، ثم سمت أفامية، ويسمى قبالة هذه البلاد جبل (اللكام). وجبل اللكام يمتد إلى أن يصير بينه وبين جبل شحشبو، اتساعه نصف يوم حتى يتجاوز صهيون والشفر وبكاس والقصير، وينتهي إلى انطاكية.

هذه السلاسل الجبلية تخترقها ممرات تصل الساحل بالداخل . فجبال العلويين تنخفض في أجزائها الجنوبية وتصبح قابلة للاجتياز بواسطة بعض الممرات. كما أن الممر الأكثر سهولة للاجتياز كان ذلك الذي ينتهي عند رفنية بين حمص وحماه، عند أقدام جبال النصيرية في سهل حمص ويوصل إلى حصن الأكراد. أما ممر تل كلخ فيوصل إلى بحيرة حمص. ونظراً لما كانت تشكله هذه الممرات من خطر على كونتية طرابلس، أكثر الفرنجة الحصون عليها. الممرات الأكثر صعوبة كانت ممر بشراي في وادي قاديشا الذي يصل البقاع بطرابلس، وممر المنيطره الذي يصل بعلبك بجبيل، ولا نجد على هذين الممرين حصوناً وقلاعاً على شاكلة ما كان يوجد في شمالي الكونتية إلا في

موقعي المنيطره وبشراي[٢٤] بسبب الحماية الطبيعية التي تؤمنها الجبال لهذين الممرين.

وقد اشتملت نيابة طرابلس على طرابلس المدينة وعلى توابع بلغ عدد قراها ثلاثة آلاف قرية[٢٥].

ضمن هذا الإطار الجغرافي، كانت نيابة طرابلس في عهد المماليك، مسرحاً لأحداث مهمة، من فتوحات، وحروب أهلية إلى فتن وحملات عسكرية، تحدثنا عنها الصفحات اللاحقة.

ثانياً: الفتوحات

كان المشرق، وبالذات ما يعرف منه حالياً باسم الشرق الأوسط، في أواخر القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، مسرحاً لعمليات ثلاث قوى رئيسية: الصليبيون والتتار والمماليك أو القوة الإسلامية الناشئة حديثاً.

وقد قدّر للمماليك أن يبدأوا بتصفية الوجود الصليبي، بعد ما اعترى جسم هذا الوجود الانقسام والانحلال، وأن يجابهوا خطر قوة عسكرية ناشئة وناشطة، تهدّد الإسلام في وجوده، هي قوة التتار ـ المغول.

بعد الإنتصار الحاسم على التتار في معركة عين جالوت في عام ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م، وفي ما تلا ذلك من معارك، فتحت بلاد الشام أبوابها للماليك. وقد قادهم ذلك إلى السيطرة على دمشق وتوحيد مصر والأجزاء الداخلية من بلاد الشام، وإلى بداية فتح معاقل الصليبيين الواحد تلو الآخر، وكان من بينها «قومسيّة» أي «كونتية» طرابلس التي ستعرف لاحقاً باسم نيابة طرابلس، موضوع بحثنا.

وقد عمد المماليك إلى سياسة الخطوة خطوة في فتوحاتهم، فتحالفوا مع بعض القوى الموجودة في المنطقة على حساب أخرى. حتى إذا ما ضعفت إحدى الحلقات وكثرت المنازعات، انقضوا على بعض المعاقل الصليبية، فأخذوها ليعودوا إلى المهادنة على ما تبقى، منتظرين فرصة جديدة.

فكانت الأسباب المباشرة للفتوح انتهاز الفرص المتأتية من ضعف عند المغول بموت أحد قادتهم أو المنازعات العميقة بين المراكز الصليبية.

وكانت الهجومات المملوكية بلا سبب مباشر وبدون مقدمات أو لأسباب واهية، لأن ثمة دافعاً واحداً كان يحفّز جيوشهم دائماً للحرب، ألا وهو الجهاد ضدّ الصليبيين الفرنجة، وضدّ المتعاونين معهم من غلاة الشيعة ومن النصارى.

فكيف تمّت، إذاً، هذه الفتوحات؟

أ ـ طلائع ممارسة السلطة المملوكية في نيابة طرابلس

عندما جلس الملك الظاهر بيبرس (١٢٦٠ ـ ١٢٧٧) في الإيوان في عام ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م، معلناً بدء سلطنته، رسم أن يكتب إلى الأقطار، فأرسل يعلم بذلك صاحب حمص وصاحب حماه وصاحب صهيون الأمير مظفر الدين، وسائر الإسماعيلية، وسائر من في بلاد الشام، يعرفهم بالتغيير الذي جرى بعد القضاء على المظفر قطز. وكان هذا الأخير قد بدأ يفكر بمدّ سلطة المماليك على السواحل، التي كانت لا تزال بيد الفرنجة، عندما عين الأمير عز الدين ازدمر الدوادار نائباً على اللاذقية وجبله اللتين لم تكونا قد سقطتا بعد بيد المسلمين[٢٦].

وفي العام نفسه، سار السلطان بيبرس إلى بلاد الشام فحضر إليه إلى دمشق، صاحب حمص وصاحب حماه من الملوك فكتب لهم بالتقاليد واعطى لصاحب حماه بلاد الإسماعيلية[٢٧]. فكان هذا أول ممارسة فعلية لسلطة مملوكية على أرض ما سيعرف لاحقاً باسم نيابة طرابلس.

وفي رجب من عام ٦٦٠ هـ/ ١٢٦٢ م قدم الأمير عماد الدين ابن الأمير مظفر الدين صاحب صهيون، القلعة الإسماعيلية، رسولا من جهة أخيه الأمير سيف الدين لزيارة السلطان بيبرس، فأحسن إليه وكتب له منشوراً في بلاد حلب بثلاثين فارساً وكتب له منشوراً آخر في البلاد الرومية بمائة طواشي[٢٨]. وفي عام ٦٦١ هـ/ ١٢٦٣ م، تجدد تقرب الإسماعيلية من السلطان بيبرس مع وصول رسل دار الدعوة ووصول ولدي مقدمي الدعوة لزيارة السلطان[٢٩].

هكذا، كانت أول ممارسة للسلطة المملوكية في إطار ما سيعرف باسم نيابة طرابلس، وريثة «قومسيّة» طرابلس الفرنجية، وقد جاءت تسليماً طوعياً في بعض مناطق الشيعة الإسماعيلية للسلطة المملوكية، ولكنه كان تسليماً شكلياً على طريقة التقية الشيعية بانتظار ما ستؤول إليه الأمور.

ولا يبدو أن المماليك كانوا ينتظرون، بصبر، سقوط معاقل قومسيّة

طرابلس سلما، إذ ما ان حلّ عام ١٢٦٥ م، حتى بدأت الآلة العسكرية المملوكية بانتزاع مناطق هذه القومسيّة بشتى الوسائل، خاصة بقوة السلاح.

وقد جاءت أولى خطوات السلطان بيبرس باتجاه كونتية طرابلس، كردّ على تصرفات بوهيمند السادس (١٢٥١ ـ ١٢٧٥) صاحب انطاكية وطرابلس الذي أساء التصرّف بحق أهالي حلب عند استيلاء التتار عليها، فقتل وأسر وسبى. وعلى هذا الأساس، سدد بيبرس أولى ضرباته إلى إمارة انطاكية[٣٠].

ففي عام ٦٦٠ هـ/ ١٢٦٢ م، أرسل السلطان بيبرس، أحد قادته الأمير شمس الدين سنقر الرومي للإغارة على أنطاكية، فنازل صاحبها وتمكن من إحراق مينائها وأسر المئات من سكانها[٣١].

وبعدما جرى ما جرى في انطاكية، كان الفتح بانتظار بيبرس في حلبا وعرقا والقليعات.

ب ـ فتح حلبا وعرقا والقليعات

في عام ٦٦٤ هـ/ ١٢٦٦ م، بدأت فتوحات الملك الظاهر بيبرس (٦٥٨ ـ ٦٧٦ هـ/ ١٢٦٠ ـ ١٢٧٧ م) في ساحل طرابلس[٣٢].

ففي تلك السنة خرج الملك الظاهر بعساكره من الديار المصرية وسار إلى بلاد الشام، حيث جهّز عسكراً سيّره إلى ساحل طرابلس، وكانت النتيجة: فتح حصن من عمل حصن الأكراد، وحلبا وعرقا والقليعات[٣٣].

وقد جارت عساكر المسلمين على سكان البلاد من النصارى. ويخبر الدويهي بهذا الخصوص أنه في عام ١٢٦٢ م، أبطل أهل قرية أدّه في بلاد البترون التصوير على حيطان كنيسة مار سابا بسبب الاضطهاد[٣٤].

ولربما نجد أسباب هذا الجور في الهجوم الفاشل الذي قام به بوهمند السادس (١٢٥١ ـ ١٢٧٥) على مدينة حمص، فكان ردّ فعل الظاهر بيبرس على ذلك حملة مباشرة على السواحل هاجمت طرابلس، فامتنعت عنها، فما كان من

الجيش الإسلامي إلاّ أن امتصّ فشله بالاستيلاء على بعض الحصون المدافعة عن المدينة والمجاورة أو المحيطة بها، فكانت السيطرة على القليعات وحلبا وعرقا وتخريبها[٣٥] على جاري عادة المماليك مع الآثار الصليبية.

وإذ حصلت الإغارة على بلاد طرابلس، وصلت لعند السلطان بيبرس رسل الفداوية الإسماعيلية، فعاب عليهم حمايتهم لمواشي وأموال الفرنج أثناء الغارة وادّعاءهم دفع القطيعة للفرنج لأن عساكر السلطان بعيدة، وأنكر عليهم استغلال بلاد الحصون من دون المشاركة في نجدة الإسلام بالعسكر أو بالمال. فعند سماع الإسماعيلية بذلك أرسلوا الصاحب جمال الدين لمقابلة بيبرس مستعطفاً خاطره بالالتزام بحمل جملة من المال. ثم جاءت رسل صهيون فأنكر السلطان على الإسماعيلية عدم حضور صاحب الحصن بنفسه واحضاره للنجدة[٣٦]. وعندما عرض «الاسبتار» الصلح على بيبرس من جهة حمص وبلاد الدعوة، اشترط عليهم أبطال القطائع على مملكة حماه وغيرها وكذلك على بلاد الدعوة وكانت تدفع ألفاً ومائتي دينار ومائة ألف مد حنطة وشعيراً نصفين[٣٧].

ويروي ابن عبد الظاهر، خبراً مفاده أنه في نصف رمضان قام مقدّمو بلد جبيل «جاسوا بلاد جبيل ووصلوا إلى حصن على نهر إبراهيم فقاتلوا من به من الفرنج يوماً كاملاً، وملك المسلمون الحصن، وهدم»[٣٨].

في جمادى الآخر سنة ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٧ م، وصلت رسل الدعوة حاملين لبيت مال المسلمين القطيعة التي كانت تدفع للفرنج[٣٩].

وفي السنة نفسها، وقّع السلطان مع «بيت الاسبتار» صلحاً على حصن الأكراد والمرقب لعشر سنوات وعشرة شهور وعشرة أيام وعشر ساعات بشرط أن النسخ يكون للسلطان. وبنتيجة ذلك بطلت القطائع عن بلاد الدعوة وحماة[٤٠].

يبدو أنه كان لقلاع حلبا والقليعات وعرقا دور استراتيجي ـ اقتصادي كبير في حماية مدينة طرابلس. وقد كان بقلعة حلبا الكثير من النحاس والصناديق والسكر وغيره، وكانت حصانتها شبيهة بحصانة قلعة عجلون، وقد فتك العسكر

المملوكي بأواخر أهل حلبا وسبوا نساءهم. وقلعة عرقا كانت شبيهة بقلعة حمص، غلاّتها كثيرة ويبلغ محصولها في السنة من الهلالي خمسة عشر ألف دينار، والأقصاب عشرون ألف دينار، والمزروعات كثيرة[٤١]. (وهذا أمر طبيعي لوقوع عرقا وسط سهل عكار الخصيب).

كانت هذهِ القلاع الثلاث بمثابة «مثلث استراتيجي لحماية طرابلس من كل هجوم مصدره الشمال والشمال الشرقي»[٤٢]. وفي رأي «ج. براور»، كان سقوط القليعات وحلبا وعرقا إيذاناً بالحملة الكبيرة التي ستوجه إلى مملكة أرمينيا وتصل إلى عاصمتها سيس وعلى رأسها قلاوون أحد كبار بيبرس وخليفته لاحقاً[٤٣].

وبانتزاع هذا المثلث، كان بإمكان بيبرس جس نبض طرابلس تجاه ما يخطط له، فكان له هجوم على المدينة باء بالفشل.

ج - محاولة فاشلة لفتح طرابلس، غزوة على قرية الحدث، وتسليم جبله

وبحجة تعدّي صاحب طرابلس على بلاد الإسلام وأخذه البلاد المجاورة له ومعاونته للتتار، سيّر بيبرس، كما رأينا، غارة على بلاد طرابلس، ثم أردف ذلك بحملة قادها شخصياً، مرّ فيها بجبال الظنين، انطلاقاً من بعلبك بعد اجتيازه للجبال الصعبة المسالك في تلك المنطقة، ثم خيّم على طرابلس في شعبان سنة ٦٦٦ هـ/ ١٢٦٨ م فناوش أهلها وأخذ برجا من الأبراج المحيطة بالمدينة وضرب أعناق من كان فيه من الفرنج. ثم أغارت عساكر بيبرس على قرية الحدث في منطقة الجبة من جبل لبنان فأخربتها ونهبت الجبال المحيطة بها، أي القرى الواقعة قربها، وغنمت شيئاً كثيراً وأخذت بالسيف عدة مغاور كان السكان قد تحصنوا فيها، وأحضروا المغانم والأسرى إلى السلطان، فضرب أعناق الأسرى، وقطع الأشجار وهدم الكنائس، وقسم الغنائم في العسكر، ثم رحل في ٢٩ شعبان[٤٤].

كما أن عسكر السلطان في إغارته على بلاد طرابلس، غوّر أنهارها وأخرب قراها[٤٥].

ولقد أشكلت الأمور على الدكتور عمر تدمري في روايته لأحداث هذه المحاولة الفاشلة في فتح طرابلس من قبل بيبرس. فأورد أن النصارى انحدروا من الجبال وأغاروا على عسكر بيبرس وهو مقيم على حصار طرابلس، لذلك أمر عساكره بالإغارة على جبال النصارى فخرّبوا حدث الجبة. ولما عجز بيبرس عن فتح طرابلس، خرّب ربضها وغوّر أنهارها وهدم كنائسها، واستند في روايته عن النصارى إلى ابن عبد الظاهر وإلى الدويهي.

ولقد تبيّن لنا بالرجوع، بالذات، إلى نصّ ابن عبد الظاهر، في كتابه «تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور»، أن الكاتب يروي خبراً آخر عن حملة على الحدث ولكن على عهد قلاوون كما سنرى، كما أن الدويهي في تاريخ الأزمنة، يورد أخبار هذه الحملة في سياق حديثه عن قلاوون أيضاً. كما أن تحليل الدكتور كمال الصليبي لهذه الأحداث بالذات، استناداً إلى ابن عبد الظاهر، يؤكد رأينا[٤٦]، ولنا عودة إلى هذه الحملة في موضوع خاص بها. كما أن الدويهي يوضح بأن بيبرس لم يخرّب الكنائس ويغوّر الأنهر في طرابلس بل في بلادها. وإذ أشكل الأمر على الدكتور تدمري، عاد فأفرد لهذه القصة كلاماً في حديثه عن عهد السلطان المنصور قلاوون[٤٧].

أثناء نزول السلطان على طرابلس، جاءه صاحب بلاد صافيتا وانطرسوس وقدّم له الهدايا، فكان ذلك سبباً لحماية بلاده من الغزو[٤٨]. صاحب تلك البلاد كان يدعى «إفرير (فرير) ما هي صافاج» وقد لقي السلطان إلى الشام بعد فتح صفد وسأل الأمان على بلاده، فاشترط السلطان تسليم جبله وبلادها، فأجابه إلى ذلك، فولّى السلطان عليها علاء الدين بن القاضي واستناب بها حسام الدين الجلوكي[٤٩]، هكذا، لم يكن الحلّ العسكري، الطريقة الوحيدة التي اعتمدها بيبرس في فتوحاته، فقد كان للسياسة وللمناورة والضغط دورها في تحقيق

مشاريعه. وقد نجحت هذه اللعبة معه وقادته إلى تسلّم بلاطنس ومصياف من الإسماعيلية.

د ـ تسلّم بلاطنس ومصياف من الإسماعيلية

في سنة ٦٦٧ هـ/ ١٢٦٩ م، تسلّم الملك الظاهر، بلاطنس، القلعة الإسماعيلية من مظفر الدين عثمان صاحب صهيون الذي كان قد استولى عليها عند مجيء التتار، ثم ماطل بتسليمها عند طلب السلطان بيبرس ذلك منه، فلما استعمل القوة معه أذعن له[٥٠].

في سنة ٦٦٨ هـ/ ١٢٧٠ م، جهّز الملك الظاهر عسكراً إلى بلاد الإسماعيلية فتسلموا مصياف في العشر الأوسط من رجب. وتفاصيل ذلك: أن السلطان في تلك السنة نزل قريباً منهم فحضر إليه صاحب حماه وصاحب صهيون، ولم يحضر نجم الدين بن الشعراني، صاحب الإسماعيلية، ولا ولده شمس الدين وسيّروا يطلبون تنقيصاً من القطيعة التي كانوا يقومون بها للفرنج وأبطلها السلطان وتقرّرت لبيت المال. وكان صارم الدين بن الرضى صاحب العليقه، قد غضب السلطان عليه من عدة سنين، فتوصل صاحب صهيون في اصلاح أمره، فقلّده السلطان بلاد الدعوة الإسماعيلية استقلالا، وسيّر إليه طبلخاناه (أي أمير عسكر تضرب له الموسيقى) وعزل نجم الدين وولده من نيابة الدعوة، وبعث صارم الدين بالصحوبية على عادة نوّاب الدعوة الإسماعيلية، فتوجّه في ٢٧ جمادى الآخرة ومعه جماعة من الشام وشيزر وغيرها فوصلوا مصياف وتحدثوا مع أهلها، فامتنعوا عن القبول بما جرى، فسيّر السلطان إليهم عسكراً فاستسلموا له. فلما علم نجم الدين وولده بسرعة الإستيلاء، حضروا إلى السلطان، فعفا عن الوالد وولاّه النيابة شريكاً وقرر عليه حمل مئة وعشرين ألف درهم في كل سنة، وعلى صارم الدين ألفي دينار في كل سنة. وكان ذلك برأي محيي الدين بن عبد الظاهر من العجائب لأن الإسماعيلية اعتادوا أن يأخذوا ولا يعطوا[٥١].

الفتح السلمي، سرعان ما كان ينفد زخمه، فيكون الفتح عنده وسيلة ناجعة، خاصة عندما يكون ما قد يفتح، معقلاً عسكرياً مهماً كحصن الأكراد.

هـ ـ فتح صافيتا وحصن الأكراد والمجدل وعكار والعليقه وتل خليفة

كانت أولى فتوحات المماليك المهمة في عام ٦٦٩ هـ/ ١٢٧١ م في ما سيعرف لاحقاً باسم نيابة طرابلس، لكل من صافيتا والمجدل وحصن الأكراد، وقد تبع ذلك مصالحة على نصف طرسوس وعلى هدنة مع المرقب ومحاولة فاشلة لأخذ قبرص، وفتحا لعكار والعليقه وتل خليفة[٥٢].

ومن الروايات التي تخبر عن مجريات هذه الفتوح، ما ذكره ابن شدّاد (ت ٦٨٤/ ١٢٨٥) الذي عايش ورافق هذه الأحداث، الذي يخبر بأن السلطان بيبرس «نزل ـ . . . على حصن الأكراد، يوم الثلاثاء، ١٩ رجب، ونصب على أسواره المجانيق. وكانت له ثلاثة أسوار وثلاث باشورات، وواصل الحصار إلى أن هدم الأسوار يوم الأربعاء العشرين من الشهر. ثم أخذت إحدى الباشورات في الحادي والعشرين، وتأخر ما بقي منها لترادف الأمطار، إلى أن فتحت الثانية، يوم السبت سابع شعبان، وتعرف ب «الحدادية».

ثم فتحت يوم الأحد الخامس عشر من شعبان، على يد نقابي الملك السعيد ومباشرة ملك الأمراء بدر الدين بيليك الخزندار.

ثم دخلت العساكر الحصن بالسيف، وقتلوا من فيه من الاسبتار، وأسروا الجبلية، وعفا عن الفلاحين لعمارة البلاد.

فلما رأى أهل القلعة ما حلّ بأهل البلد، طلبوا الأمان، فأجيبوا، وتسلّمها مولانا السلطان يوم الاثنين خامس وعشرين شعبان. وخرج من منها إلى طرابلس. . . .

ثم رحل السلطان بعد أن ترك عليه الأمير عز الدين أيبك الأفرم لعمارة

أسواره، وولى فيه نائباً، ونزل على حصن ابن عكار، يوم الثلاثاء، ثالث عشري شهر رمضان، وكان به قوم من الفرنج سفهاء لا يفترون عن قول القبيح فنصب عليه المجانيق، ورماه بحجارتها من يومه... واستمر الرمي إلى الظهر من اليوم التاسع والعشرين، فخرج منهم رسول يطلب لهم الأمان ودام تردده إلى أن استقر والقاعدة إلى أن يأمنهم من القتل ويمكنهم من الوصول إلى طرابلس، وتسلّم مولانا السلطان الحصن... ثم رحل إلى برج صافيتا[٥٣].

هذا النّص يتطابق مع ما جاء في «البداية والنهاية» لابن كثير المتوفي في سنة ٧٧٤ هـ/ ١٣٧٢ م، الذي يروى الآتي:

«وفي يوم الخميس ثامن رجب دخل الظاهر دمشق وفي صحبته ولده الملك السعيد وابن الحنا الوزير وجمهور الجيش ثم خرجوا متفرقين وتواعدوا أن يلتقوا. فلما اجتمعوا فتحوا صافيتا والمجدل، ثم ساروا فنزلوا على حصن الأكراد يوم الثلاثاء تاسع عشر رجب، وله ثلاثة أسوار، فنصبوا المنجنيقات ففتحها قسراً يوم نصف شعبان، فدخل الجيش، وكان الذي يحاصره ولد السلطان الملك السعيد، فأطلق السلطان أهله ومنّ عليهم وأجلاهم إلى طرابلس، وتسلّم القلعة بعد عشرة أيام من الفتح، فأجلى أهلها أيضاً وجعل كنيسة البلد جامعاً، وأقام فيه الجمعة، وولّى فيها نائباً وقاضياً وأمر بعمارة البلد، وبعث صاحب طرسوس بمفاتيح بلده يطلب منه الصلح على أن يكون نصف غلال بلاده للسلطان، وأن يكون له بها نائباً فأجابه إلى ذلك، وكذلك فعل صاحب المرقب، فصالحه أيضاً على المناصفة ووضع الحرب عشر سنين، ...» وكان الذي كلف بعمارة الحصن الأمير عز الدين أيبك الأفرم[٥٤].

وبخصوص فتح حصن عكار، يذكر نصّ ابن كثير بأن السلطان، بعد فتحه لصافيتا وحصن الأكراد والمجدل، سار: «فنصب المجانيق على حصن عكار فسأله أهلها الأمان على أن يخليهم فأجابهم إلى ذلك، ودخل البلد يوم عيد الفطر فتسلمه، وكان الحصن شديد الضرر على المسلمين، وهو واد بين جبلين، ثم سار السلطان نحو طرابلس فأرسل إليه صاحبها يقول: ما مراد السلطان في

هذه الأرض؟ فقال جئت لأرعى زروعكم وأخرب بلادكم، ثم أعود إلى حصاركم في العالم الآتي. فأرسل يستعطفه ويطلب منه المصالحة ووضع الحرب بينهم عشر سنين فأجابه إلى ذلك، وأرسل إليه الإسماعيلية يستعطفونه على والدهم، وكان مسجوناً بالقاهرة، فقال: سلموا إليّ العليقه وأنزلوا فخذوا اقطاعات بالقاهرة، وتسلّموا أباكم. فلما نزلوا أمر بحبسهم بالقاهرة واستناب بحصن العليقه...»[٥٥].

وكما يظهر ذلك النّص، كانت الغاية من الحملة الإغارة على جبله واللاذقية ومرقب وعكا على الساحل المتوسطي، ولكن ذلك لم يحصل فكان أن نجح بيبرس بالسيطرة على صافيتا والمجدل وحصن الأكراد.

عامل بيبرس سكان حصن الأكراد بالحسنى فأجلاهم عنه سالمين، ولكنه حوّل الكنيسة جامعاً وهذه سياسة سيتبعها المماليك تجاه أماكن العبادة كافة.

وحوّل حصن الأكراد إلى مركز للنيابة وللقضاء سيبقى فيها إلى حين سقوط طرابلس بيد المماليك.

كان من نتائج فتح هذه الحصون أن عاد العمران إلى البلاد ومصالحة طرسوس والمرقب للمماليك وقطع الطريق على صليبيّي قبرص بمساندة أخوانهم على الساحل.

ونتساءل عن كيفية فتح هذه الحصون قسراً أو صلحاً. بالنسبة لصافيتا والمجدل، النّص لا يذكر شيئاً حول الموضوع، بينما يستعمل لفظة «قسراً» بالنسبة لحصن الأكراد مما يعني أن الحصنين الأولين فتحا صلحاً. وكذلك كان مصير حصن عكار الذي سلّم بالأمان أي صلحا[٥٦].

وبالسيطرة على هذه الحصون أضحت طرابلس بحكم الساقطة بيد المماليك، وكانت استراتيجية بيبرس تتجه إلى عزل المدينة اقتصادياً بتخريب البلاد المحيطة بها وبالقضاء على المحاصيل الزراعية كما يبدو ذلك من كلام التهديد الوارد في النّص، ثم عدل عن ذلك بعد طلب صاحب طرابلس

للمصالحة، وكانت الغاية من ذلك التمهيد لفتح طرابلس بالسيطرة نهائياً على المنطقة التي ستشكل ما سيعرف لاحقاً بنيابة طرابلس، بحيث يأتي فتح المدينة كتتويج للأعمال العسكرية في نيابتها وفي كلفة أقل بعدما تصبح المدينة معزولة في بحر معاد يسيطر عليه المماليك.

ويستوقفنا في النص مصير الإسماعيلية. فزعماء هؤلاء كانوا لاجئين عند الصليبيين، ومتّهمين بالتعامل معهم، ولذلك كان والدهم مسجوناً عند المماليك. وقد استعمل بيبرس الخدعة معهم، إذ تظاهر القبول بشروطهم لإطلاق والدهم بعد توسط الصليبيين لهم، وهو أمر يظهر مدى عمق الإنقسام الديني، بين المماليك السنّة والإسماعيلية الشيعة «المتطرفين»، حتى إذا ما أصبحوا بين يديه استغل الفرصة فسجنهم وحصل سلماً على حصن العليقه العائد للإسماعيلية.

كان حصن الأكراد، من أهمّ ما افتتح من معاقل، في ما سيعرف لاحقاً باسم نيابة طرابلس.

وقد مهّد بيبرس لهذا الفتح عندما قام في ثالث جمادى الآخرة ٦٦٨ هـ/ ١٢٧٠ م بغزوة إلى محيط حصن الأكراد رعت فيها خيول السلطان المروج والزرع، ممهّدة لعزل الحصن اقتصادياً، وكان ذلك على حدّ قول محيي الدين بن عبد الظاهر، وهو كاتب سيرة السلطان بيبرس، «أحد أسباب الاستيلاء على الحصن، لأنه ليس له مادة إلا من زرع بلده...»[٥٧]،

ابن عبد الظاهر، يعطي تفاصيل كثيرة عن فتح هذه الحصون ويضيف إلى الحصون المذكورة أعلاه اسم حصن تل خليفة. ويشير إلى مشاركة صاحب قلعة صهيون الإسماعيلي الأمير سيف الدين والأمير صاحب الدعوة الإسماعيلية نجم الدين في الحصار على حصن الأكراد[٥٨].

ولا تتفق النصوص التاريخية كلياً بشأن هذه الفتوحات.

فأبو الفداء، المعاصر للحملات والمشارك في بعضها لاحقاً منذ عام ٦٨٤

هـ/ ١٢٨٥ م يذكر أن فتح عرقا قد تمّ في عام ٦٦٤ هـ/ ١٢٦٦ م، كما يجعل منازلة حصن الأكراد في تاسع شعبان وامتلاكه في ٢٤ شعبان، إضافة إلى جعلة فتح حصن عكار يلي فتح حصن الأكراد في سلخ رمضان[٥٩]. ويشارك ابن عبد الظاهر أبو الفداء في هذه التواريخ[٦٠].

وفي شهر شوال ٦٦٩ هـ بعث السلطان بيبرس باتابكه ودواداره فاجتمعا بصاحب طرابلس بوهمند السادس وكتب هدنة لعشر سنين[٦١].

بدت طرابلس مهدّدة، بعد سقوط مقدمة حامياتها، وكان بإمكان السلطان مباشرة الانقضاض عليها، ولكنه تردّد عند سماعه أخبار قدوم حملة صليبية جديدة، كانت طلائعها قد وطأت أرض عكا في أواخر رمضان ٦٦٩ هـ/ ١٢٧١م بقيادة «أدوارد» الأول ملك انكلترا. واستغلّ بيبرس خوف بوهيمند السادس وطلبه للصلح بسبب ما ذكرناه من أحداث، فطلب الصلح، ففاوضه بيبرس عليه مشترطاً أن يكون له النصف من أعمال طرابلس، فرفض طلبه، وعاد الاثنان إلى المفاوضة، بعد عودة المماليك للضغط عسكرياً على طرابلس. فعقد الصلح لعشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام، ثم تجدّد في محرم ٦٧٤ هـ على يد بوهمند السابع (١٢٧٥ ـ ١٢٨٧ م) بعد وفاة والده في رمضان ٦٧٣ هـ/ ١٢٧٥م[٦٢]،

وكان السلطان قد عقد في ٦٦٩ هـ صلحاً على قلعة لدّ، وفيه صلح المرقب وغيره[٦٣].

ويحلل د. أحمد حطيط[٦٤] سبب الهدنة، في الوقت الذي كانت فيه الظروف تسمح بالاستيلاء على طرابلس، فيرجعها إلى عاملين هامين أخّرا سقوط المدينة بيد السلطان وهما:

١ ـ تعاون الإسماعيلية والنصارى (الموارنة) في شمال البلاد مع الصليبيين.

٢ ـ تعدّد جبهات القتال.

فالإسماعيلية، كانوا قد أقاموا لهم دويلة مستقلة في شمالي سوريا الحالية، اعتمدوا لبقائها على اللعب على التوازن بين قوّتي المسلمين والصليبيين وعلى الحصون المنيعة في القدموس والخوابي والكهف ومصياف، كما اعتمدوا على سياسة الاغتيالات. ومع المماليك ضعف الإسماعيلية ثم فقدوا استقلالهم مع السلطان بيبرس. فكيف تمّ ذلك؟

و ـ تسلّم كافة حصون الإسماعيلية

ومن صافيتا وحصن الأكراد وطرسوس وعكار، إلخ، انتقل السلطان الظاهر بيبرس إلى حصون الإسماعيلية.

ففي عام ٦٧١هـ/ ١٢٧٣ م، في ذي القعدة، عصت طائفة من الإسماعيلية في القدموس والمينقه والكهف وقتلت والي القدموس وكاتبت الملك الظاهر، وسلّمته الحصون فبعث إليهم نائباً هو دواداره سيف الدين وعوّض عنهم اقطاعاً بمصر. ثم سلّم الإسماعيلية ما تبقى بأيديهم من الحصون وهي الكهف والقدموس والمينقه، ولم يبق بالشام شيء لهم من القلاع، واستناب السطان فيها[٦٥]. وكان الإسماعيلية قد سلّموا سابقاً مصياف وبلاطنس كما رأينا. وكانوا قد سلّموا قلعة العليقه وبلادها في شوّال سنة ٦٦٩ هـ/ ١٢٧١ م[٦٦] والرصافه في أواخر شوّال[٦٧].

أما قلعة صهيون فسلّمت في عام ٦٧٠ هـ/ ١٢٧١ م، بعد قدوم صاحبيها إلى الملك الظاهر بيبرس، فأحسن إليهما وأعطى سابق الدين أمرة طبلخانا[٦٨]، كما ذكرنا سابقاً.

وعندما استولى السلطان بيبرس على كافة حصون الدعوة الإسماعيلية، أقيمت هناك فيها صلاة الجمعة وترضّى عن الصحابة بها، وعفيت المنكرات منها وأظهرت شرائع الإسلام وشعائره[٦٩].

ويروي محيي الدين بن عبد الظاهر، تفاصيل وقائع التسليم فيقول: بأن

الصاحب نجم الدين كان قد حضر إلى برج حصنَ الأكراد سنة الغارة فأنعم عليه بيبرس بأن يكون هو وولده احدهما في الخدمة والآخر في الحصون لقاء مبلغ من المال ذكرناه سابقاً. ثم نسب إلى شمس الدين مكاتبة الفرنج ثم اعتذر عن ذلك للسلطان سنة فتح حصن الأكراد وعرض تسليم القلاع الإسماعيلية للسلطان. وتوجه شمس الدين إلى قلعة الكهف على أن يعود بعد عشرين يوماً وسافر أبوه إلى القرين بانتظار عودة الولد. وبدأ بالتهرب عن العودة، فكتب إليه السلطان يذكّره بأنه أعطاه أمرة أربعين فارساً (طبلخانا) واقطاعاً. فاعتذر عن الحضور. وطلب حصن القليعة لقاء تسليم بقية الحصون، فأجيب إلى ذلك. فامتنع أهل الكهف عن التسليم فأمر السلطان بمضايقتهم، فندم شمس الدين على فعلته وذهب لملاقاة السلطان في حماه في ٢٦ صفر. وعندما علم بيبرس بأن أهل الكهف كانوا قد جهزوا فداوية إلى الأمراء المماليك لاغتيالهم، أمر بإمساك شمس الدين وأصحابه وأرسلوا إلى مصر. وأمسك والي الدعوة والناظر بسرمين وأشار عليهم بالطلب إلى أقاربهم بالخوابي بالتسليم لقاء أجرائهم على رسومهم فأذعنوا وسلّموا الحصن. ثم في مستهل شهر ربيع الأول تسلّم نواب حصن الأكراد حصن القليعة بالأمان. وفي يوم الخميس ٣ ربيع الأول توفي سيف الدين صاحب صهيون. فطلب ولداه من عمهما جلال الدين تسليم القلعة لنواب السلطان[٧٠].

وكان أهل الكهف والمينقه والقدموس قد امتنعوا عن تسليم القلاع، فجعل السلطان صاحب حماه متحدثاً في أمر الكهف فتوالت مكاتباته إليهم وهم يماطلون حتى ساءت أحوالهم من مجاوريهم من نواب السلطان أخذاً وسلباً، فاضطر جماعة الكهف لتسليم حصنهم في ٢٢ ذي الحجة سنة ٦٧١ هـ. وتسلّم نواب السلطان حصن المينقه في ٣ ذي القعدة من هذه السنة والقدموس في ٨ ذي القعدة[٧١].

وفي سنة ٦٧٣ هـ/ ١٢٧٥ م، رسم السلطان بيبرس لركن الدين، النايب في بلاطنس بنقل المسلمين باللاذقية إلى البلاد السلطانية، خوفاً من تعدي فرنج طرابلس عليهم بعد تقويتهم لبرج اللاذقية[٧٢].

وما يجب ذكره، هو أنه عند تسلّم السلطان بيبرس لقلاع الإسماعيلية، دفعت قطيعة لبيت المال من الذهب توازي ما كانت تدفعه للفرنج، ثم بطلت القطائع فيما بعد(٧٣).

في سنة ٦٧٤هـ في ثامن المحرّم وصل الأمير سيف الدين بلبان الدوادار إلى طرابلس ومعه كتاب السلطان إلى متملّكها، فما زال حتى قرّر عليه في كل سنة عشرين ألف دينار صورية وعشرين ألف أسير. وسبب هذه المعاهدة تجديد المعاهدة السابقة المعقودة في ٦٦٩ هـ/ مع كونت طرابلس بوهمند السابع(٧٤).

وفي سنة ٦٧٨ هـ/ ١٢٧٩ م، تسلطن الملك المنصور قلاون (١٢٧٩ - ١٢٩٠ م)، فرفض شمس الدين سنقر، نائب الشام، الانصياع له، وأعلن نفسه سلطاناً. وكان قلاوون قد عيّن علم الدين سنجر المنصوري في نيابة السلطنة ببلاطنس(٧٥). وانحاز سابق الدين الإسماعيلي لجهة سنقر، الأمر الذي دفع بقلاوون لمهاجمته، فهرب من أمامه إلى الرحبة، وسار إلى صهيون، في جمادى الأولى من السنة نفسها، فاستولى عليها وعلى برزية وبلاطنس والشغر وبكاس وشيزر وفامية(٧٦).

وفي سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م وقع الصلح بين السلطان المنصور قلاوون وبين الخارج عليه شمس الدين سنقر الأشقر، وكان الصلح في شهر صفر ومضمونه أن الأشقر يسلم شيزر لنوّاب الملك المنصور ويعوضه عنها الشغر وبكاس ومعهما فامية وكفرطاب وانطاكية وعدة ضياع متفرقة، وأن يقيم شمس الدين سنقر الأشقر على ذلك وعلى ما بيده قبل ذلك من البلاد وهي صهيون وبلاطنس وبرزيه واللاذقية ستماية فارس لنصرة الإسلام(٧٧).

وقبل أن تطرح مسألة سنقر، بعد موت بيبرس، كان تصميم المماليك على اقتناص مواقع الصليبيين، لا يفتر اطلاقاً. فبعد انتهاء بيبرس من مسألة السيطرة على الإسماعيلية، بدأ يمهّد لفتح طرابلس جدّيا، فكان أول الغيث، سقوط عرقا على طريق طرابلس.

ز - الاستيلاء على عرقا

عندما فتح السلطان بيبرس لحصن الأكراد، في رجب ٦٦٩ هـ افتتح أيضاً عرقا. ولما وقعت بين السلطان وبين صاحب طرابلس الهدنة على المناصفات في البلاد التي في يده، نزل له من عرقا ولم يناصفه عليها(٧٨). وفي سنة ٦٧٣ هـ/ ١٢٧٥ م، أرسل السلطان الظاهر بيبرس عسكراً للإحاطة بعرقا وبغلال بلادها، فما كان من ملك عكا وقبرس الصليبي، إلا أن تدخّل لصالح هذه البلدة، فبعث السلطان بيبرس دواداره الأمير سيف الدين للتفاوض، فتوجه المذكور، إلى عرقا، وأقام بها، واجتمع عنده نايب بعلبك وولاة البرّ ومشايخ البلاد ومستخدموها ونواب الفرنجة(٧٩).

وإذ سقطت عرقا، وقبل أن يضرب بيبرس ضربته القاضية في طرابلس، بدأ بتحصين المواقع التي سيطر عليها، لا عسكرياً فقط، بل إدارياً عبر تعيين حاكم لنيابة السلطنة في طرابلس، يشرف على الاستعدادات لأخذ المدينة عاصمة النيابة هذه.

وكان الاستيلاء على عرقا بهذه الطريقة، نتيجة لما حصل في مدينة اللاذقية، إذ أن بوهمند السابع، عند استيلائه على حكم طرابلس، وقع خلاف بينه وبين السلطان بيبرس، فيما يتعلّق باللاذقية التي اعتبرها بوهمند من أملاكه، بعكس ما ينصّ عليه عقد الصلح مع أبيه الذي يعطي النصف للمسلمين(٨٠).

وعند مطالبة بيبرس بذلك، عمد الصليبيون إلى تحصين المدينة، فخرج منها المسلمون خوفاً من اعتداء الصليبيين، فتخوف الأخيرون من هذا الإجراء، وعادوا للتفاوض مع بيبرس، الذي قبل بإعادة مدّ الجسور مع الفرنج وأرسل دواداره الأمير سيف الدين لعرقا لهذه الغاية(٨١).

وفي خضم هذه الأحداث، لا بدّ من تحديد مركز العمليات ضد طرابلس، انطلاقاً من حصن الأكراد وعبر نائب محدّد للسلطنة.

ح ـ أول حاكم مملوكي لما سيعرف باسم نيابة طرابلس

أول نائب مملوكي، لما سيعرف باسم نيابة طرابلس، يرد ذكره في كتاب ابن عبد الظاهر، مؤرخ سيرة الملك الظاهر، هو صارم الدين قيماز الكافري، المتوفي سنة ٦٧٣ هـ/ ١٢٧٥ م. «قايماز بن عبد التركي، الكافري، يلقب حسام الدين، كان نايب السلطنة بحصن الأكراد والسواحل والفتوحات توفي في هذه السنة ٦٧٤ هـ. . .»[٨٢].

إذاً، أول مركز لنيابة السلطنة كان في حصن الأكراد، وقد شملت سلطته الحصن المذكور والسواحل وما فتح ضمن نطاق ما سيعرف باسم نيابة طرابلس.

وفي سنة ٦٧٨ هـ/ ١٢٧٩ م، فوّض الملك المنصور قلاوون (١٢٧٩ ـ ١٢٩٠ م) نيابة السلطنة بحصن الأكراد وما معه من الفتوحات لمملوكه الأمير سيف الدين بلبان الطباخي[٨٣].

وكان «بلبان» قد لعب دوراً أساسياً في عهد السلطان بيبرس عندما طلب ملك الفرنج من السلطان حضور ممثل عنه إلى طرابلس للتفاوض في الصلح، فكان أن انتدب سيف الدين بلبان الدوادار، فسار إليها ودخلها في ١٨ محرّم ٦٧٤ هـ/ ١٢٧٥ م، ومعه كثير من المماليك السلطانية ومماليكه وأجناده. وقد تقرّر الصلح لقاء دفع عشرين ألف دينار صورية وعشرين أسيراً[٨٤].

وهناك سؤال لا بدّ منه، ولا يجيب عليه من كتب حول هذه الحقبة. لمن كانت خاضعة طلائع ما فتح مما سيعرف لاحقاً باسم نيابة طرابلس؟ الجواب على ذلك عند ابن شداد، الذي يذكر «أن ما كان بيد بيبرس من ولايات حمص: ولاية حصن الأكراد، وفيها قلاع الإسماعيلية، ولكل قلعة ولاية[٨٥].

ط ـ محاولة فاشلة في فتح حصن المرقب

في عام ٦٧٩ هـ/ ١٢٨٠ م، جرت محاولة فاشلة لفتح حصن المرقب[٨٦].

ويروي ابن الفرات أنه في عام ٦٧٩ هـ/ ١٢٨٠م، كتب الأمير سيف الدين بلبان الطباخي نايب السلطنة بحصن الأكراد إلى السلطان الملك المنصور يستأذنه في غزو الفرنج بالمرقب، لأنهم لما بلغهم قدوم التتر قويت نفوسهم، فأذن السلطان له في ذلك. فجمع جيوش الحصون وأمراء التركمان والرجالة واستصحب المجانيق وآلات الحصار وتوجه إلى حصن المرقب، ونزل بالقرب منه فاختفى أهله ولم يتحركوا، فقوى طمع العسكر فيهم وتقدموا إلى جانب الحصن فرشقهم الفرنج بالسهام من أعلى الحصن وسهام المسلمين لا تصل إليهم، فاضطرب العسكر، وأمرهم الطباخي أن يتأخروا عن الحصن فظنوها هزيمة وولوا فما أمكنه إلا أن يتبعهم، وخرج الفرنج في أعقابهم ونالوا من المسلمين وجرحوا منهم جماعة، ونهبوا وأسروا جماعة من الرجالة وبلغ السلطان الملك المنصور ذلك فأنكره وكبر لديه وعزم على السفر إلى الشام[٨٧].

ولم يكن هاجس المماليك انتزاع حصون الصليبيين فقط، بل ردّ خطر المغول.

ي ـ مشاركة ما سيعرف باسم نيابة طرابلس بصدّ المغول

وفي ٦٨٠ هـ/ ١٢٨١ م، عبر التتر إلى الشام فوقعت معركة بينهم وبين عساكر الإسلام بقيادة المنصور قلاوون انتهت بانتصاره وشارك فيها عسكر حصن الأكراد[٨٨].

ولنا عودة إلى موضوع الصراع مع المغول ومشاركة نيابة طرابلس فيه في باب خاص من الفصل الذي يحمل هذا العنوان.

وما ان انتهى المماليك من أمر المغول، حتى كان عليهم أن يقرّروا ما سيفعلونه، متابعة الفتح أو الهدنة، فكان الأمر الثاني خيارهم.

ك ـ الهدنة

ولكن بدلاً من أن يتابع الملك المنصور قلاوون الفتح بعد خروجه من

مصر في أول ذي الحجة وقيل في ثالثه[٨٩] وسفره إلى الشام، فضّل عقد معاهدات لعشر سنوات مع أمراء الصليبيين بسبب تهديدات المغول. فكانت معاهدة طرابلس في سنة ١٢٨١ م وفرسان المعبد في ترتوزا سنة ١٢٨٢ م وعكا في ١٢٨٣ م[٩٠].

ويرويَ ابن الفرات أنه في سنة ٦٨٠ هـ/ ١٢٨١ م وصل رسل الفرنج إلى الملك المنصور يسألون تقرير الهدنة والزيادة على الهدنة الظاهرية أي تلك التي عقدوها مع الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري. وما زالوا يترددون إلى أن تقررت الهدنة بين الملك المنصور وولده الملك الصالح علاء الدين علي معاً وبين مقدم الاسبتار وجميع الأخوة الاسبتارية بعكا لمدة عشر سنين كوامل متتابعات وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات، «أول ذلك يوم السبت عشر المحرم الشهر المذكور الموافق لثاني - وقيل ثالث - شهر أيار سنة ١٥٩٢ للإسكندر. وهو سابع بشنس سنة ٩٩٧ لد قلطيانوس على جميع بلاد السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون وولده الملك الصالح علاء الدين علي، وما اشتملت عليه من الأقاليم والممالك والقلاع والحصون والمدن والبلاد والقرى والمزارع والأراضي والمواني والبحور والمراسي والثغور وساير البلاد من الفرات إلى النوبة، وعلى التجار المسافرين في البرّ والبحر والسهل والجبل في الليل والنهار، وعلى قلعة المرقب والربض المرقبي بحقوقه وحدوده.

وتقرّرت الهدنة مع متملك طرابلس الشام بيمند بن بيمند ملك الفرنج لمدة عشر سنين كوامل متواليات، أولها السابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ثمانين هذه السنة (٦٨٠ ه، ١٢٨١ م) الموافق للخامس من شهر تموز سنة ١٥٩٢ للإسكندر اليوناني. وذلك على بلاد الملك المنصور والملك الصالح ولده قريبها وبعيدها سهلها وجبلها غورها ونجدها قديمها ومستجدها، وما هو مجاور لطرابلس ومخادر لها من المملكة البعلبكية وجبالها وقراها الرملية والجبلية وجبال الضنين والقصبين وما هو من حقوق ذلك وعلى الفتوحات المستجدة وهي حصن الأكراد وأفليس والقليعات وصافيتا وميعار واطليعا وحصن

عكار ومرقية ومدينتها وبلادها ومناصفاتها، وهي بلاد الملكية. وجميع بلاد هذه الجهات التي ذكرناها ومناصفات المرقب التي دخلت في الصلح مع بيت الاسبتار وبلده ومدينته، وما هو محسوب منها ومعروف به من حصون وقرى وبلاد الست وبلاطنس وبلادها وقرتص وبلادها وجبله ولاذقية وانطاكية والسويدية وبلاد ذلك وحصن بغراس وحصن ديركوش وصهيون وبرزيه وحصون الدعوة، وغير ذلك من ساير الممالك الإسلامية... وغير ذلك وعلى بلاد الابرنس وعلى طرابلس، وما هو داخل فيها وانفه والبترون وجبيل وبلاد ذلك وعرقا وبلادها المعينة في الهدنة وعدتها أحد وخمسون ناحية، وما هو للخيالة والكنايس وعدتها أحد وعشرون بلداً، وما هو للفارس «روجار دلا لولاي» من قبلي طرابلس يكون مناصفة وعلى أن يستقر برج اللاذقية وميناؤها في استخراج الحقوق والجبايات والغلات وغيرها مناصفة، ويستقر مقامهم باللاذقية على حكم شروط الهدنة الظاهرية الركنية وعلى أن يكون على جسر ارتوسية من غلمان السلطنة لحفظ الحقوق ستة عشر نفراً... ويكون لهم في الجسر بيوت يسكنوها ولا يحصل منهم أذية لرعية الأبرنس، وإنما يمنعوا ما يجب منعه من الممنوعات ولا يمنعوا ما يكون من عرقاً وبلادها من الغلات الصيفية والشتوية وغيرها لا يعارضهم المشدّ فيه، وما عدا ذلك مما يعبر من بلاد السلطان تؤخذ عليه الحقوق، ولا يدخل إلى طرابلس غلة محمية للأبرنس ولا غيره إلا ويؤخذ الموجب عليها وعلى أن البرنس لايستجد خارج ما وقعت الهدنة عليه بناء يدفع ولا يمنع وكذلك السلطان...»[٩١].

ويروي ابن عبد الظاهر أن هدنة لعشر سنوات عقدت في سنة ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢ م بين المنصور قلاوون وبين الديوية (فرسان الهيكل) بعكا والساحل وانطرطوس وتبدأ في يوم الأربعاء ١٥ محرم ٦٨١ هـ/ ١٥ نيسان ١٥٩٣ للإسكندر. وهي تشمل بلاد السلطان وبلاد ولده «وعلى كل ما هو داخل في مملكتهما من الديار المصرية وأعمالها وثغورها وموانيها، والبلاد الشامية وثغورها وحصونها وقلاعها وسواحلها وموانيها، والمملكة الحمصية وبلادها

وأعمالها وقلاع الدعوة وبلادها وأعمالها ومملكة صهيون وبلاطنس، وجبله واللاذقية وما أضيف إلى ذلك، والمملكة الحموية وبلادها وأعمالها، والمملكة الحلبية وأعمالها وبلادها، والفراتية وبلادها وأعمالها، والفتوحات الساحلية، وبلاد حصن الأكراد وبلادها وأعمالها، وما هو داخل فيها ومنسوب إليها ومحسوب منها، حين استقرار هذه الهدنة، من بلاد وقرى ومزارع ومراجات وأراض وأبراج وطواحين وغير ذلك، ومملكة صافيتا وبلادها وأعمالها وقراها وأسوارها، . . . وميعاز وأعمالها . . . والعريمة وأعمالها . . . وجلبا وأعمالها . . . وعرقا وأعمالها وطيبوا وأعمالها، وقلعة حصن الأكراد وأعمالها وبلادها، والقليعات وأعمالها وبلادها، ومرقية بكمالها وبلادها، وما وقع الاتفاق عليه في مناصفات بلاد المرقب . . . وكل ما في هذه البلاد منها والبعيد، والمجاور وغير ذلك من عامر وداثر، وسهل، ووعر، وبر وبحر، ومدان وسواحل، وما هو في هذه البلاد من طواحين وأبراج وبساتين وأنهار ومياه وشجريات ودحل (صهريج الماء) . . .»[٩٢].

ثم عقدت في عام ٦٨٢ هـ/ ١٢٨٣ م هدنة ثالثة بين السلطان المنصور قلاوون وولده علاء الدين وبين حكام مملكة عكا وصيدا وعثليت وشملت نصوصها المناطق الخاضعة للسلطان والمذكورة في المعاهدتين السابقتين[٩٣].

ويمكن إيجاز أبرز بنود هذه المعاهدات وتلك التي عقدت مع السلطان بيبرس على الشكل الآتي:

١ - أن تكون عرقا وجبيل لبوهيمند، مع التأكيد بأن عرقا وأعمالها، وهي ٥٦ قرية صدقة من الملك الظاهر عليه.

٢ - أن يكون ساحل طرطوس والمرقب وبانياس وبلاد هذه النواحي بين السلطان وبين الداوية والاسبتار.

٣ - أن تؤول بعرين وحمص القديمة إلى السلطان.

٤ - مدة الصلح عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام[٩٤].

أما المعاهدة التي عقدت مع السلطان قلاوون فكان أبرز ما ورد فيها:

١ - أن تعقد الهدنة على جميع البلاد التابعة للسلطان وعلى ما كان مجاوراً منها لطرابلس وعلى فتوحاته المستجدة والمستقبلة، وعلى البلاد التابعة لبوهيمند وما يدخل فيها.

٢ - أن يتخذ برج اللاذقية وميناؤها مقراً لنواب السلطان وصاحب طرابلس، للإشراف على استخراج الجبايات والغلات مناصفة بينهما، وفقاً لشروط الهدنة التي كان قد عقدها الظاهر بيبرس مع بوهيمند السادس.

٣ - أن يقيم على جسر ارتوسية ١٦ نفراً من غلمان السلطان لحفظ الحقوق (الرسوم) السلطانية، على ألا يقوموا بإيذاء رعية الأمير بوهيمند.

٤ - ألا تدخل طرابلس غلة للأمير بوهيمند ولا غيره دون أن يحصل عليها رسوم.

٥ - على صاحب طرابلس والسلطان قلاوون ألا يقيما أبنية حربية أو قلاعاً في البلاد التي ورد ذكرها في الهدنة.

٦ - ألا تنقض الهدنة بموت أحد الطرفين المتعاقدين أو تغييره[٩٥].

هذه الهدنات، لم تكن سوى مُسكّنات، فرضتها الظروف، ولم تحل دون متابعة المماليك لجهادهم ضد أعوان الصليبيين، وعلى رأسهم الموارنة، وضدّ ما تبقّى من قلاع ومراكز حصينة على طريق فتح طرابلس بالذات.

ل - الحملة على قرية الحدث المارونية في جبة بشراي

جاءت هذه الحملة في عام ١٢٨٣ م كمحاولة تمهيدية من قبل قلاوون للسيطرة على المناطق الجبلية المحيطة بطرابلس. ويروي ابن عبد الظاهر أنه «اتفق أن في بلاد طرابلس بطركا عتا وتجبّر واستطال وتكبّر وأخاف صاحب طرابلس وجميع الفرنجة، واستغوى أهل تلك الجبال وأهل تلك الأهوية من ذوي الضلال. واستمر أمره حتى خافه كل مجاور. وتحصن في الحدث وشمخ

بأنفه، وما قدر أحد على التحيل عليه من بين يديه ولا من خلفه. ولولا خوفه من سطوة مولانا السلطان لخرب تلك البلاد، وفعل ذلك أو كاد. فاتفق أن النواب ترصدوه مراراً فما وجوده. فقصده التركمان في مكانه وتحيلوا عليه حتى أمسكوه وأحضروه أسيراً حسيراً. وكان من دعاة الكفر وطواغيهم واستراح المسلمون منه وآمنوا شره وكان إمساكه فتوحاً عظيماً أعظم من افتتاح حصن أو قلعة وكفى الله مكره»[٩٦].

ويورد المقريزي الخبر بطريقة غامضة فيخبر بأن العساكر التابعة للسلطان بيبرس، بعدما أغارت على طرابلس وأخذت برجاً كان بجوار المدينة، أغارت على الجبال القريبة من المدينة «وغنموا شيئاً كثيراً وأخذوا عدة مغاير بالسيف، وأحضروا المغانم والأسرى إلى السلطان وضرب أعناق الأسرى، وقطع الأشجار وهدم الكنائس، وقسم الغنائم في العسكر»[٩٧].

أما تفاصيل هذا الخبر فنجدها عند الدويهي في معرض كلامه على الحملة على بلاد بشراي وإهدن والحدث في عام ١٢٨٣[٩٨].

وبسقوط الحدث، الجيب العسكري المسيحي في خاصرة المماليك، انطلق هؤلاء لمتابعة الفتح، فكان لهم المرقب.

م ـ فتح حصن المرقب

وفي عام ٦٨٤ هـ/ ١٢٨٥ م، افتتح السلطان المنصور قلاوون حصن المرقب، وهو حصن عظيم منيع أعجز الملوك، ولم يقدر أحد منهم على التقرب منه فكيف النزول إليه.

وقد اجتهد الملك الظاهر بيبرس في الإغارة عليه مراراً فما قدر عليه. وكان الحصن للاسبتاريين. وقد جهّز المنصور المجانيق من دمشق ولا يعلم أحد وجهة سيرها كما جهّز الرجال بأزوادهم ومقدميهم في عدد كبير. وكان السلطان قد جهّز زردخاناه عظيمة من مصر، فيها أحمال كثيرة من النشاب وغيره، واستخدم جماعة كبيرة من الصنّاع الخبيرين بأمور الحصارات، وجهّز المجانيق التي في القلاع المجاورة، وقد حملت المجانيق وآلات الحصار على الأعناق

والرؤوس وسارت باتجاه حصن المرقب الذي تمّت منازلته في يوم الأربعاء العاشر من شهر صفر، فافتتحه السلطان المنصور قلاوون، بعد حصار دام ثمانية وثلاثين يوماً. ثم جعل السلطان من بلاد كفرطاب ومدينة انطاكية ومدينة اللاذقية والمينا وبلاد المرقب، التي كانت خاصاً له اقطاعاً. وجملة ما يتحصل منه عند عمارته ألف ألف درهم. ورتب كلف عمارة الحصن ونفقات رجاله على البلاد إلى أن تعمر ويرجع أهلها[٩٩].

ثم افتتح حول حصن المرقب بلنياس ومرقب وهي بلدة صغيرة إلى جانب البحر[١٠٠]. وأثناء سقوط حصن المرقب، وصلت رسل صاحب طرابلس للصلح، فطلب السلطان منهم إحضار من كان أسيراً لديهم في برج مرقيه من الجبليين، أهل جبيل الذين كانوا تابعين لصاحب جبيل Guy (سيرجي) الأمبرياتشي الذي حاول الاستيلاء على طرابلس ففشل وقتل وأسر أصحابه[١٠١].

وبعد المرقب، توالى سقوط الحصون الصليبية، فكان نصيب مرقيه وصهيون وبلاطنس من الفتح على يد المماليك.

ن ـ فتح مرقيه وحصنها

ولما فرغ السلطان منصور قلاوون من مهمات المرقب، شرع في أمر مرقية وحصنها الذي كان لفرسان التمبلار (من فرسان الهيكل). ويقع هذا الحصن بين انطرطوس وبين المرقب على البحر قبالة مدينة مرقية، وقد بني بعد فتح حصن الأكراد. وكان نواب حصن الأكراد قد عجزوا عن منع الفرنج من عمارته فلجأوا إلى عمارة برج بالقرب منه بقرية تسمى ميعار. ولما شاهد السلطان أن الحصن يقع في وسط البحر وهو من الحصانة والمنعة بحيث يصعب جداً حصاره لأن ذلك يقتضي إيجاد مراكب تحيط به من كل الجهات، عمد إلى استعمال الحيلة، محاولاً إخافة صاحب طرابلس موهماً إياه بأن عساكر المسلمين قد تفرغت لحصار طرابلس، ولذلك عليه أن يختار بين أمرين: أمّا أن يعمل على هدم الحصن وإلا سيضطر السلطان لأخذ من بلاد طرابلس مقابل الحصن، فأذعن

إبرنس طرابلس واستجاب لتهديد السلطان وسيّر جماعة من الفرنج للمساعدة في هدم الحصن وقد جرى ذلك في عام ٦٨٣ هـ/ ١٢٨٤ م[١٠٢].

س ـ تسليم حصن بلاطنس للسلطان

وإبّانَ عهد السلطان المنصور قلاوون وانهماكه بافتتاح قلاع ومدن الصليبيين، كان الخلاف بينه وبين الأمير شمس الدين سنقر الأشقر يتأرجح بين الحدة أحياناً والسكون أحياناً أخرى[١٠٣].

في عام ٦٨٠ هـ وقع الصلح بين السلطان قلاوون وسنقر الأشقر، وانتظم على أن سنقر يرفع يده عن شيزر، ويسلمها إلى نوّاب الملك المنصور، وعوّضه عنها فاميه، وكفرطاب، وانطاكية، والسويدية، ولا سفر، وبكاس، ودركوش بأعمالها كلها، وعدة ضياع معروفة، وأن يقيم على ذلك، وعلى ما كان استقرّ بيده عند الصلح، وهو: صهيون وبلاطنس، وحصن برزية، وجبله واللاذقية وست مائة فارس.

ولكن هاجس السلطان كان محاولة استرجاع ما بيد سنقر إلى السلطة المركزية. ففي عام ٦٨٣ هـ/ ١٢٨٤ م، عمل على تسلّم حصن بلاطنس بعد إذعان حاكمه وتمكّن من أخذه في يوم الأحد ثامن صفر، ورتّب في الثغر جماعة من المنصورية[١٠٤] أي مماليك السلطان المنصور قلاوون.

ع ـ فتح حصن برزيه وصهيون:

ـ فتح حصن برزية

وفي ١٧ صفر ٦٨٦ هـ/ ١٢٨٧م، ورد البريد باجتهاد الأمير حسام الدين طرنطاي، كفيل السلطنة، في أمر حصن برزيه وبدأ بترغيب السكان لتسليمه للسلطان. فانقسموا قسمين: أهل برزيه وكانوا مع التسليم وأهل صهيون وكانوا رافضين له. وسارت جماعة من عسكر الشام لاستلام الحصن الذي كان قائماً

قرب اللاذقية، فقاومهم الصهاونة ومماليك الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، ولكن عسكر السلطان تمكّن منهم فاستسلموا. وللوقت رتبت جماعة بالقلعة ورؤس نوب وأمير ومعه عشرون من أصحابه حتى يرسم بتعيين أحد يكون مقيماً بها. وصارت من جملة حصون السلطان[١٠٥].

ـ فتح صهيون

وفي ٩ صفر ٦٨٦ هـ/ ١٢٨٧ م، أعاد المنصور قلاوون افتتاح حصن صهيون واسترده من الأمير شمس الدين سنقر بعد محاصرته له وقبول سنقر بالتسليم في ٢٢ صفر. وجلت الأمور سلمياً وخرج من كان عند سنقر من أهل البلاد ومن النصارى والشمسية والمقاتلة ورهط المجانيق[١٠٦].

وبسقوط صهيون، تشجّع المماليك على أخذ اللاذقية.

ف ـ فتح اللاذقية

فلما فرغ الأمير حسام الدين طرنطاي مقدم العساكر من صهيون، عدل إلى جهة اللاذقية، وأحضر إليها المجانيق. فاستسلم الحصن في يوم الأحد ٥ ربيع الأول ٦٨٦ هـ/ ١٢٨٧ م وأمنوا «على الخروج بنفوسهم وأموالهم وأنهم يتركون ما به من عدد وسلاح، وتسلم وقت الظهر من اليوم المذكور، ورمي الصليب من أعلاه عند قول المؤذن «الله أكبر». وتوجّه كلّ من أهله إلى جهة. وحصل الشروع في هدمه، وأفول نجمه»[١٠٧].

وكان سقوط اللاذقية إيذاناً بسقوط طرابلس.

ص ـ فتح مدينة طرابلس

وفي عام ٦٨٨ هـ/ ١٢٨٩ م، تمّ، أخيراً، فتح مدينة طرابلس، وكان المؤرخ أبو الفداء حاضراً فيه مع والده الملك الأفضل وابن عمّه الملك المظفّر صاحب حماه.

ظروف كثيرة ساعدت على فتح المدينة وعجّلت في سقوطها: منها انقسام

الصليبيين فيما بينهم، بعد وفاة حاكمها بوهمند السابع في عام ٦٨٦ هـ/ ١٢٨٧م بين مؤيد لفريق الكونتيسة sibylle الأرمنية المدعومة من الزعماء الشعبيين ومن جنوى ومن صاحب جبيل Barthélémy Embriaco، وكان هذا الفريق قد أقام حكماً بلدياً «كومونة» برئاسة صاحب جبيل، وبين فريق مؤيد للكونتيسة «لوسي» أخت بوهمند الكبرى المدعومة من نابولي ومن فرسان الاسبتارية.

وقد تمكنت «لوسي» من جلب «الكومونة» إلى صالحها فما كان من صاحب جبيل إلا أن حرّض السلطان المنصور قلاوون على احتلال طرابلس، وبدأت القوى الصليبية المتنازعة، التقرب من المماليك على أمل إزالة منافسيها من طريقها، غير آبهة بأن المماليك يعملون لإزالة الصليبيين، كائناً من كانوا، من الوجود في الشرق.

هذا الواقع، المعبّر خير تعبير عن ضعف الصليبيين وتفكّك قواهم، دفع بالسلطان قلاوون للتفكير جدياً باقتحام طرابلس. وكان أي سبب، ولو كان تافهاً، حجة لإشهار الحرب. وقد وجده قلاوون في نقض الهدنة[١٠٨].

وخير شاهد على فتح طرابلس، رواية أبي الفداء، الذي، كما ذكرنا، كان حاضراً ذلك، وفيما يلي ما جاء عنده بتمامه وكماله، عن سنة ٦٨٨ هـ/ ١٢٨٩م.

«فيها كان فتح مدينة طرابلس: وذلك أن السلطان قلاوون قدم بالجيوش المنصورة المصرية صحبته إلى دمشق، فدخلها في الثالث عشر من صفر، ثم سار بهم وبجيش دمشق وصحبته خلق كثير من المتطوعة، منهم القاضي نجم الدين الحنبلي قاضي الحنابلة، وخلق من المقادسة وغيرهم، فنازل طرابلس يوم الجمعة مستهل ربيع الأول، وحاصرها بالمجانيق حصاراً شديداً، وضيقوا على أهلها تضيقاً عظيماً، ونصب عليها تسعة عشر منجنيقاً، فلما كان يوم الثلاثاء رابع جمادى الآخرة فتحت طرابلس في الساعة الرابعة من النهار عنوة، وشمل القتل والأسر جميع من فيها، وغرق كثير من أهل الميناء وسبيت النساء والأطفال، وأخذت الذخائر والحواصل، وقد كان لها في أيدي الفرنج من سنة

ثلاث وخمسمائة إلى هذا التاريخ، وقد كانت قبل ذلك في أيدي المسلمين من زمان معاوية، فقد فتحها سفيان بن مجيب لمعاوية، فأسكنها معاوية اليهود، ثم كان عبد الملك بن مروان جدد عمارتها وحصنها وأسكنها المسلمين، وصارت آمنة عامرة مطمئنة، وبها ثمار الشام ومصر، فإن بها الجوز والموز والثلج والقصب، والمياه جارية فيها تصعد إلى أماكن عالية، وقد كانت قبل ذلك ثلاث مدن متقاربة، ثم صارت بلداً واحداً، ثم حوّلت من موضعها كما سيأتي الآن. ولما وصلت البشارة إلى دمشق دقت البشائر وزينت البلاد وفرح الناس فرحاً شديداً ولله الحمد والمنة.

ثم أمر السلطان الملك المنصور قلاوون أن تهدم البلد بما فيها من العمائر والدور والأسوار الحصينة التي كانت عليها، وأن يبني على ميل منها بلدة غيرها أمكن منها وأحسن، ففعل ذلك، فهي هذه البلدة التي يقال لها طرابلس. ثم عاد إلى دمشق مؤيداً منصوراً مسروراً محبوراً، . . .

وكان في البحر قريباً من طرابلس جزيرة وفيها كنيسة تسمّى كنيسة سنطماس (القديس توما)، وبينها وبين طرابلس الميناء، فلما أخذت طرابلس هرب إلى الجزيرة المذكورة وإلى الكنيسة التي فيها عالم عظيم من الفرنج والنساء فاقتحم العسكر الإسلامي البحر وعبروا بخيولهم سباحة إلى الجزيرة المذكورة فقتلوا جميع من فيها من الرجال وغنموا ما بها من النساء والصغار. . .»[١٠٩].

وفي الروايات المحلية اللبنانية، استتبع فتح طرابلس حرباً بين الكسراوة (سكان كسروان) والجرديين من جهة والمسلمين من جهة أخرى، وذلك بسبب نزول هؤلاء من جبالهم لنجدة الفرنج.

وعندما ضعف الفرنج، بفتح طرابلس، هادن زعيم الموارنة في كسروان المدعو الأمير (الملك) حنّا، المسلمين وعملوا من بلاده اقطاعاً. ثم هرب ومن معه إلى قبرص وبلاد النصارى بعد إحراقه لبلاد جبيل. فجاء عسكر المسلمين في أثره، إلى جبيل، فاجتمع عليه مقدمو الجبل وفتكوا به. كما أن المقدم نقولا

في بشراي هاجم المسلمين على نهر رعشين وطردهم منها وعمرت البلاد مدة أربعين سنة على أيامه[١١٠].

ونستخرج من نصّ أبي الفداء المعلومات الآتية:

١ ـ فتحت طرابلس على يد السلطان المنصور قلاوون ومعه جيش مصر ودمشق ومتطوعون جاؤوا للجهاد في سبيل الدين.

٢ ـ وجود الحنابلة في جملة المجاهدين، وهم أكثر المسلمين تحمّساً للجهاد.

٣ ـ ضرب طرابلس بـ ١٩ منجنيقاً، وهو رقم يدلّ على مدى قوة الحصار.

٤ ـ فتح طرابلس في يوم الثلاثاء ٤ جمادى الآخرة عند الساعة الرابعة.

٥ ـ الفتح عنوة، ولهذا نتائجه في المفهوم الإسلامي على صعيد ملكية الأرض بعكس الفتح صلحا.

٦ ـ إبادة وأسر أهل المدينة وسبي النساء.

٧ ـ وضع اليد على خيرات المدينة.

٨ ـ هدم البلد بما فيه من عمائر ودور وأسوار.

٩ ـ بناء مدينة جديدة على مسافة ميل من المدينة الصليبية.

١٠ ـ إبادة كل من هرب إلى الجزر قبالة طرابلس وسبي النساء والأطفال.

هذه المذبحة الجماعية، ما كانت لتتم لولا عدة أسباب ذكرنا بعضها في مطلع كلامنا على فتح طرابلس. ومهما قيل في شرح الدوافع والأسباب والظروف التي أدت إلى سقوطها، يبقى السبب الرئيس في انقسام أهلها إلى حدّ أنه حسبما يذكر د. حطيط نقلا عن بعض الباحثين في الحروب الصليبية: «ذهب الصليبيون بأنفسهم إلى القاهرة يطلبون من السلطان قلاوون التفضّل بالاستيلاء على المدينة»[١١١].

وقد أدى فتح طرابلس إلى إنهاء الوجود الصليبي فيما تبقى من كونتية طرابلس.

ق ـ فتح أنفه والسيطرة على جبيل والبترون

ولما فتح الملك المنصور طرابلس تسلّم انفه وأمر بإخراب حصنها وأبقى على أخت البرنس، صاحب طرابلس، قريتين من قراها. ثم حضر إلى السلطان وهو بظاهر طرابلس ابن صاحب جبيل فاخلع عليه وأقر جبيل عليه في سبيل الاقطاع وأخذ منه معظم أموالها وأخرب المدينة. وتسلم الملك المنصور البترون وجميع ما بتلك الخطة من الحصون والمعاقل. ثم استقر العسكر كعادته بحصن الأكراد حيث كان النايب عن السلطنة الأمير سيف الدين بلبان الطباخي المنصوري، واليزك ينزل إلى طرابلس من حصن الأكراد وأضيف إلى الطباخي ومعه (٥٠٠) جندي و(١٠) أمراء طبلخاناه و (١٥) أمراء عشرات، واقطعوا اقطاعات. ثم عمر المسلمون مدينة مجاورة للنهر واحتفلوا بها وعمرت فيها حمامات وقياسر ومساجد ومدارس للعلم وأجريت المياه في دورها بقساطل وعمرت دار للسلطنة ينزلها نايب السلطنة بالمملكة الطرابلسية وهي عالية مشرفة على المدينة. واستمر الأمير سيف الدين الطباخي في النيابة إلى أن نقله الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن الملك المنصور قلاوون إلى حلب في سنة ٦٩١ هـ/ ١٢٩١ م[١١٢].

وعندما تمّ للأشرف فتح عكا وصور وصيدا، أمر أن تخرب قلعة جبيل وأسوارها بحيث يلحقها بالأرض[١١٣].

ثمّ في ٦٨٩ هـ/ ١٢٩٠ م جهّز الملك المنصور سيف الدين قلاوون الأمير سيف الدين التقوي إلى طرابلس ومعه ستماية فارس وهو أول جيش استخدم بها بعد فتحها وكان العسكر قبل ذلك بالحصون[١١٤].

ولا ينبغي أن نفهم من هذا التسلسل للوقائع التاريخية، أن طرابلس أصبحت عاصمة لنيابة السلطنة في عهد السلطان قلاوون عندما أعيد بناؤها[١١٥]. بل تأخر ذلك إلى عهد زين الدين كتبغا (١٢٩٤ ـ ١٢٩٦ م)، كما سنرى ذلك فيما يلي:

ر ـ طرابلس لا تصبح مباشرة مركزاً للنيابة، ولا تتكنّى النيابة بها إلا منذ عام ١٣٣٣ م

يعتقد البعض، أن طرابلس أضحت مركزاً لنيابة السلطنة وتكنّى المركز باسم طرابلس في عهد السلطان المنصور قلاوون[١١٦]، وهو اعتقاد موضوع للنقاش كما سنرى، انطلاقاً من نصوص أبي الفداء، الذي عاصر هذه الحقبة وكتب عنها.

فعندما افتتح حصن الأكراد أصبح مركزاً أساسياً للفتوحات الساحلية الشمالية، ولذلك جعله السلطان مركزاً للنيابة التي ستعرف باسم طرابلس فيما بعد، والتي لم تكن معالمها قد اكتملت، طالما أن الوجود الصليبي لم يكن قد حسم نهائياً.

وحتى بعيد فتح طرابلس، بقي حصن الأكراد مركزاً للنيابة التي كانت تحمل اسم نيابة الفتوحات والحصون. والدليل على ذلك استمرار المؤرخ أبو الفداء بتسميتها كذلك طيلة عهد المنصور قلاوون والأشرف خليل (١٢٩٠ ـ ١٢٩٣ م).

فمثلاً في عام ٦٩١ هـ/ ١٢٩٢ م، يروي أبو الفداء، أن الأشرف خليل ولّى على حلب سيف الدين بلبان المعروف بالطباخي الذي كان «نائباً بالفتوحات وكان مقامه بحصن الأكراد...»، ووضع مكانه في «الفتوحات والحصون سيف الدين طغريل الإيغاني» ثم عزله بعد مدة في ٦٩٢ هـ ووكل موضعه عز الدين أيبك الخزندار المنصوري[١١٧].

ثم في عام ٦٩٤ هـ/ ١٢٩٥ م قبض السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا (٦٩٤ ـ ٦٩٦ هـ/ ١٢٩٤ ـ ١٢٩٦ م) على عزّ الدين أيبك الخزندار وعزله عن «الحصون والسواحل» بالشام، ثم أفرج عنه واستناب موقعه عز الدين أيبك الموصلي[١١٨]. وفي عام ٦٩٧ هـ/ ١٢٩٧ م، توفي أيبك «نائب الفتوحات وغيرها» مسموماً، وولى موضعه سيف الدين كرد المنصوري أمير أخور[١١٩]

الذي استشهد في الموقعة التي جرت في حمص ضد التتار بقيادة قازان في ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩ م، فولي مكانه قطلوبك في «نيابة السلطنة في الساحل والحصون»[١٢٠]، ثم عزل في ٧٠٠ هـ/ ١٣٠٠ م وتولى موقعه على «الحصون والسواحل» سيف الدين اسندمر الكرجي[١٢١] النائب على السواحل أو «نائب السلطنة بالساحل»[١٢٢]، وكان جيشه يدعى «عسكر السواحل»[١٢٣].

وفي بدء السلطنة الثالثة للناصر محمد بن قلاوون في ٧٠٩ هـ/ ١٣١٠ م عزل اسندمر وتقرر مكانه الحاج بهادر الضاهري في «نيابة السلطنة بالحصون والفتوحات»[١٢٤].

وفي ٧١٠ هـ/ ١٣١١ م توفي الحاج بهادر النائب بالسواحل الشامية فأعطى السلطان «نيابة السلطنة بالسواحل والفتوحات» لاسندمر[١٢٥]، فرفضها فعاد وعينه على حلب بموت نائبها وعين جمال الدين آقوش الأفرم «بنيابة السلطنة بالفتوحات»[١٢٦]. ثم إنحاز آقوش الأفرم «نائب السلطنة بالفتوحات» إلى جانب قرا سنقر الثائر على السلطان، وحاول جرّ «عسكر الساحل» إلى قضيته، فرفض العسكر ذلك، فاضطر الأفرم للهرب من «الساحل» واللجوء أخيراً للمغول مع قرا سنقر فتولى نيابتها تمر الساقي[١٢٧].

وفي ٧١٥ هـ/ ١٣١٥ م، قبض على تمر الساقي «نائب السلطنة بالفتوحات وعيّن مكانه كستيه (ت ٧١٦) وتولى بعده قرطاي[١٢٨]. ويستعمل أبو الفداء مصطلح طرابلس في كلامه عن ثورة النصيريين في ٧١٧ هـ/ ١٣١٨ م، فيذكر تجريد «عسكر من طرابلس» إليها[١٢٩].

ويستمرّ أبو الفداء بتسمية النيابة وعساكرها بالنسبة للساحل: فعن سنة ٧٢٠/ ١٣٢٠ م، يذكر أن الأمير شهاب الدين قرطاي، سار «بعساكر الساحل» لغزو سيّس[١٣٠]، كما أن العساكر «الساحلية» سارت لفتح أياس في ٧٢٢ هـ/ ١٣٢٢ م[١٣١]، وفي ٧٢٦ هـ/ ١٣٢٦ م عزل الأمير شهاب الدين قرطاي من «نيابة السلطنة بالسواحل» وولي مكانه سيف الدين طينال الحاجب[١٣٢].

ولأول مرة يستعمل أبو الفداء، المعايش لهذه الفترة، لفظة نائب طرابلس،

بخصوص عام ٧٣٤ هـ/ ١٣٣٣ م، إذ يقول: «ومات بطرابلس نائبها، الأمير شهاب الدين قرطاي المنصوري من كبار الأمراء، حجّ وانفق في سبل الخير...»[١٣٣]. ثم يقول: «وفيها في ربيع الآخر وصل جمال الدين آقوش نائب الكرك إلى طرابلس نائباً بها عوضاً عن قرطاي[١٣٤].

وفيَ ٧٣٥ هـ/ ١٣٣٤ م، في ربيع الآخر قدم على نيابة طرابلس سيف الدين طينال الناصري عوضاً عن آقوش الكركي وحبس الكركي بقلعة دمشق[١٣٥]. وفي ٧٤٢ هـ/ ١٣٤١ م، كان الحاج أرقطاي نائباً لطرابلس[١٣٦]./

وفي ٧٤٣ هـ/ ١٣٤٢ م، توفي بطرابلس نائبها ملك تمر الحجازي ووليها مكانه طرغاي[١٣٧]، الذي توفي ٧٤٤ هـ/ ١٣٤٤ م[١٣٨].

وفي ٧٤٦ هـ/ ١٣٤٥ م، في ربيع الآخر، أصبح قماري الناصري نائباً لطرابلس[١٣٩]، ثم قبض عليه في ٧٤٦ هـ/ ١٣٤٦ م في ذي الحجة وولي طرابلس بيدمر البدري[١٤٠]، الذي نقل في شعبان ٧٤٧ هـ/ ١٣٤٦ م إلى حلب من طرابلس[١٤١]. ثم عيّن اقسنقر نائباً على طرابلس وقتل في ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٧ م فيمن قتل من النواب على يد السلطان الملك المظفر أمير حاج ابن الملك الناصر بن قلاوون[١٤٢]، أي الملك المظفر زين الدين حاجي (٧٤٧ ـ ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٦ ـ ١٣٤٧ م).

هذه العينات من نصوص أبي الفداء، تطرح مسألة منهجية مهمة، يغفلها الباحثون في التاريخ الإسلامي، ألا وهي دراسة المصطلحات وتحرّي تطورها عبر النصوص. فالكلام الشائع لا يجوز، كما الشيوع السائد في دراسة الأوضاع الإجتماعية والإقتصادية والإدارية، بحيث تبدو هذه الأوضاع جامدة لا تتحرّك أمر لم يعد جائزاً أيضاً. ولعلّ تطور المصطلحات في المصدر الواحد وفي المصادر المتنوعة، يتطلب دراسة على حدة، سنفتح نافذة عليها في هذه الأسطر القليلة، لنرى الأرضية التي تتحكم في دراسة نصوص القرون الوسطى، إذ لم تؤخذ الأمور بالتسرع وتوضع في باب العموميات.

هذا الإشكال في النصوص، بالاستناد إلى أبي الفداء، وقد اخترناه كمؤرخ رافق عملية فتح طرابلس، وكأمير مسؤول عن منطقة حماه المجاورة لطرابلس وكمعاصر لبداية التاريخ المملوكي، قد نجد حلاً له في كلام المؤرخ بيبرس المنصوري حيث يروي الآتي: «وفيها (٦٩٤ هـ/ ١٢٩٤ م) نقل المنتقولون ووشي المتخرصون إلى زين الدين كتبغا أن الأمير عز الدين أيبك الخزندار، وهو يوميذ نايب السلطنة بحصن الأكراد والفتوحات قد عزم على التوجّه إلى سيّس، فأرسل في إحضاره، فأحضر محتاطاً عليه وعزل عزلاً مزعجاً، ورتّب مكانه الأمير عز الدين أيبك الموصلي، فاستقر بطرابلس إلى أن مات ثم حددت طرابلس (لعلها جدّدت) وجعلت دار الإقامة ومقر النيابة إلى يومنا هذا...»[١٤٣].

واستناداً إلى هذا النص، فطرابلس لم تصبح مركزاً لنيابة السلطنة إلا في عام ٦٩٤ هـ/ ١٢٩٤ م، على عهد السلطان زين الدين كتبغا (٦٩٤ ـ ٦٩٦ هـ/ ١٢٩٤ ـ ١٢٩٦ م) وعلى عهد نائبه عز الدين أيبك الموصلي.

إذاً، فهي لم تصبح مركزاً للسلطنة على عهد السلطان المنصور قلاوون. ولكن، هذا لا يحلّ إشكال كنية النيابة الجديدة، وهذا واضح في نصوص أبي الفداء، فهي لربما لم تحمل اسم «نيابة طرابلس» إلا في عام ١٣٣٣ م.

ش ـ مشاركة عسكر طرابلس في افتتاح عكا

وباستتباب الأمور للمماليك في طرابلس ونيابتها، أضحى ممكنا مشاركة عسكرها في إنجاز افتتاح ما تبقى من معاقل الصليبيين، خاصة عكا وارواد.

ففي رابع ربيع الآخر عام ٦٩٠ هـ/ ١٢٩١ م، نازل السلطان الأشرف خليل (١٢٩٠ ـ ١٢٩٣ م) عكا.

وكان عسكر طرابلس وحصن الأكراد وقلعة عكار بقيادة الأمير سيف الدين بلبان الطباخي، من جملة العساكر التي اتصلت بجيش السلطان. وقد تمّ الفتح نهار الجمعة ١٧ جمادى الآخرة. وبانهيار هذا المعقل الهام، استسلمت صور

وصيدا، فاستوثق الساحل، كما يقول ابن كثير، للمسلمين، وتنظف من «الكافرين»[١٤٤].

ثم أرسل السلطان الأمير سنجر الشجاعي، فأكمل الفتوح وسيطر على بيروت في أواخر رجب، واستسلمت عتلية في مستهل شعبان وانطرطوس في ٥ شعبان وجبيل، ولم يبق بالسواحل معقل للفرنج إلا وبأيدي المسلمين[١٤٥]. وكان عسكر طرابلس بقيادة سيف الدين بلبان الطباخي، نايب السلطنة بالفتوحات ومعه عساكر الحصون وطرابلس[١٤٦].

وقد يكون من المفيد، دراسة الذهنيات التي رافقت عملية الفتح، عند مؤرخي الطرفين المتصارعين. ونلمّح إلى ما ذكره عبد الله اليافعي، بعد قرن على فتح الساحل، إذ يقول: فتح الأشرف عكا، ثم افتتحت صيدا وبيروت وعتليت «وخلا الساحل من عبّاد الصليب»[١٤٧].

ت ـ فتح أرواد واكتمال الفتوحات في نيابة طرابلس

وفي محرّم عام ٧٠٢ هـ/ ١٣٠٢ م فتحت جزيرة أرواد بالقرب من انطرسوس بعد حصارها برّاً بجيوش طرابلس، على عهد نائب طرابلس سيف الدين اسندمر، وبحراً بالمراكب من الديار المصرية. وبسقوطها بيد الفاتحين قتل كلّ من كان بها من أهلها ألفين تقريباً وأسر خمسماية. وكان فتح أرواد من تمام فتح السواحل[١٤٨].

وبالفعل، كان فتح أرواد إتماماً للطرد النهائي للوجود الصليبي من المشرق، كوجود بشري، ولكنه لم ينه وجود الذين تعاملوا مع الصليبيين وآزروهم أحياناً من غلاة الشيعة ومن النصارى، وعلى رأس هؤلاء بعض الإسماعيلية والنصيرية والموارنة. لذلك كان لا بدّ من الاقتصاص منهم من جهة، ومنع تحوّلهم إلى مواطىء قدم، في أي احتمال لعودة الفرنجة إلى المشرق مجدداً. ولما كان غلاة الشيعة، في نظر منظّري وحدة الأمة الإسلامية، وعلى رأسهم الحنابلة، أشد خطراً على الإسلام، من النصارى، لأنهم جزء من

جسم الأمة الإسلامية، كان لا بدّ من قمعهم والقضاء عليهم بأي ثمن كان. فكانت الحملات الشهيرة التي عرفت باسم حملات كسروان.

ثالثاً: الحملات المملوكية على كسروان وعلى الموارنة في مطلع عهد المماليك وأثرها على جغرافية تواجد الطوائف

كانت كسروان في القرون الوسطى تشمل ما يعرف حالياً بالمتن وكسروان[١٤٩]، وكان جزء كبير من كسروان الحالي، عند جسر المعاملتين صعوداً تابعاً لنيابة طرابلس، وهو الذي تعرّض أساساً لحملات المماليك، ولذلك عرف باسم فتوح كسروان نسبة لهذه الفتوحات المملوكية التي طالت هذه المنطقة والمناطق الأخرى حيث يوجد الموارنة.

فعشية رحيل الصليبيين، خضعت المناطق الجبلية في نيابة طرابلس، قبيل وبعيد فتح السواحل، لسلسلة من الحملات العسكرية، شارك في بعضها، خاصة في الحملة الأخيرة والحاسمة، جنود طرابلس، كانت الغاية منها، كما سنرى، تأديب الطوائف المناهضة للماليك السنّة، أي الموارنة «وغلاة» الشيعة.

وقد ألهبت هذه الحملات، الأقلام سابقاً ولاحقاً، وكانت مداراً لتحليلات وتأويلات، ترتكز في غالبيتها على منطلقات طائفية ـ سياسية، حاول من مدة وجيزة، د. أحمد بيضون، مقاربتها بنقد للتاريخ الطائفي الايديولوجي عند المؤرخين المعاصرين من دون الاستناد إلى كافة نصوص هذه الحملات، مركزاً فقط على ثلاث منها[١٥٠].

ونحن، إذ نحاول وضع الأمور في عقالها، سننطلق من النّص، مما تمكنا من جمعه من نصوص، بعضها لم يستعمل ولم يكشف عنه من قبل كما اعتمدنا على ذلك دائماً في هذه الدراسة، علّنا نوضّح جوانب من الموضوع بالتحليل والاستنتاج.

أ ـ مصادر المعلومات:

هذه الحملات كانت محاطة بالغموض واللبس بشكل دائم. فالمؤرخون، سواء أكانوا من المصادر الإسلامية القديمة أو من المحدثين (مستشرقين ولبنانيين وغيرهم)، مختلفون في عدد هذه الحملات وفي تواريخها.

وقد أثار هذا الموضوع لأول مرة المستشرق «هنري لاوست» في عام ١٩٤٢[١٥١]. والموضوع لا يزال حتى اليوم يثير فضول المؤرخين الذين يختلفون حول هوية الذين كانوا هدفاً للحملات.

هذا الغموض، في صورة الحملات المملوكية على جبال نيابة طرابلس، مردّه إلى نوعية المصادر التي استقى منها الباحثون معلوماتهم.

في طليعة هذه المصادر نجد فتاوى ورسائل، شيخ الإسلام الحنبلي، الإمام أحمد ابن تيمية (ت ١٣٢٨ م) الذي أطلق فتوى تدعو للفتك بالنصيرية والدروز لأن قتالهم أولى من قتال الأرمن: «لأنهم عدوّ في دار الإسلام وشرّ بقائهم أضرّ على حدّ قول القلقشندي[١٥٢].

وكان ابن تيمية قد أرسل عدة رسائل توضح موقفه من الحملات، نقتطف منها رسالتين أرسلهما للسلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣ ـ ٦٩٤ هـ، ٦٩٨ ـ ٧٠٨ هـ، ٧٠٩ ـ ٧٤١ هـ/ ١٢٩٣-١٢٩٤ م، ١٢٩٩ ـ ١٣٠٩ م، ١٣١٠ ـ ١٣٤١ م).

١ = رسائل ابن تيمية:

فقد جاء في الرسالة الأولى:

«تمام هذا الفتح وبركته تقدم مراسم السلطان لحسم مادة أهل الفساد، وإقامة الشريعة في البلاد، فإن هؤلاء القوم لهم من المشايخ والأخوان في قرى كثيرة من يقتدون بهم... فإذا أمسك رؤوسهم الذي يضلونهم، مثل بني العود، زال بذلك من الشر ما لا يعلمه إلا الله.

ويتقدم إلى قراهم. وهي قرى متعددة بأعمال دمشق، وصفد، وطرابلس، وحماة، وحمص وحلب. بأن يقام فيهم شرائع الإسلام والجمعة والجماعة وقراءة القرآن، ويكون لهم خطباء ومؤذنون كسائر قرى المسلمين.

وفي هؤلاء خلق كثر لا يقرون بصلاة، ولا صيام، ولا حج ولا عمرة، ولا يحرِّمون الميتة، والدم ولحم الخنزير، ولا يؤمنون بالجنة والنار. من جنس الإسماعيلية، والنصيرية، والباطنية، وهم أكفر من اليهود والنصارى بإجماع المسلمين...»[١٥٣].

وتقول الرسالة الثانية:

«... إن السلطان حصل للأمة... ما هو شبيهه بما كان يجري في أيام الخلفاء الراشدين وما كان يقصده أكابر الأئمة العادلين: من جهاد أعداء الله... وهم صنفان:

١ - ... التتار ونجدهم في كل خارج عن شرائع الإسلام وأن تمسك بالشهادتين

٢ - أهل البدع المارقون، وذوو الضلال المنافقون، الخارجون عن السنة والجماعة، المفارقون للشرعة والطاعة، مثل هؤلاء الذين فروا بأمر السلطان من أهل الجبل والجرد والكسروان... وذلك أن هؤلاء وجنسهم من أكابر المفسدين في أمر الدنيا والدين. فإن اعتقادهم: أن أبا بكر وعمر وعثمان، وأهل بدر، وبيعة الرضوان وجمهور المهاجرين والأنصار، والتابعين لهم بإحسان، وأئمة الإسلام وعبادهم، وملوك المسلمين وأجنادهم وعوام المسلمين وأفرادهم. كل هؤلاء عددهم كفار مرتدون، أكفر من اليهود والنصارى... ولهذا يقدمون الفرنج والتتار على أهل القرآن والإيمان.

ولهذا لما قدم التتار إلى البلاد، وفعلوا بعسكر المسلمين ما لا يحصى من الفساد وأرسلوا إلى أهل قبرص فملكوا بعض السواحل، وحملوا راية الصليب،

وحملوا إلى قبرص من قبل المسلمين وسلاحهم وأسراهم ما لا يحصى عدده إلا الله، وأقام سوقهم بالساحل عشرين يوماً يبيعون فيه المسلمين والخيل والسلاح على أهل قبرص، وفرحوا بمجيء التتار، هم وسائر أهل هذا المذهب الملعون، مثل أهل جزين وما حواليها. وجبل عامل ونواحيه.

ولما خرجت العساكر الإسلامية من الديار المصرية، ظهر فيهم من الخزى والنكال ما عرفه الناس منهم... هذا هو المذهب الذي تلقنه لهم أئمتهم. مثل بني العود، فإنهم شيوخ أهل هذا الجبل. وهو الذين كانوا يأمرونهم بقتال المسلمين ويفتونهم بهذه الأمور... وقد حصل بأيدي المسلمين طائفة من كتبهم تصنيف ابن العود... وهم اعترفوا لنا بأنهم الذين علموهم وأمروهم ولكنهم مع هذا يظهرون التقية والنفاق. ولقد كان جيرانهم من أهل البقاع وغيرها معهم في أمر لا يضبط شره، كل ليلة تنزل عليهم منهم طائفة،... كانوا في قطع الطرقات وإخافة سكان البيوتات على أقبح سيرة عرفت من أهل الجنايات يرد إليهم النصارى من أهل قبرص فيضيفونهم سلاح المسلمين... فأعان الله ويسر بحسن نية السلطان وهمته، في إقامة شرائع الإسلام، وعنايته بجهاد المارقين أن غزوا غزوة شرعية... وهؤلاء القوم كانوا أقل صلاة وصياماً. ولم نجد في جبلهم مصحفاً ولا فيهم قارئاً للقرآن... فإذا علي بن أبي طالب قد أباح لعسكره أن ينهبوا ما في عسكر الخوارج مع أنه قتلهم جميعهم، كان هؤلاء أحق بأخذ أقوالهم... وقطعت أشجارهم: لأن النبي لما حاصر بني النضير قطع أصحابه نخلهم وحرقوه... وقد اتفق العلماء على جواز قطع الشجر، وتخريب العامر... فإن القوم لم يحضروا كلهم من الأماكن التي اختفوا فيها، وايسوا من المقام في الجبل إلا حين قطعت الأشجار. وإلا كانوا يختفون حيث لا يمكن العلم بهم، وما أمكن أن يسكن الجبل غيرهم، لأن التركمان إنما قصدهم الرعي، وقد صار لهم مرعى، وسائر الفلاحين لا يتركون عمارة أرضهم ويجيئون إليه...»[١٥٤].

وقيمة كتابات وفتاوى ابن تيمية ترجع إلى أن ذلك العالم السنّي، المهتم

بوحدة الأمة الإسلامية والعامل لها ولو اقتضى ذلك استعمال العنف، لعب دوراً كبيراً في تلك الحملات. حتى أنه ذهب إلى حدّ المشاركة فيها شخصياً[155]، كما سنرى ذلك في نصوص ابن كثير التي تلي.

وفي رأي المستشرق لاوست يمكن اعتبار «البداية والنهاية» لابن كثير، القريب من تلك الأحداث، في طليعة المصادر الواجب اعتمادها، لا بل هو المصدر الأول والأساس. ثم تأتي بعد ذلك مصادر أخرى كأبي الفداء ومختصر كتابه عند ابن الوردي والمقريزي.

كما يثير انتباهنا مصدر آخر متأخر قرناً من الزمن عن الأحداث، ألا وهو تاريخ بيروت لصالح بن يحيى لأنه يحمل إلينا معلومات إضافية استقاها من مصادر إسلامية ضائعة أو يصعب الوصول إليها ومن محفوظات عائلته البحترية - التنوخية التي شاركت في تلك الحملات[156]. ومن المصادر المهمة التي أغفلها الذين درسوا هذه الحملات ومنهم «هنري لاوست» برغم من أنها معاصرة لها: اليونيني وابن أيبك الدواداري والمؤرخ المجهول والذهبي والنويري والجزري وابن الفرات وابن قاضي شهبة والعيني وغيرهم.

٢ = رواية اليونيني:

٦٩٩ هـ. «وتوجه نائب السلطنة المقرّ العالي جمال الدين أقوش الأفرم بعسكر دمشق في العشرين من شوال يوم الجمعة، وانضاف معهم جمع من الفلاحين ورجالة القرى، وتوجّه وهم معه بأجمعهم إلى جبل كسروان والدرزية لغزوهم وقتالهم لما كانوا أجرموه من أذى الجيش، وأخذ عددهم، وقتل بعضهم، والتعرض لهم. وفي يوم الخميس ثاني ذي القعدة، كان أوله الأربعاء قُهر الجبليون الذين توجه عسكر الشام إليهم، ودخلوا في الطاعة قسراً، وقُرّر عليهم مبلغ كثير من المال، والتزموا بردّ جميع ما أخذوه لعسكر المسلمين، واقتطعت أراضيهم وبلادهم جزاء بما عاملوه لعساكر المسلمين...»[157].

٧٠٥ هـ. «وتوجه الأمير جمال الدين نائب السلطنة بدمشق بمن تأخر (معه من) العساكر الشامية إلى جبل كسروان (والجرديين لاستئصال) شأفتهم، وكان قد سافر قبله العساكر المنصورة طائفة بعد طائفة، وتقدمة بعد تقدمة، وكان أيضاً قد تقدّمهم الرجالة من جميع البلاد، واجتمع عالم لا يحصى عددهم من العساكر والرجال، وكان سفره من دمشق يوم الاثنين الثاني من شهر الله المحرّم، وسافر في تجمل عظيم شبه الملوك بزردخاناه وحجّارين ونقابين، وذكروا أنه قد تكمل (رجاله) جميع البلاد فوق خمسين ألف راجل غير العساكر، ... ونودي بدمشق يوم الأربعاء في الأجناد والرجالة من تخلف شنق»[158].

«وفي رابع عشر صفر سافر نائب السلطنة الأمير جمال الدين آقوش الأفرم والعساكر المنصورة من جبال الكسروان والجرديين إلى دمشق بعد أن نصرهم الله تعالى على عدوّهم، واحتووا على جبالهم، واخربوا بناءها، وقطعوا كرومها ووطئوا أرضاً لم يكن أهلها يظنون أن أحداً من خلق الله تعالى يصل إليها، وأعان الله سبحانه وتعالى عليهم، وبدّد شملهم، وتمزقوا كل ممزق...»[159].

«... وفي يوم الإثنين ثامن عشر جمادى الأولى امرّوا جماعة دمشق، وأقطعوهم جبال الجرديين والكسروانيين وهم: الأمير علاء الدين بن معبد البعلبكي، وسيف الدين بكتمر، مملوك بدر الدين بكتاش استدار الملك المنصور حسام الدين لاجين، وعز الدين خطاب، وركبوا بالخلع... ثم بعد ذلك توجهوا لأجل عمارة الجبال، وحفظ ميناء البحر من جهة بيروت وتلك النواحي...»[160].

٣ = رواية النويري[161]

«٧٠٥ هـ ذكر توجه العساكر الإسلامية الشامية إلى بلاد كسروان وإبادة أكثرها وتمهيدها:

كان أهل جبال الكسروان قد كثروا وطغوا واشتدت شوكتهم وتطرقوا إلى

أذى العسكر المنصور عند انهزامه سنة ٦٩٩ هـ وتراخى الأمر وتمادى وحصل إغفال أمرهم فزاد طغيانهم واظهروا الخروج من الطاعة واغتروا بجبالهم المنيعة وجموعهم الكثيرة وانه لا يمكن الوصول إليهم فجهز إليهم الشريف زين الدين عدنان ثم توجه بعده في ذي الحجة سنة أربع وسبعماية الشيخ تقي الدين بن تيمية والأمير بهاء الدين قراقوش الظاهري وتحدّث معهم في الرجوع إلى الطاعة فما أجابوا إلى ذلك فعند ذلك رسم بتجريد العساكر إليهم من كل جهة ومملكة من الممالك الشامية وتوجه نايب السلطنة الأمير جمال الدين آقوش الأفرم من دمشق بساير الجيوش في يوم الأثنين ثاني المحرم وجمع جمعاً كثيراً من الرجال فيقال إنه اجتمع من الرجالة نحو خمسين ألفاً وتوجهوا إلى جبال الكسروانيين والجرديين وتوجه الأمير سيف الدين اسندمر بعكسر الفتوحات من الجهة التي تلي بلاد طرابلس وكان قد نسب إلى مباطنتهم فكتب إليه في ذلك فجرد العزم وأراد أن يفعل في هذا الأمر ما يمحو عنه أثر هذه الشناعة التي وقعت وطلع إلى جبال الكسروان من أصعب مسالكه واجتمعت عليهم العساكر فقتل منهم خلق كثير وتبدد شملهم وتمزقوا في البلاد واستخدم الأمير سيف الدين اسندمر جماعة منهم بطرابلس بجامكية وجراية من الأموال الديوانية وأسماهم رجال الكسروان وأقاموا على ذلك سنين وأقطع بعضهم أخبازاً من حلقة طرابلس وتفرق بقيتهم في البلاد واضمحل أمرهم وخمل ذكرهم وعاد نايب السلطنة إلى دمشق في رابع عشر صفر من السنة وأقطع جبال الكسروانيين والجرديين لجماعة من الأمراء التركمان وغيرهم منهم الأمير علاء الدين معبد البعلبكي وعز الدين خطاب وسيف الدين بكتمر الحسامي واعطوا الطبلخاناه وتوجهوا لعمارة اقطاعهم وحفظ مينا البحر من جهة بيروت».

وكان أبو الفداء، صاحب حماه، من بقايا الملوك الأيوبيين، من المصادر الأساسية المعاصرة لهذه الفترة، ومن الذين شاركوا في العديد من الحملات العسكرية خاصة إبّان فتح طرابلس وعكا، كما ساهم في الحملات ضد هجمات المغول، وهو يروي عن حملة ٧٠٥ هـ/ ١٣٠٥ م الآتي:

٤ = رواية أبو الفداء:

«وفيها (٧٠٥ هـ)، سار جمال الدين آقوش الأفرم بعسكر دمشق وغيره من عساكر الشام إلى جبال الظنينين وكانوا عصاة مارقين من الدين فأحاطت العساكر الإسلامية بتلك الجبال المنيعة وترجلوا عن خيولهم وصعدوا في تلك الجبال من كل الجهات وقتلوا وأسروا جميع من بها من النصيرية والظنينين وغيرهم من المارقين وطهرت تلك الجبال منهم وهي جبال شاهقة بين دمشق وطرابلس وأمنت الطرق بعد ذلك فإنهم كانوا يقطعون الطريق ويخطفون المسلمين ويبيعونهم للكفار»[١٦٢].

٥ = رواية إبن الوردي

أما ابن الوردي الذي يختصر أبا الفداء فيقول في أحداث ٧٠٥ هـ/ ١٣٠٥م:

«وفيها أحاطت عساكر الشام بجبال الظنينين المنيعة وكانوا عصاة مارقين وترجلوا عن الخيل وصعدوا في تلك الجبال من كل جانب وقتلوا وأسروا جميع من بها من النصيرية والظنينين وأمنت الطرق بعدهم وكانوا يتخطفون المسلمين ويبيعونهم من الكفّار وكان الذي أفتى بذلك ابن تيمية وتوجه مع العسكر...»[١٦٣].

٦ = رواية ابن ايبك الدواداري:

يذكر ابن ايبك الدواداري بخصوص عام ٦٩٩ هـ/ ١٣٠٠ م، أنه بعد انتصار غازان على المسلمين في موقعة الخرندار، هرب الناجون من درب التتار، وسار بعضهم إلى الساحل. ولم ينج منهم إلاّ من رافق سيف الدين بلبان الطباخي «فسلم من شرور الجبلية... وكان الجبلية والعربان على الناس أشدّ من التتار، حتى كان كأن لهم على الإسلام تار...»[١٦٤].

وبخصوص سنة ٦٩٩ هـ/ ١٣٠٠ م، يذكر: «وأما الأمير جمال الدين نايب

الشام فإنه توجه يوم الجمعة العشرين من شوّال بالعسكر الشامي وصحبته من الرجالة والفلاحين جمع كثير، وقصد جبل الكسروان والدرزية، فقتلهم قتلاً ذريعاً بسبب ما كانوا اعتمدوه في حق الجيوش الإسلامية حسبما تقدم من فعلهم الذميم، وكسرهم كسرة شنيعة، وذلك في ثاني شهر ذي القعدة. ودخلوا تحت الطاعة قسراً، وقرّر عليهم مال كثير، والتزموا بذلك وبجميع ما أخذوه من العساكر، واقطعت أراضيهم وبلادهم. . .»[١٦٥].

وبخصوص سنة ٧٠٥ هـ/ ١٣٠٥ م، يذكر: «وفيها خرج الأمير جمال الدين آقوش الأفرم نائب الشام المحروس من دمشق المحروسة وتوجه إلى جبل الكسروان، وتوجّه معه زردخاناه وحجارّين ونقّابين، وصحبته من الرجالة ما يزيد عن خمسين ألف راجل، ولم يزل يحصرهم ويبيدهم حتى أخلى منهم، وأراح الله تعالى من فسادهم العباد»[١٦٦].

٧ = رواية الجزري بنصها المترجم

691 expédition contre le Kisrawan:
L'émir Badr d. Baydari al-Mansuri se mit en route pour Baalbek, à la tête de la majeure partie des troupes égyptiennes, emmenant avec lui, contre émirs notables, l'émir Shams d. Qara Sunqur al-Mansuri, Shams d. Sunqur al-Ashqar, Badr d. Baktut al-Atabiki, Badr Baktut al-Alai, et d'autres encore. Ils se dirigèrent contre les montagnards du jurd et du Kisrawan, du côte de la côte, l'émir Rukn d. Tqsu, l'émir Izz d. Aybak al hamawi et d'autres encore, allèrent à leur rencontre, et ils firent leur jonction marchant contre la montagne. Mais Badr d. Baydari vit venir à lui des gens qui brisèrent son mordant, le firent revenir de la résolution qu'il avait formé contre eux, et ralentirent son élan. Des troupes étaient montées jusqu'à la montagne sans que le reste de l'armée les eût rejointes. Les montagnards s'en saisirent et ceux qui purent échapper revinrent en déroute, l'issue de l'affaire fut que l'on conclut un accord selon lequel on libérait de prison un certain nombre d'entre eux...»[١٦٧]

٨ = رواية المؤرخ المجهول[١٦٨] وهو من الشهود المعاصرين ومشارك في فتح عكا

في سنة ٦٩١ هـ «في شهر شعبان توجه الأمير بدر الدين بيدرا إلى جبال الكسروان وصحبته من الأمراء الأمير شمس الدين سنقر الأشقر والأمير شمس الدين قرا سنقر والأمير بدر الدين بكتوت العلائي والأمير بدر الدين الأتابكي والأمير ركن الدين طقصوا والأمير عز الدين ايبك الحموي. قال واما الأمير بدر الدين بيدرا انحل عزمه عنهم فحصل الفتور في أمرهم وتمكنوا من بعض العساكر في تلك الجبال الوعرة فنالوا منهم ما نالوا وعاد العسكر شبه المكسور وحصل لأهل الجبل الطمع والقوة فإنه أخلع على جماعة منهم وطلبوا محابيس لهم بدمشق أرباب جرايم عظيمة فاطلقهم لهم وحصل لهم من جميع المقاصد ما لم يكن في حسابهم وكلّ ذلك من الطمع وسوء التدبير فلما ان وصل إلى دمشق خرج السلطان إليه وتلقاه وأقبل عليه ثم بعد ذلك عتبه على ما حصل منه من التفريط فحمل على خاطره من ذلك فمرض وشنعوا عليه أنه مسقى وتصدّق السلطان عنه بجملة وأطلق كثيراً من المحابيس فرحاً بعافيته وتصدّق هو أيضاً من ماله بجملة كبيرة. . .».

في سنة ٦٩٩ «يوم الجمعة العشرين من شوال توجه الأمير جمال الدين آقوش الأفرم وصحبته الرجالة والفلاحين جمع كبير إلى جبل كسروان لغزوهم وقتالهم لما كانوا فعلوه في حق المسلمين وأخذ عددهم فعند ذلك دخلوا تحت الطاعة وقرر عليهم جملة مستكثرة فالتزموا به وحملوه واقتطعت بلادهم وأراضيهم ووصل الأمير جمال الدين إلى دمشق في يوم الأحد ثلث عشر ذي القعدة وخرجوا إليه أهل دمشق والتقوه ملتقى عظيماً. . . «ويقصد بما فعلوه أثناء هجوم قازان المغولي»[١٦٩].

٩ = رواية الذهبي

في سنة ٧٠٥ هـ/ ١٣٠٥ «سار عسكر دمشق والأفرم النائب لحرب

الجرديين فضايقوهم أياماً، وهم رافضة، اذوا الجيش في مكاتبة قازان، ثم صولحوا وفرقوا وخرجوا من أراضيهم...»[١٧٠].

١٠ = رواية ابن كثير:

«ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وستماية (١٢٩١ م)... وجهز السلطان طائفة من الجيش نحو جبل كسروان والجزر بسبب ممالأتهم للفرنج قديماً على المسلمين، وكان مقدم العساكر بندار وفي صحبته سنقر الأشقر، وقرا سنقر المنصوري، وجماعة آخرون من الأمراء الكبار، فلما أحاطوا بالجبل ولم يبق إلا دمار أهليه حملوا في الليل إلى بندار حملاً كثيراً ففتر في قضيتهم، ثم انصرف بالجيوش عنهم وعادوا إلى السلطان، فتلقاهم السلطان وترجل السلطان إلى الأمير بندار وهو نائبه على مصر، ثم ابن السلعوس نبه السلطان على فعل بندار فلامه وعنفه، فمرض من ذلك مرضاً شديداً أشفى به على الموت حتى قيل إنه مات، ثم عوفي فعمل ختمة عظيمة بجامع دمشق...»[١٧١].

ويقول في مكان آخر في تأريخه لعام ٦٩٩ هـ/ ١٣٠٠ م أي للحملة الثانية: «وفي يوم الجمعة العشرين منه (شوّال) ركب نائب السلطنة جمال الدين آقوش الأفرم في جيش دمشق إلى جبال الجرد وكسروان، وخرج الشيخ تقي الدين بن تيمية ومعه خلق كثير من المتطوعة والحوارنة لقتال أهل تلك الناحية، بسبب فساد نيتهم وعقائدهم وكفرهم وضلالهم، وما كانوا عاملوا به العساكر لما كسرهم التتر وهربوا حين اجتازوا ببلادهم، وثبوا عليهم ونهبوهم وأخذوا أسلحتهم وخيولهم، وقتلوا كثيراً منهم، فلما وصلوا إلى بلادهم جاء رؤساؤهم إلى الشيخ تقي الدين بن تيمية فاستتابهم وبين للكثير منهم الصواب وحصل بذلك خير كثير، وانتصار كبير على أولئك المفسدين، والتزموا بردّ ما كانوا أخذوه من أموال الجيش، وقرر عليهم أموالاً كثيرة يحملونها إلى بيت المال، واقطعت أراضيهم وضياعهم، ولم يكونوا قبل ذلك يدخلون في طاعة الجند ولا يلتزمون أحكام الملّة، ولا يدينون دين الحق، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله.

وعاد نائب السلطنة يوم الأحد ثالث عشر ذي القعدة وتلقاه الناس بالشموع إلى طريق بعلبك وسط النهار»[١٧٢].

وفي مكان آخر، يقول ابن كثير في معرض روايته لأحداث ٧٠٤ هـ/ ١٣٠٥ م: «وفي مستهل ذي الحجة ركب الشيخ تقي الدين بن تيمية ومعه جماعة من أصحابه إلى جبل الجرد والكسروانيين ومعه نقيب الأشراف زين الدين بن عدنان فاستتابوا خلقاً منهم والزموهم بشرائع الإسلام ورجع مؤيداً منصوراً»[١٧٣].

وأخيراً، يروي هذا المصدر في أخباره عن سنة ٧٠٥ هـ/ ١٣٠٥ م، أي عن الحملة الثالثة: «وفي ثانيه (المحرّم) خرج نائب السلطنة بمن بقي من الجيوش الشامية، وقد كان تقدم بين يديه طائفة من الجيش مع ابن تيمية في ثاني المحرم، فساروا إلى بلاد الجرد والرفض والتيامنة فخرج نائب السلطنة الأفرم بنفسه بعد خروج الشيخ لغزوهم، فنصرهم الله عليهم وأبادوا خلقاً كثيراً منهم ومن فرقتهم الضالة، ووطئوا أراضي كثيرة من صنع بلادهم، وعاد نائب السلطنة إلى دمشق في صحبته الشيخ ابن تيمية والجيش، وقد حصل بسبب شهود الشيخ هذه الغزوة خير كثير، وإبّان الشيخ علماً وشجاعة في هذه الغزوة وقد امتلأت قلوب أعدائه حسداً له وغماً»[١٧٤].

١١ = رواية ابن الفرات:

«وفي شعبان (٦٩١ هـ/ ١٢٩٢ م)، الشهر المذكور أمر الملك الأشرف الأمير بدر الدين بيدرا نايب السلطنة بالديار المصرية أن يتوجه إلى جبال الكسروان فتوجه الأمير بدر الدين بيدرا بمعظم العساكر المصرية وصحبته من الأمراء الأكابر الأمير شمس الدين سنقر الأشقر والأمير شمس الدين قرا سنقر المنصوري والأمير بدر الدين بكتوت الأتابكي والأمير بدر الدين بكتوت العلائي وغيرهم وقصد جبال الكسروان وأتاهم من جهة الساحل الأمير ركن الدين بيبرس طقصوا والأمير عز الدين أيبك الحموي وغيرهما والتقوا بالجبل وحضر

إلى الأمير بدر الدين بيدرا من اثنى عزمه وكسر حدته فحصل الفتور في أمرهم حتى تمكنوا من بعض العسكر في تلك الأوعار ومضايق الجبال فنالوا منهم وعاد العسكر شبه المنهزم وطمع أهل تلك الجبال فيهم واضطرب العسكر اضطراباً شديداً فاضطر الأمير بدر الدين بيدرا إلى إطابة قلوب الكسروان والإحسان إليهم واخلع علىَ جماعة من أكابرهم فاشتطوا في الطلب فأجابهم إلى ما التمسوه ومنه الأفراج عن جماعة منهم كانوا قد اعتقلوا بدمشق لذنوب وجرايم صدرت منهم. وحصل للكسروان من القتل والنهب والظفر ما لم يكن في حسابهم وحصل للأمراء والعسكر من الألم لذلك ما أوجب تصريح بعضهم بسوء تدبير الأمير بيدرا ونسبوه إلى أنه إنما أهمل أمرهم وفتر عن قتالهم حتى تمكنوا مما تمكّنوا منه لطمعه وانه تبرطل منهم وأخذ جملة كثيرة ولهج الناس بذلك وتوجه الأمير بدر الدين بيدرا بالعساكر إلى دمشق فتلقاه الملك الأشرف وأقبل عليه وترجل لترجله عند السلام عليه فلما خلا به أنكر عليه سوء اعتماده وتفريطه في العسكر فمرض لذلك حتى أشاع الناس أنه سقي ثم عوفي في العشر الأول من شهر رمضان. . .»[١٧٥].

ومن الروايات الإسلامية عن هذه الحملات، من منتصف القرن الخامس عشر، رواية المقريزي. ويقول المقريزي عن أخبار سنة ٦٩١ هـ/ ١٢٩٢ م، أي عن الحملة الأولى:

١٢ = رواية المقريزي:

«وفيه خرج الأمير بدر الدين بيدرا، نائب السلطنة بديار مصر، ومعه معظم العسكر إلى جبال كسروان، من جهة الساحل، فلقيهم أهل الجبال، وعاد بيدرا شبه المهزوم، واضطرب العسكر اضطراباً عظيماً، فطمع أهل الجبال فيهم. وتشوّش الأمراء من ذلك، وحقدوا على بيدرا، ونسبوه أنه أخذ منهم الرشوة. فلما عاد إلى دمشق تلقاه السلطان، وترجل له عند السلام عليه، وعاتبه سرّاً فيما كان منه، فمرض بيدرا حتى أشفى على الموت. . .»[١٧٦].

وفي أخبار ٦٩٩ هـ/ ١٣٠٠ م، أي الحملة الثانية، يورد المقريزي الآتي:

«وفي عشرين شوال، توجه الأمير آقش الأفرم من دمشق لغزو الدرزية أهل جبال كسروان. فإن ضررهم اشتد، ونال العسكر عند انهزامها من غازان إلى مصر منهم شدائد. ولقيه نائب صفد بعسكره، ونائب حماه ونائب حمص ونائب طرابلس بعساكرهم. فاستعدوا لقتالهم وامتنعوا بجبلهم، وهو صعب المرتقى، وصاروا في نحو اثني عشر ألف رام. فزحفت العساكر السلطانية عليهم، فلم تطقهم، وجرح كثير منهم، فافترقت العساكر عليهم من عدة جهات. وقاتلوهم ستة أيام قتالاً شديداً إلى الغاية، فلم يثبت أهل الجبال وانهزموا. وصعد العسكر الجبل بعدما قتل منهم وأسر خلقاً كثيراً، ووضع السيف فيهم، فألقوا السلاح ونادوا بالأمان، فكفوا عن قتالهم، واستدعوا مشايخهم وألزموهم بإحضار جميع ما أخذ من العسكر وقت الهزيمة. فأحضروا من السلاح والقماش شيئاً كثيراً، وحلفوا أنهم لم يخفوا شيئاً، فقرر عليهم الأمير آقش الأفرم مبلغ ماية ألف درهم جبوها، وأخذ عدة من مشايخهم وأكابرهم. وعاد إلى دمشق يوم الأحد ثالث ذي القعدة. . .»[١٧٧].

وفي أخبار سنة ٧٠٤: «توجه شيخ الإسلام تقي الدين أحمد ابن تيمية في ذي الحجة من دمشق ومعه الأمير بهاء الدين قراقوش المنصوري، إلى أهل جبل كسروان يدعوهم إلى الطاعة فلم يجيبوا، فجمعت العساكر لقتالهم»[١٧٨].

وبالنسبة للحملة الثالثة التي جرت في سنة ٧٠٥ هـ/ ١٣٠٥م، يقول:

«سار الأمير جمال الدين آقش الأفرم.. من دمشق في عساكرها لقتال أهل جبال كسروان، ونادى بالمدينة من تأخر من الأجناد والرجالة شنق، فاجتمع له نحو خمسين ألف راجل وزحف بهم لمهاجمة أهل تلك الجبال، ونازلهم، وخرّب ضياعهم، وقطع كرومهم، ومزقهم بعدما قاتلهم أحد عشر يوماً، قتل فيها الملك الأوحد شادي.. وأربعة من الجند، وملك الجبل عنوة، ووضع فيهم السيف، وأسر ستمائة رجل، وغنمت العساكر منهم مالا عظيماً. وعاد إلى دمشق في رابع عشر صفر..

وفيها اقطع السلطان في جمادى الآخرة جبال كسروان بعد فتحها للأمير علاء الدين ابن معبد البعلبكي، وسيف الدين بكتمر عتيق بكتاش الفخري، وحسام الدين لاجين، وعز الدين خطاب العراقي، فركبوا بالشربوش، وخرجوا إليها، فزرعها لهم الجبلية. ورفعت أيدي الرفضة عنها...»[١٧٩].

١٣ = رواية ابن قاضي شهبة[١٨٠]

«في أول سنة خمس: توجه نائب الشام الأفرم ليغزوا جبال الكسروانيين وقد اجتمع معه نحو من خمسين ألف. فاجتمعوا على بلادهم وأخربوها وقطعوا كرومها، ووطىء العسكر أرضاً لم يكن أهلها يظنون أحداً يصل إليها، وتبدد شملهم وتمزقوا كل ممزق، وهذه الجبال شامخة بين دمشق وطرابلس، وأهلها يكثرون الأذى، ويأسرون المسلمين ويبيعونهم من الفرنج، ولما مرّ بهم العسكر سنة ٩٩ حصل لهم منهم أذى زائد. فبقي في نفس نائب الشام منهم إلى أن أمكنه الله تعالى منهم، واقطعت تلك البلاد لأمراء...».

١٤ = رواية العيني

سنة ٦٩٩ هـ/ واتفق نائب طرابلس مع نائب حماه أن يركب كل منهما بعسكره إلى جبل كسروان، ثم رسم بتجهيز عسكر الشام وعسكر صفد أيضاً مع هؤلاء، فاجتمعت العساكر وجاؤوا إلى جبل كسروان ووجدوا أهله كلهم مستعدين للقتال، وكان هذا الجبل حصيناً قوياً لا يمكن صعود الفرس إليه إلاّ بعد مشقة كبيرة مع عدم مانع منه، والراجل أيضاً لا يمكن صعوده إلاّ إذا كان مخفاً، وكان أهله من أعظم غلاة الرافضة والزنادقة، وحصل لهم في هذه السنة من الأموال من جهة العسكر لما انهزموا ما لم يحصل لأحد قبلهم، فإنهم كانوا يأخذون الأمير بطلبه عندما يتوسط الجبل قبضاً باليد، ولم يكن أحد يقدر أن يمانع عن نفسه، فإذا تعسر عليهم أحد منهم ارموا عليه حجراً يقتله أو يهشمه، وذكر إنهم كانوا في هذا الجبل نحو اثني عشر ألف رجل كلهم يرمون بقسي قوية، ولما نزلت الأمراء عليهم رتبوا أمرهم، وأصبحوا في الزحف إليهم من

كل جانب، ولم يقدروا على الثبات معهم إلى الظهر حتى رجعوا وتأخروا وخرجت من العسكر جماعة كثيرة، فلما عادوا إلى الوطاق استشاروا في ما بينهم، وقالوا القتال معهم صعب، والرجوع عنهم أصعب، ثم اتفقوا أن يكون الأمير سيف الدين اسندمر نائب طرابلس بعسكره ومضافيه من ناحية من الجبل، وأن يكون الأمير زين الدين كتبغا نائب حماه ونائب حمص معه من ناحية أخرى، وأن يكون سيف الدين بهادر آص، وكجك من ناحية أخرى، وأن يكون الأمير سيف الدين قطلوبك ـ الذي كان نائب طرابلس وعزل ـ من ناحية أخرى، وأن يكون نائب الشام من ناحية أخرى، واتفقوا أن تكون المواظبة على الزحف ستة أيام. وأهل الجبل أيضاً قد تعرفوا على نواحي الجبل وجعلوا جانباً من الجبل للنساء والصبيان يرمون الأحجار.

ولما ركبوا في ذلك اليوم وزحفوا ترجل الأمير أسندمر الكرجي، ثم أرسل إلى الأمراء وأخبرهم أنه ترجل وليترجل الأمراء أيضاً، فترجلوا كلهم في ذلك اليوم، وكان أول من صعد قدام العسكر اسندمر المذكور وكان شجاعاً مقداماً، ولما رأى أهل الجبل هؤلاء قد ترجلوا وقع في قلوبهم الرعب حتى ذكر عن بعضهم أنه قال: كنت أرمي علَى قوس أربعين رطلاً بالدمشقي، وفي هذا اليوم لحقتني رعدة في يدي ولم أقدر على الرمي، فأوقع الله فيهم الذلة والرعب وانهزموا، وقتلوا منهم جماعة كثيرة، فلما رأوا ذلك أرموا أسلحتهم وطلبوا الأمان، فكفوا عنهم القتل وأسروا منهم جماعة كثيرة ثم حضرت مشايخ الجبل وأكابرهم والتزموا أن يحضروا جميع ما أخذوه من العسكر ولا يخلون عندهم شيئاً يساوي درهماً ولا يخفونه، فرضى العسكر بذلك، وأقاموا هناك إلى أن أحضروا جميع ما أخذوه من القماش والسلاح والعدد من السيوف والرماح والقرقلات وغير ذلك، ثم حلفوهم على اعتقادهم إنهم لا يخفون شيئاً، وبعد ذلك قرروا عليهم مائتي ألف درهم، وأخذوا جماعة من مشايخهم وأكابرهم رهائن وأصحبوهم معهم إلى دمشق إلى أن يحضروا بالمال الذي قرر عليهم، ثم كتبوا للسلطان والأمراء بذلك[١٨١].

٧٠٥ هـ ذكر قضية جبال الكسروان:

قال ابن كثير: وفيها توجهت العساكر الشامية إلى جبال الكسروان، وكان أهلها قد طغوا واشتدت أذيتهم، وتطرقوا إلى أذى العسكر عند انهزامه في سنة تسع وتسعين وستماية، وتراخى الأمر وحصل الإغفال. فزاد طغيانهم وخرجوا عن الطاعة، فتوجه إليهم الشريف زين الدين بن عدنان، ثم توجه بعده تقي الدين بن تيمية، وقراقوش الظاهري، ووعظوهم فلم يفد فيهم، فعند ذلك رسم بتجريد العساكر إليهم من كل مملكة من الممالك الشامية، فتوجه آقوش الأفرم من دمشق يوم الاثنين ثاني المحرم بالعساكر الشامية وصحبته من الرجالة نحو خمسين ألفاً على ما قيل، وتوجهوا إلى جبال الكسروانيين والجرديين وطلع إليهم سيف الدين اسندمر النائب بطرابلس من أصعب المسالك واجتمعت عليهم العساكر من الرجال والتراكمين الأبطال، فأبادوهم قتلاً وتشتيتاً في البلاد، وسبيت نساؤهم، وبيعت أولادهم، واستخدم اسندمر المذكور منهم جماعة بطرابلس، وانقطع أثرهم من الجبال، وعاد العسكر إلى دمشق، وقتل في هذه الوقعة الأوحد ابن الملك الزاهر، أحد أمراء دمشق، وعاد الناس إلى دمشق في رابع صفر».[١٨٢].

روايات محلية كثيرة تخبر عن هذه الحملات. منها ما جاء عند صالح بن يحيى[١٨٣]، وابن أسباط[١٨٤]، وابن القلاعي[١٨٥] والدويهي[١٨٦].

١٥ = رواية صالح بن يحيى:

«قال النويري لما حضر السلطان الملك الأشرف خليل بن المنصور إلى الشام سنة أحد وتسعين وستماية وافتتح قلعة الروم[١٨٧] وهي ثاني حضوره بعد فتوح السواحل قال ذكر توجه الأمير بدر الدين بيدرا[١٨٨] نايب السلطنة بمصر وبعض العساكر إلى جبال كسروان واضطراب العساكر في شهر شعبان سنة أحد وتسعين وستماية توجه الأمير بيدرا بمعظم العساكر المصرية وصحبه ومن الأمراء الأكابر شمس الدين سنقر الأشقر[١٨٩] والأمير قرا سنقر المنصوري[١٩٠] والأمير

بدر الدين بكتوت الأتابكي والأمير بدر الدين بكتوت العلاي[١٩١] وغيرهم وقصدوا جبال كسروان وأتاهم من جهة الساحل ركن الدين بيبرس طقصوا[١٩٢] والأمير عز الدين أيبك الحموي[١٩٣] وغيرهما والتقوا بالجبل وحضر إلى الأمير بيدرا من أثنى عزمه وكسر حدته فحصل الفتور في أمرهم حتى تمكنوا من بعض العسكر في تلك الأوعار ومضايق الجبال فنالوا منهم وعاد العسكر شبه المكسور المنهزم وطمع أهل تلك الجبال فاضطر الأمير بيدرا إلى إطابة قلوبهم والأحسان إليهم وخلع على جماعة من أكابرهم فاشتطوا في الطلب فأجابهم إلى ما التمسوه من الأفراج عن جماعة منهم كانوا قد اعتقلوا بدمشق لذنوب وجرايم صدرت منهم وحصل للكسروانيين من القتل والنهاب والظفر ما لم يكن في حسابهم وحصل للأمراء والعسكر من الألم ما أوجب تصريح بعضهم بسوء تدبير الأمير بيدرا ونسبوه إلى أنه إنما أهمل أمرهم وفتر عن قتالهم حتى تمكنوا مما تمكنوا منه لطمعه أنه تبرطل منهم وأخذ منهم جملة كثيرة واحج الناس بذلك وتوجه الأمير بيدرا بالعساكر إلى دمشق فتلقاه السلطان وأقبل عليه وترجل لترجله عند السلام عليه. فلما أنكر عليه سوء اعتماده وتفرطه في العسكر فمرض لذلك حتى شنع الناس أنه سقي ثم عوفي في العشر الأول من رمضان فتصدق السلطان بجملة كثيرة شكراً لله على عافيته وأطلق جماعة كثيرة ممن كان في سجون وتصدق هو أيضاً ونزل عن كثير مما كان اغتصبه من أملاك الناس وجمع العلماء والقضاة والقرا والمشايخ في العاشر من رمضان بالجامع بدمشق لقراءة ختمة وأشعل الجامع في هذه الليلة كما يشعل في نصف شعبان.

فصل والذي تكلم عند السلطان أن بيدرا ارتشا من الكسروانيين

بيبرس طقصوا فسرها بيدرا في نفسه وتربص له فلما قبض السلطان على لاجين[١٩٤] في عيد الفطر من السنة المذكورة خاطب بيدرا السلطان في القبض على بيبرس طقصوا فقبض مع لاجين لأنه كان قد تزوج بنته قال النويري في العشر الآخر من شعبان سنة ثمان وتسعين وستماية وصل إلى بيروت مراكب كثيرة وبطس للفرنج فيها جماعة كثيرة من المقاتلة يقال إن البطس كانت ثلاثين

بطسة في كل بطسة منها نحو سبعماية وقصدوا أن يطلعوا من مراكبهم إلى البر ويحصل غارتهم على بلاد الساحل فلما قربوا من البر أرسل الله عليهم ريحاً مختلفة فغرقت بعض هذه السفن وتكسر بعضها ورجع من سلم منهم على أسواء حال وكفى الله شرهم ثم قال وحكي عن الريس ببيروت أنه قال والله لي خمسين سنة لازمَ هذا البحر فما رأيت مثل هذه الريح التي جرت على هذه المراكب وليست في الرياح المعروفة عندنا ومما نقلناه عن النويري والصلاح الكتبي[١٩٥] في فتوح كسروان في حوادث سنة خمس وسبعماية قالا في ذكر توجه العساكر الشامية إلى جبال كسروان وإبادة أهلها وتمهيدها وهي النوبة الثانية في أيام السلطان الملك الناصر محمد بن المنصور[١٩٦] قالا كان أهل كسروان قد كثروا وطغوا واشتدت شوكتهم وامتدوا إلى أذى العسكر عند انهزامه من التتر في سنة تسع وتسعين وستماية وتراخى الأمر عنهم وتمادى وحصل إغفال أمرهم فزاد طغيانهم وأظهروا الخروج عن الطاعة واعتزلوا بجبالهم المنيعة وجموعهم الكثيرة وأنه لا يمكن الوصول إليهم وفي ذي الحجة سنة أربع وسبعماية جهز إليهم جمال الدين اقش الأفرم[١٩٧] نايب الشام زين الدين عدنان[١٩٨] ثم توجه بعده تقي الدين[١٩٩] وقراقوش[٢٠٠] وتحدثا معهم في الرجوع إلى الطاعة فما أجابوا إلى ذلك فعند ذلك رسم بتجريد العساكر إليهم من كل جهة وكل مملكة من الممالك الشامية وتوجه اقش الأفرم من دمشق بساير الجيوش في يوم الاثنين ثاني المحرم سنة خمس وسبعماية وجمع جمعاً كثيراً من الرجالة نحو خمسين ألفاً وتوجهوا إلى جبال الكسروانيين والجرديين وتوجه سيف الدين اسندمر نايب طرابلس[٢٠١] وشمس الدين سنقرجاه المنصوري نايب صفد[٢٠٢] وطلع اسندمر المذكور من جهة طرابلس وكان قد نسب إلى مباطنتهم فجرد العزم وأراد أن يفعل في هذا الأمر ما يمحوا عنه هذه الشناعة التي وقعت وطلع إلى جبل كسروان من أصعب مسالكه واجتمعت عليهم العساكر واحتوت على جبالهم ووطت أرضاً لم تكن أهلها يظنون أن أحداً يطأها وقطعت كرومهم وأخربت بيوتهم وقتل منهم خلق كثير وتمزقوا في البلاد واستخدم اسندمر جماعة منهم بطرابلس بجامكية وجراية من الأموال الديوانية فأقاموا على ذلك سنين وأقطع

بعضهم أخباز من حلقه طرابلس واختفا بعضهم في البلاد واضمحل أمرهم وخمل ذكرهم وعاد نايب الشام إلى دمشق بالعساكر في رابع شهر صفر من السنة المذكورة وجعل الناظر في بلاد بعلبك وجبال الكسروانية بهاء الدين قراقوش فاخلا ما كان تأخر بجبال كسروان وقتل من أعيانهم جماعة ثم أعطوا أماناً لمن استقر في غير كسروان ثم أقطع لعلاء الدين بن معبد البعلبكي[٢٠٣] وعز الدين خطاب[٢٠٤] وسيف الدين بكتمر الحسامي[٢٠٥] وابن صبح[٢٠٦]. وفي سنة ست وسبعماية أبطلوا أقطاع المذكورين بكسروان واقطعوه للتركمان بثلاث ماية فارس وتدركوا مين البحر ودروب البر من ظاهر بيروت إلى حد عمل طرابلس واستمروا إلى وقتنا هذا وشهروا بتركمان كسروان وعرفوا به. ومن الحوادث أنه في العشر الآخر من جمادى الأول جاز على بيروت تعميرة للفرنج ولم يتعرضوا إليها وتوجهوا إلى صيدا فأخذوها وقتلوا منها جماعة وأسروا جماعة ونهبوا منها شيئاً كثير وكذلك المسلمين قتلوا من الفرنج جماعة وبعثوا برؤوسهم إلى دمشق وعلقوا على القلعة فكانت بضع وثلثون رأساً وحضر إلى صيدا الأمير شهاب الدين بن صبح نايب صفد وسبق العسكر الشامي ولحق التعميرة على جزيرة صيدا بعد فوات الأمر فاشترى الأسرآ جميعهم كل نفر بخمسماية درهم وأخذ من ديوان الأسرا ثلثون ألف درهم...».

وفي مكان آخر من «تاريخ بيروت يذكر صالح بن يحيى أن ملك الأمراء لاجين نايب الشام أرسل مثالاً (مرسوماً) عن الملك المنصور قلاوون إلى زعيمي الأمراء البحتريين جمال الدين حجي (ت ١٢٩٨ م) وزين الدين بن علي (ت ١٢٩٦ م) يطلب فيه منهما ملاقاة شمس الدين سنقر[٢٠٧] إلى جهة كسروان والجردين»[٢٠٨] برجالهما، ويصوّر لهما ما ينتظرهما من غنائم: «من نهب امرأة منهم كانت له جارية أو صبي كان له مملوكاً ومن أحضر منهم رأساً فله دينار وأن سنقر توجه لاستيصال (استئصال) شأفتهم ونهب أموالهم وسبي ذراريهم وأنفسهم، تاريخه سابع جمادى الأول سنة ٦٨٦ هـ/[٢٠٩].

وقد تأخر سنقر المنصوري عن كسروان بسبب موت السلطان المنصور

قلاوون وانتقال السلطة إلى ابنه الأشرف خليل، مما استدعى ذهاب العساكر المصرية إلى كسروان «وعودهم منه شبه المكسورين[٢١٠] في ٦٩١ هـ/ ١٢٩١ م. ثم كانت إبادة الكسروانية سنة خمس وسبعماية هذا في أيام الناصر محمد بن قلاوون»[٢١١]. ويعطي صالح بن يحيى سبب الهجوم على كسروان فيقول:

«وذلك أن الهاربين من عساكر الملك الناصر محمد بن قلاوون بن قازان[٢١٢] سنة تسع وتسعين وستماية تفرقوا في البلاد فحصل لهم الأذية من المفسدين خصوصاً من أهل كسروان وجزين وأكثرهم أذية للهاربين أهل كسروان بالغوا إلى أنهم مسكوا بعض الهاربين وأباعوهم للفرنج وأما التشليح والقتل فكان كثيراً...»[٢١٣] وبخصوص المعركة الأخيرة التي انتهت بفتح كسروان يقول صالح بن يحيى:

«وفي أيامه (أي أيام الأمير ناصر الدين البحتري[٢١٤]) في أوايل المحرم سنة ٧٠٥ هـ كان فتوح كسروان فتوجه إلى كسروان ومعه أقاربه وجمعه فقتل منهم... بقرية نيبيه من كسروان وقتل معهم... وكان وقعة نيبيه المذكورة وقعة ردية لأن أهل كسروان تجمعوا وقاتلوا بها وكان فيها مغارة اجتمعوا بها بعد القتال ذكر أن كان عبرة أهل كسروان أربع ألف راجل فراح تحت السيف منهم خلق كثير والسالم منهم تفرقوا في جزين وبلادها والبقاع وبلاد بعلبك وبعضهم أعطوه الدولة أمانهم وحصل على ناصر الدين إنكار من الدولة لكون بلغهم أنه تعرض إلى من أعطي أمانهم من الكسروانيين في مرورهم على بلد بيروت وكان النقل عن ناصر الدين من جهة كذب لا حقيقة لها وكتب بذلك محاضر رايت بعضهم اسما النواب الذي اجتمعوا على كسروان، الجمالي، آقوش الأفرم نايب الشام، والسيفي اسندمر نايب طرابلس، والشمس سنقرجاه المنصوري نايب صفد»[٢١٥].

١٦ = رواية ابن أسباط:

ومن بين المصادر المحلية أيضاً نجد ابن أسباط، من القرن الخامس عشر،

الذي أكمل ما بدأه صالح بن يحيى في تأريخه لعائلة المقطعين البحتريين - التنوخيين. ولكن ابن أسباط لم يأت بجديد بل اختصر ابن الوردي من دون أن يحدد هوية الكسروانيين أو يأتي على ذكر الدروز في جبل كسروان[٢١٦].

١٧ = الروايات المارونية:

وفي الدرجة الأخيرة تأتي المصادر المارونية المتأخرة زمنياً عن الأحداث التي وجّه لها المستشرق لاوست نقداً لاذعاً مبنياً على ما جاء عند المستشرق لامنس معتبراً أن تلك المصادر قليلة الأهمية وتلخّص بشكل ببغائي ما جاء عند المؤرخين المسلمين، مشيراً بذلك إلى نصوص الدويهي وإلى مختصر تاريخ جبل لبنان للعينطوريني. ولكن هذه المصادر قادرة أن تتحوّل، برغم نواقصها وتضارب تواريخها، إلى وثائق قابلة للتصديق إذا ما أخضعت للنقد العميق، تماماً كما فعل معها المؤرخ كمال الصليبي في نقده وتصويبه لبعض رواياتها في كتابه عن المؤرخين الموارنة للقرون الوسطى[٢١٧].

وفي طليعة هذه المصادر المارونية، نجد ابن القلاعي[٢١٨] والدويهي[٢١٩].

فهذه المصادر مفيدة لأنها تشرح بعض النقاط وتلخّص مصادر ضائعة وروايات شفهية كانت تتناقل من جيل إلى جيل.

ومن غريب الصدف أن يكون القدر قد حفظ للموارنة مصدراً مهمّاً قابلاً للتصديق ومعاصراً للأحداث هو للمطران تادرس مطران حماه الماروني في القرن الرابع عشر الميلادي. ويحمل عنوان «نكبة كسروان ودير مار شليطا مقبس بغوسطا، نقل عن تادرس مطران حماه». وقد نشر كملحق **لحروب المقدمين** لابن القلاعي على يد الأب بولس قرألي.

أ - رواية تادرس مطران حماه الماروني[٢٢٠]:

وهو يخلط فيها بين اسمي الظاهر بيبرس والظاهر برقوق ويخطىء في الأرقام، ولعل هذا من عمل الناسخ وعنه أخذ ابن القلاعي أخطاءه[٢٢١].

تقول الوثيقة حول أحداث كسروان ما يلي:

«... وفي بدو هذه السنة (١٣٤٣ للإسكندر المقدوني/ ١٠٣٢ م)، صار الاختلاف بين سلطان فرنسا وبين السلطان محمد برقوق الظاهر (والمقصود الظاهر بيبرس)... فعرفوا في مكره واساياه النصارى الذين في برّ الشام لأجل ذلك قاموا المتقدمين على المعاملات وصار الاتفاق بينهم أنهم يمسكوا الدروب على أهل مصر... واظهروا سرهم إلى طائفة يقال لها بيت بلمع الدرزي وكانوا متقدمين في ذلك الوقت على الشحار والجرد والبقاع فحلفوا لهم أنهم سعدتهم... مسكوا الدروب وجعلوا ينهبوا ويقتلوا الخارجين من مصر والداخلين وداموا على هذا الفعل ثلاثين سنة. فاعتلم فيهم السلطان برقوق فعظم عليهم وكتب إلى باشة الشام أنه يركب عليهم. فتعين من الشام سبعماية خيال يركبوا على الكساروه... واجتمع الكساروه وبيت بلمع في بسكنتا وانتظروا عسكر الشامي حتى وصل إلى عين صنين وتصافقوا الفريقين. وانهزم الشام من قدامهم وأخذوا يقتلوا فيهم...

ومن بعد هذه الموقعة أمر السلطان برقوق أن يتعين رجال من مصر وتجي إلى الشام ولا تبيّن. وجعل يرسل رجال (سنة) بعد سنة حتى إلى سبع سنين. وفي اكتمال السنين المذكورة اكتمل العسكر في الشام كرّه وخمسين ألف (أي مئة وخمسين ألفاً). ومن بعد اكتمال عسكره أبرز أمر للمدبرين العسكر ويأمر في وصول الأمر إليكم تركبوا على جبال كسروان وتحطاطوهم خمسين ألف مشرق وخمسين ألف قبلة وخمسين ألف شمال وتملكوا البلاد وتهدموا القلاع والأبرجة والكنائس والأديرة والضياع والعالي تجعلوه واطي والخشن سهل وتقتلوا الرجال والصبيان والنساء والرضع بالسرير. فلما وصل الأمر ركبوا وحاطوا البلاد خمسين ألف من قب الياس إلى انطلياس وخمسين ألف من قب الياس إلى نبع الخارجية وخمسين ألف من الخارجة (أي كسروان) إلى نهر إبراهيم للبحر ومقدم العسكر نزل في مدينة قبعل(٢٢٢) وحطوهم تحت الحصار وظلوا أربع أشهر حتى ملكوا البلاد، ولما ملكوا البلاد جعلوهم عبرة للجيران

ولم خلص منهم ذو حي بل راحوا طعام السيف والحريق وما خلص من البلاد حي إلا مدينة جونية راحوا في المراكب وتأسفت الجيران على دمار بلاد كسروان وجيرة ناسه... ولم خلص في كسروان لا دير ولا كنيسة ولا برج بلا خراب إلا كنيسة القديس مار شليطا. وبعد خراب البلاد صار أرضها من تركمان وعربان وإسلام يسكنوا في السواحل...

ونقل هذا التاريخ القس بطرس من قرية عجلتون من تاريخ مطران تاودورس مطران حما(٢٢٣).

هذه الوثيقة يعتبرها الخوري إبراهيم حرفوش تقليداً قديماً مشوهاً بالحكايات بناه تصوّر الموارنة الحقيقي في عظمة الفرنسيين وبطشهم، وهي تخطىء في أرقام الحوادث وفي اسم أحد أبطالها.

ويردّ عليه الخوري قرأ لي بأنه لا يجوز نبذ هذه الوثيقة جانباً، بحجة أنها أخطأت في أرقام الحوادث وفي اسم أحد أبطالها. فإذا علقت الحواشي الضرورية وصححت الهفوات تصبح وثيقة المطران تادرس وزجليات ابن القلاعي مصادر مهمة أمام الفقر المدقع في مصادرنا التاريخية للقرون الوسطى.

ولعلّ الناسخ عند إيراده سنة ١٣٤٣ للإسكندر/ ١٠٣٢م كان يقصد ١٣٠٢ م. وأخطأ أيضاً في أنه نسب الحملة إلى السلطان برقوق الذي تولى السلطنة من عام ١٣٨٢ م إلى عام ١٣٩٨ م. وأغلب الظن أن ابن القلاعي نقل عنه، فسقط في الخطأ نفسه. وقد أصاب تادرس في ما ذكره عن الحملة التي قادها الأمير بيدرا، في تموز سنة ١٢٩٢، (راجع النصوص الإسلامية وأيضاً صالح بن يحيى). وما ذكره المطران المذكور عن الحملة النهائية والنكبة في ١٣٠٧ م مطابق لما جاء عند المؤرخين المذكورين (عن سنة ١٣٠٥ م).

وقد امتاز المطران تادرس عن هؤلاء المؤرخين بمعلومات إضافية تتكلم على هرب أهل جونية إلى قبرص(٢٢٤).

٢ ـ رواية ابن القلاعي:

ومن بين ما يذكره ابن القلاعي في زجلياته عن هذه الأحداث ما يلي:

«المقدم بولوس والأمير مسعود	ما قام مثلهم في الجود
خرجو من الحدث بدرع مكمود	أبطال دخلوا في الميدان
وأفنوا عسكر الإسلام	وصلت أخبارهم للشام
سبع سنين حاربوا الإسلام	وصل خبرهم إلى السلطان
من أبريسات[٢٢٥] قد جا واحد	لطيبا[٢٢٦] ولهم أوعد
عليّ بملّككم وأخد	هذه القرية في اطمنان
خلعوا عليه ووعدوه في مال	وعلموا[٢٢٧] من ذاك المحتال
دخل لاشبينه[٢٢٨] في المقال	تمكن فيه روح الشيطان
وطاع لاشبينه في مقاله	والنار علقت في أبدانه
طاع وطاعت جيرانه	رجال القرية والنسوان
ودخلوا إليهم في اطمنان	وذبحوهم ذبح الخرفان
ولا تركوا منهم إنسان	الرجال والنسا والصبيان
ومن تلك الآن الحدث خربت	ألفين وسبعمائة كانت
وسبع سنين الإسلام حاربت	وصل خبرهم إلى السلطان[٢٢٩]
وأقاموا مقدم في بشرى	على الدياري والنهرى[٢٣٠]
ضد الطغيان والمصرى	يقيم حراس ويكون سهران»[٢٣١]

٣ - رواية البطريرك اسطفان الدويهي:

أما البطريرك الدويهي فيقول عن هجوم المماليك على الموارنة في عام ١٢٨٣ م:

«سنة أرفج (١٢٨٣ م) مسيحية وانصز (١٥٩٧) يونانية أنه في شهر حزيران سارت العساكر الإسلامية إلى فتح جبة بشرى، فصعدوا في وادي حيرونا إلى

جهة إهدن كما هو محرّر في الشحيمة التي بدير مار آبون، وانكتبت بهذه السنة بنفسها في قطين الروادف التي تحت مزرعة الحدث. فحاصر العسكر إهدن حصاراً شديد في نهار الأربعين بشهر حزيران، فملكوها ونهبوا وقتلوا وسبوا، ثم دكّوا إلى الأرض القلعة التي كانت على الجبل الذي في وسط إهدن. وهدموا الحصن الذي كان على الجبل العالي. ثم انتقلوا إلى بقوفا ففتحوها في شهر تموز وقبضوا على أعيانها وأحرقوهم كلهم بالبيوت، وبعدما نهبوها وسبوا أهلها دكّوها إلى الأرض.

وفي اثنين وعشرين من شهر عاب (آب) انتقلوا إلى الحدث فدخلوا أهلها إلى العاصي وهي مغارة جميلة منيعة، فثبت عليها الحصار مدة سبع سنين، ثم في الأمان تسلّموا أهلها فأحرقوا إمارتها بالنار وقتلوا من قتلوا وسبوا النساء والدراري. وذلك كما هو مؤرخ في الشحيمة التي انكتبت في هذه السنة، وكان قاطن بدير مار يوحنا المعروف بمار آبون المطران إبراهيم الحدثي. وفي الشحيمة التي انتسخت من المذكورة أعلاه سنة افيه (١٨١٥) يونانية (أي سنة ١٥٠٤ م) بأيام المطران داود الحدثي القاطن بدير سيدة قنوبين. والشحيمتين بعدهما محفوظتان في دير مار آبون المذكور.

وقيل إن البرج الذي كان في حوقا عجز الجيش عن أخذه فأشار إليهم ابن الصبحا من كفرسغاب بجر نبع بشراي وتركيبه عليه، فملكوه بقوة الماء ودكوه إلى الأرض. ولأجل ذلك اذنوا لابن الصبحا بلبس باش يانس أبيض وبقية العبيد لخدمته وكان مقوى جداً. ثم إنه تاب عن سوء فعله ورجع وعمّر دير حوقا في قرب البرج لسكنة الرهبان»[٢٣٢].

وفي مكان آخر يخبر عن الهجوم على الكسروانيين والجرديين في عام ١٢٨٧ م الذي تلا فتح مدينة طرابلس، فيقول:

«(وعلى الهامش): «ولأن الكساروه (أهل كسروان) والجرديين نزلوا إلى نجدة الفرنج، أمر حسام الدين لاجين نائب دمشق أن قراسنقر يجمع العساكر الشامية ويزحف بهم إلى استئصالهم. ويقول المؤرخ ابن سباط: من جملة

المطالعات كتب إلى أمراء غرب بيروت الأمير جمال الدين حجي بن محمد التنوخي والى زين الدين ابن علي أنه إذا بلغهما توجه المقر الشمسي سنقر المنصوري بالعساكر المنصورة إلى جهة كسروان والجرديين يتوجهوا إليه بمجموعهما وأهويتهما، وان من نهب امرأة منهم كانت له جارية، أو صبي كان له مملوكاً، ومن أحضر منهم رأساً فله ديناراً. وان سنقر توجّه لاستئصال شأفتهم ونهب أموالهم وسبي ذراريهم وأنفسهم»[٢٣٣].

ويذكر الدويهي أيضاً، أنه على عهد السلطان الأشرف خليل خليت بلدان السواحل من الفرنج الذين لجأ البعض منهم إلى جبل لبنان والباقية عادوا إلى بلادهم[٢٣٤].

ويدخل الدويهي الموارنة في قصة الحملات على كسروان فيقول:

«وأما الأسقف ابن القلاعي يقول في قصة كسروان أنه كان متولي عليها الأمير حنا الماروني، فلما نظر الملك حنا أنه قويت قلوب المسلمين بفتح طرابلس، ومات البرنس، وضعفت الفرنج، طلب الهدنة من المسلمين ودخلت تحت الطاعة وعملوا عليهم اقطاعاً. ثم إنه في هذه السنة هيأ مراكب في الليل وأوسقهم من الناس والبهايم إلى جزيرة قبرص وبلاد النصارى، وقبل ما يدخل البحر علق النار في أربعة أقطار جبيل. ثم إنه جاء في هذه السنة في أثره العسكر الإسلامي إلى جبيل على غفلة، فوجدوا أبواب الصور (السور) منقفلة، والنار تتقد في البيوت. فنزل العسكر في أوج المدينة باطومان (بالاطمئنان).

فدقوا أهل الجبال النواقيس وارموا الصوت ورفعوا الصلبان عريانة، فاجتمعوا ثلاثين مقدم، ومن جملتهم كان المقدم خالد مقدم مشمش، وسنان وسليمان أخوه مقدمي إيليج، وسعاده وسركيس مقدمي لحفد، وعنتر مقدم العاقورة، وبنيامين مقدم حردين ورفقتهم المقدمين الآخرين. فأقاموا ألفين مقاتل حتى يمسكوا الدرب عند الفيدار، وألفين آخرين عند المدفون، ونزلوا المقدمين مع ثلاثين ألف فوجدوا حميدان قائد عسكر المسلمين في الطريق منفرداً فقتلوه ثم هجموا على العسكر فقتلوهم عن آخرهم، لأن الذين هربوا وقعوا في يد

الذين كانوا مكمنين (كامنين على) الطريق، وكانت (قد) جاءت المسلمين نجدة من الأكراد فالتقوهم الذين كانوا في الفيدار وقتلوهم ولم يخلص منهم أحد، وقتل في هذه الوقعة بنيامين مقدم حردين فدفنوه عند باب الأركان، وحزن لأجله العسكر حزناً عظيم، ولم يدقّوا طبول ولا يزعقوا بالبوقات ولا يرفعوا سنجق لفقده، ثم إنهم غنموا غنايم عظيمة وأخذوا سلاحات القتلى وأمتعتهم، وأربعة آلاف فرس، وعاودوا ليلاً إلى البترون، ومن هناك صعدوا إلى معاد ليقتسموا المغانم على عدد المقدمين. . . .

. . . وفي هذه الأيام صار أن نقولا مقدم بشري وجد في عقبة يحرونا (حيرونا) قوم. . . المسلمين ينهبون ويخضخضون الضياع الذين على نهر رشعين، فنزل إليهم وحده وقتل منهم عشرين نفس. . .

وجمع المقدم نقولا ليلاً أربعين خيال وتوجّه إلى جبة بشراي. فلما شاع خبره (أنه قاصد بشراى) انهزم الأراطقة من طريقه وأدب الغير الطايعين وهابته المسلمين، وأهل جبل لبنان تطمّنوا. . .»[٢٣٥]،

وحول حملات كسروان يقول الدويهي في مكان آخر:

«وفيها (١٣٠٢) اجتمعت النواب جمال الدين آقوش الأفرم نايب دمشق، وسيف الدين اسندمر نايب طرابلس، وشمس الدين سنقر المنصوري، وجمعوا جيش الشام إلى مقاتلة الجرديين وأهل كسروان. فاجتمعوا مقدمين الجبال وتوابعهم وأحاطوا بهم من كل جهة فهزموهم وقتلوا منهم نفراً كثير وغنموا بأمتعتهم»[٢٣٦].

ويخبر الدويهي أيضاً:

«سنة سبعة وسبعماية (أي سنة ١٣٠٧ م) يقول ابن الحريري وابن سباط (ص ٥٠ لسنة ٧١٠) أن نازل نايب دمشق جمال الدين الأفرم بعساكره جبل الجرد وكسروان وفرقهم وقتلهم وأذلهم ونهب أموالهم، وحرق قرايا كثيرة من كسروان والجرد وشتت شملهم، وكانوا قد فتكوا بالجيش قبل ذلك، وأفتى العلماء بنهبهم، لأنهم جهلة وقد فعلوا كل قبيح. . .»[٢٣٧].

ب ـ مناقشة النصوص

١ = الحملات على الموارنة:

يبدو من خلال النصوص، المذكورة أعلاه، أن الموارنة تعرّضوا، من قبل المماليك، لحمْلتين:

الحملة الأولى: كانت في عام ١٢٦٨ م، عندما قامت قوات السلطان الملك الظاهر بيبرس، إبان حملتها الثانية على طرابلس، بالاستفادة من حصار طرابلس للهجوم على قرية الحدث في جبة بشراي[٢٣٨].

الحملة الثانية التي أصابت الموارنة، من قبل المماليك، جرت في عام ١٢٨٣ م. وقد عرضنا، أعلاه نصوص الدويهي التي تشرح ملابساتها[٢٣٩].

ويحلّل الدكتور الصليبي هذه الأحداث فيربطها بالانشقاق الذي عرفه الموارنة، في عام ١٢٨٢، بعد وفاة البطريرك دانيال الحدشيتي، إذ قام الموارنة الرافضون الاتحاد مع رومة والطاعة للفرنجة بانتخاب المدعو لوقا البنهراني من بنهران في جبة بشراي بطريركا وأصبح مركزه قرية الحدث. بينما انتخب الموالون لرومة ارميا الدملصاوي بطريركا.

وأغار جماعة من التركمان على جبة بشرّي، في عام ١٢٨٣، فخرّبوا الحدث وقبضوا على البطريرك البنهراني فانتهى أمره[٢٤٠]. وجاء هذا التحرك عندما قرّر الملك المنصور قلاوون (١٢٧٩ ـ ١٢٩٠ م) القضاء على قومسيّة طرابلس الصليبية لذلك باشر في غزو المناطق الجبلية واحتلال قلاعها وحصونها. فأوعز إلى بعض عشائر التركمان في الشام بالإغارة على الحدث، والقضاء على البطريرك الماروني المتحصن فيها[٢٤١]. وقد وصف محيي الدين بن عبد الظاهر، واضع سيرة السلطان قلاوون، هذه الغارة التي ذكرنا نصّها، في معرض كلامنا عن الحملة على بلدة الحدث.

هاتان الحملتان وسقوط طرابلس وباقي مدن الساحل بيد المماليك أجبرتا

الموارنة للخلود إلى السكينة من جهة، كما أن المماليك أخضعوهم لمراقبة مشددة.

وكان للماليك شكوك وظنون بحق الموارنة، ويبدو أنها كانت محقة. ففي الواقع كان الصليبيون يضعون التصاميم لاستعادة الأراضي المقدسة، وقد خصصوا للموارنة مركزاً أساسياً لأنهم كانوا يشكلون موطىء قدم يمكنهم الاستفادة منه في أية عودة محتملة للفرنجة[٢٤٢]. وقد شكلت العودة المحتملة للصليبيين المسيحيين إلى المشرق إحدى الثوابت الأساسية التي رافقت الموارنة طيلة تاريخهم.

٢ = الحملات على كسروان:

بالعودة إلى ابن كثير، يمكن الكلام على ثلاث حملات[٢٤٣]:

الحملة الأولى كانت في ٦٩١ هـ/ ١٢٩٢ م. ويبدو من خلال قراءة المثال الصادر عن لاجين حاكم دمشق وبلاد الشام باسم السلطان قلاوون في عام ٦٨٦ هـ/ ١٢٨٧ م، والمرسل إلى الأميرين البحتريين جمال الدين وزين الدين بن علي، أن الحملة كانت قد تقررت في عام ٦٨٧ هـ/ ١٢٨٨ م. وقد طلب المثال من الأميرين الانضمام إلى الجيش المتجه إلى كسروان والجرد[٢٤٤]. ولكن الحملة لم تقم إلا في عام ١٢٩٢ م. وقد اطّلعنا على نص صالح بن يحيى عن سير هذه الحملة، بخصوص أحداث سنة ٦٩١ هـ/ ١٢٩٢ م، التي استقى معلوماته عنها من النويري الذي تتوافق معلوماته مع رواية ابن كثير[٢٤٥].

ويبدو أن هذه الحملة كانت موجهة ضد الموارنة تماماً كما كانت موجهة ضد «غلاة» الشيعة. ويضعها ابن القلاعي في إطار كلامه على انتصار ملحمي للمقدمين الموارنة على المسلمين. ويحصر ابن القلاعي الحملة بالموارنة فقط. وقد استنتج كمال الصليبي من خلال نقده لنص ابن القلاعي بأن الحملة في ١٢٩٢ م لم تكن محصورة بكسروان فقط وبأنها تجاوزت ذلك إلى بلاد جبيل[٢٤٦].

وقد يصحّ الاجتهاد في ذلك لأن بلاد جبيل والبترون كانت الوحيدة التي لم تتعرض للفتح المملوكي والتي لم تخضع لحملتي ١٢٦٨ و١٢٨٣ ضد بلاد الجبّة والزاوية. وقد حاول البطريرك الدويهي، في روايته للأحداث، التوفيق بين الروايات الإسلامية من جهة والمارونية من جهة أخرى[٢٤٧].

ولكن الدويهي يخطىء في تحديد تاريخ الحملة فيجعله في عام ١٣٠٢ م. ولعل خطأ الدويهي عائد إلى استناده إلى رواية ابن الحريري. إضافة إلى ذلك، فهو يعطي لحملة ١٢٩٢م زعماء حملة عام ١٣٠٠ م، وأخيراً، فهو يخطىء مرّة ثالثة في هوية أبناء الأمير البحتري حجي الثاني، الذين يدمجهم بأولاد محمد بن كرامه والد حجي الثاني. فولدا حجي الثاني (نجم الدين وشهاب الدين) توفيا خلال الحملة الثالثة في عام ١٣٠٥ م[٢٤٨].

الحملة الثانية جرت في عام ١٣٠٠ م للثأر من الانكسار في عام ١٢٩٢ م. وقد جرت بعد رحيل المغول وانحسار خطرهم. وصالح بن يحيى يؤكد، بعد ابن كثير، على حصول هذه الحملة فيسميها «نوبة»، ويحددها بالنوبة الثانية خلال فترة حكم الملك الناصر محمد بن قلاوون[٢٤٩] ويؤكد الصليبي على أنها كانت موجهة ضد الموارنة بقدر ما كانت موجهة ضد «غلاة» الشيعة[٢٥٠]، وقد قادها جمال الدين آقوش الأفرم بصحبة ابن تيمية. وقد فضل الكسروانيون الإذعان للسلام فأعلنوا الخضوع مرحلياً للمماليك[٢٥١]. وإضافة إلى الكسروانيين، يذكر اليونيني وابن أيبك أن الحملة كانت موجهة ضد الدرزية أيضاً (راجع النص).

الحملة الثالثة والحاسمة كانت في عام ١٣٠٥ م. ويؤكد صالح بن يحيى، كما ابن كثير، على أن مفاوضات بين ابن تيمية وسكان هذه المناطق العاصية كانت قد سبقتها، على أمل إعادتهم إلى حظيرة الإيمان الإسلامي السنّي. ولكن بفشل ابن تيمية في تحقيق مسعاه، أعطي الأمر بإنهاء هذه الثورة الخطرة مهما كلّف الثمن. ولذلك، وفي ٢ محرّم ٧٠٥ هـ/ ٢٥ تموز ١٣٠٥ م، توجّه الجيش إلى كسروان والجرد بقيادة آقوش وبمشاركة ابن تيمية[٢٥٢]. ويخبرنا

صالح بن يحيى، كما رأينا في النص المدرج سابقاً، بأن كل ممالك الشام شاركت في الهجوم، وعلى رأس كل جيش منها نائب السلطنة عليها، وكان من بينهم نائب طرابلس ونائب صفد. وبالنتيجة، وبعدما صعدوا إلى جبال كسروان والجرد من أصعب مسالكها وأطبقوا عليها من كل الجهات، تملّكوها ووطئوا أرضاً كان أهلها لا يظنون أن بمقدور أحد أن يطأها[٢٥٣].

وقد شارك الأمراء البحتريون في المعركة بقيادة زعيمهم الكبير ناصر الدين الحسين. وقتل لهم فيها أميران في معركة قرية نابية و٢٣ نسمة من سكان إمارتهم، أي إمارة الغرب[٢٥٤].

معركة عام ١٣٠٥ م أصابت أيضاً الموارنة بقدر إصابتها للشيعة. فالمصدر الماروني المعاصر لهذه الأحداث، أي المطران تادرس الماروني، يروى بأنه لم ينج من التدمير أي دير أو كنيسة أو حصن ما عدا كنيسة مار شليطا. ويخبر تادرس، أيضاً، بأن زعماء الثوار كانوا من عائلة بللمع، العائلة الدرزية الشهيرة[٢٥٥]. ولم ينج من هذه المجزرة سوى سكان جونية الذين لاذوا بالفرار في مراكبهم. ثم عاد الموارنة بعد وقت قليل، قدّر بعشرات السنوات، للسكن في كسروان برغم وجود التركمان المكلفين مراقبة وحماية المنطقة من قبل المماليك[٢٥٦].

وفي رأي الصليبي، لقد وردت هذه القصة عند ابن القلاعي في تضاعيف روايته الغامضة عن بدعة راهبي يانوح ودير نبوح. فلعل ابن القلاعي قد قرأ تاريخ تادرس[٢٥٧].

المصدر الماروني الأخير، أي الدويهي، يضع المعركة الفاصلة في عام ١٣٠٧ م. وهو يستوحي رواية ابن أسباط الذي يضعها في عام ١٣٠٥ م. ويظهر أن الدويهي يحاول وضع رواية وسطى بين الروايات المختلفة. ولكن الشيء الجديد الذي يقدّمه لنا هو بجعله المعركة الفاصلة في عين صوفر[٢٥٨].

٣ = هوية الطوائف المهاجَمة:

المهم في هذا البحث في الحملات المملوكية التأديبية على جبال لبنان الحالي هو معرفة هوية الطوائف التي تعرضت للهجوم.

الحملاتَ الأولى على الجبّة كانت موجهة ضد الموارنة. ولكن المشكلة تكمن في تحديد هوية سكان كسروان (كسروان الحالي والمتن).

المنطق التاريخي يفترض وجود موارنة في كسروان ومسيحيين آخرين. وقد أصاب المماليك عصفورين بحجر واحد في هجومهم على كسروان: فمن جهة اقتصّوا من المسيحيين ومن جهة أخرى من الشيعة، خاصة «المتطرفين». والاثنان متّهمان بالتآمر مع الصليبيين ثم مع المغول، كما يسمح لهم هجومهم على كسروان بتنظيف بعض الجيوب المسيحية، المارونية خاصة، في جوار كسروان لجهة بلاد جبيل، وبعض الجيوب «الرافضة» لجهة بلاد الشوف.

وبهذا الخصوص يؤكد ابن تيمية على أن الحملات كانت موجهة ضدّ «الجبل، الجرد وكسروان»[٢٥٩]. ولعل ابن تيمية كان يرمز إلى أن لفظة الجبل تعني الأجزاء الشمالية المجاورة لكسروان المأهولة بالموارنة.

الدروز أيضاً كانوا هدفاً للحملة. فابن كثير يسميهم «التيامنة» نسبة إلى وادي التيم[٢٦٠] كما ان أبا الفداء واليونيني وابن أيبك والقلقشندي وابن أسباط يؤكدون صحة هذا الزعم[٢٦١]. كما أن مشاركة فئة من زعماء الدروز الممثلة بآل بللمع في قيادة الثورة ليست خافية على الباحث. ولا تفهم مشاركة الأمراء البحتريين التنوخيين، في المعارك، إلى جانب المماليك، وضدّ أخوانهم، آل بللمع بالذات، إلا من باب السياسة الدرزية التقليدية القائمة على ازدواجية المواقف وانقسام القيادة في ثنائية «المع والضد» في آن معاً لتخليص ما يمكن تخليصه من أبناء طائفة الموحدين.

وإذا ذهبنا في العمق، لوجدنا أن المشكلة هي في تحديد هوية الشيعة الذين تصدّوا للحملات. فهل هم من الشيعة الاثني عشرية؟ أم من النصيرية أو «الرافضة» الإسماعيلية أو الجميع معاً؟

هناك في الواقع عدة آراء واجتهادات حول هذا الموضوع[٢٦٢]. أما في رأينا الشخصي، فبالعودة إلى النصوص القديمة والأساسية، يمكن الوصول إلى تحديد هوية الشيعة الذين طالتهم الحملات.

فبالعودة إلى فتاوى ابن تيمية، هذه الحملات توجهت ضدّ «الرافضة» أي النصيرية والإسماعيلية والقرامطة وكافة أنواع الباطنية حسبما يفسّر هو، شخصياً، مفهوم الرافضة. وفي عرف ابن تيمية، يمكن توسيع مفهوم الرافضة وتطبيقه على كلّ الذين يرفضون الجهاد ضد الكفّار، وإجبار أهل الكتاب على دفع الجزية، وذلك يشمل حتى الشيعة الإمامية الاثني عشرية. فحتى هؤلاء، هم في إحدى فتاوى ابن تيمية، من «الرافضة»: لأن علماء الإسلام يجمعون على ضرورة محاربة أية طائفة تمتنع عن تطبيق إحدى الشعائر الظاهرة للإسلام، حتى تبقى الديانة بأكملها لله[٢٦٣].

وبالنسبة لصالح بن يحيى، الطوائف موضوع الحملات هي الباطنية[٢٦٤]. والباطنية عادة هي الشيع التي تميّز في الدين بين الظاهر والباطن وتؤوّل الآيات القرآنية، كما سنرى في بحثنا في هذه الطوائف، ومنها الإسماعيلية والدرزية والنصيرية.

وبالنسبة لابن الوردي، فهذه الطوائف هي من الظنيين والنصيرية[٢٦٥]. فإذا أخذنا بعين الاعتبار أن النصيرية هم حسب رواية ابن الوردي غير الظنيين يبقى لنا أن نجتهد في أن الظنيين هم الإسماعيلية والدروز، أي: الباطنيون الآخرون.

وبالنسبة للمقريزي هم من الدروز. ويردّ الصليبي على ذلك بأنه خطأ واضح يعود إلى قلة معرفة المؤرخين المصريين (ولو كان بعلبكي الأصل) في ذلك الوقت بشؤون الشام الداخلية. هذا مع العلم أن بعض الدروز كانوا مقيمين آنذاك في قرى من «الخارجة» (أي كسروان)[٢٦٦].

وبالنسبة لنصوص كلّ من اليونيني والنويري وابن أيبك وابن الفرات وابن قاضي شهبة والعيني والجزري توجهت الحملات إلى كسروان، وإضافة إلى كسروان إلى الجرديين أيضاً عند اليونيني والنويري والعيني والجزري. ولكن

اليونيني يضيف أنها قد توجهت إلى كسروان والدرزية وكذلك ابن أيبك. ويصنّفهم النويري بالباطنية والذهبي بالرافضة والعيني بأعظم غلاةالرافضة والزنادقة.

٤ = أسباب الحملات:

الحملات الأولى ضد الموارنة في عامي ١٢٦٨ م و١٢٨٩ م، كانت لها أسباب عسكرية. فالمماليك كانوا يرغبون في قطع الطريق على أية مساعدة مارونية للفرنج في طرابلس لأن ذلك سيؤدي حتماً إلى إطالة عمر الحصار للمدينة وبالتالي عدم سقوطها بسرعة بأيديهم. فالمماليك كانوا على بيّنة من القيمة الستراتيجية للموارنة في الجبال المحيطة بطرابلس. حتى إذا ما انكسر الموارنة سهل على الدولة الإسلامية الناشئة القضاء على آخر معاقلهم المشتّتة في الجبال الحصينة.

المماليك، كانوا مقتنعين بأن من أسباب انهيار قوة المسلمين أمام الصليبيين، انقسام الأمة الإسلامية إلى ملل ونحل. . . وكان أكثر المقتنعين بذلك العالم الشيخ أحمد بن تيمية، الذي كان يقرع دائماً ناقوس خطر احتمال عودة المسيحيين إلى احتلال الأراضي المقدسة، طالما بقيت الأمة الإسلامية مشتّتة ومنقسمة على ذاتها. وللتأكيد، على رغبته، في دفع لحمة الأمة الإسلامية إلى الامام، شارك هو شخصياً في محاولات الإقناع أولاً ثم في حرب الإبادة ثانياً. ولكن برغم هذه القناعة. وبرغم شعبية آراء ابن تيمية، ينبغي التنبّه، كما يقول المستشرق هنري لاوست، إلى أن «ابن تيمية هو قبل أي شيء آخر، منظّر، لم تكن أفكاره دائماً، برغم شعبيتها، مصدر وحي لتصرفات الدولة المملوكية»(٢٦٧).

أما حملة عام ١٢٩٢ م، فكان الدافع إليها الرغبة بالإقتصاص من أهل كسروان لمساندتهم للفرنجة. وكان السلطان قلاوون، قد عزم على إنهاء هذا الجيب الخطر منذ عام ١٢٨٦ م، ولكن الظروف: تكملة الحرب ضد الفرنج وصعوبة اجتياز الجبال، حالت دون تنفيذ هذا المشروع العسكري الضخم(٢٦٨).

أسباب حملة عام ١٣٠٠ م كانت مماثلة للسابقة. زيادة على ذلك، كانت السلطات المملوكية غاضبة من تصرّف أهل الجرد وكسروان لأنهم نهبوا وباعوا المسلمين الهاربين من وجه المغول للصليبيين (الكفّار). وقد أشار أيضاً صالح بن يحيى إلى هذا العامل نفسه، جاعلاً منه السبب الأساسي للحملة الحاسمة في عام ١٣٠٥ م بعد إخفاق ابن تيمية بإرجاع الثوار إلى جادة الصواب. وفي عرض صالح بن يحيى لهذه الأسباب، يحاول، من جهة إبعاد أي ظن أو شبهة عن عائلته، مدّعياً أن أحد زعمائها ناهض الدين بحتر، كان يضيف الهاربين من وجه جيش قلاوون بن قازان زعيم التتار، ويقدّم لهم كلّ أنواع المساعدة، منحيا باللائمة على أهل كسروان وأهل جزين وغيرهم من الفاسدين، خاصة الكسروانيين(٢٦٩) لأن فيهم غلاة الشيعة، بينما أهالي جزين آنذاك كانوا من الإمامية الاثني عشرية.

إذاً، أسباب حملتي ١٣٠٠ م و١٣٠٥ م كانت متشابهة. أبعد من ذلك، يوضّح لنا صالح بن يحيى، أن من بين الأسباب أيضاً: تخوّف المماليك من ازدياد عدد الشيعة في تلك الجيوب الثائرة وتجاوزهم الحدّ المعقول وازدياد سلطتهم. وهذا ما كان وراء هجومهم على الجيش المملوكي المكسور، وأدت استفادتهم من غزو جيش المماليك المهزوم إلى تقلّص مراقبة المماليك لهم من جهة، وإلى استفحال تعدياتهم على المسلمين من جهة أخرى. فازدادت وقاحتهم ورفضوا الإنصياع للسلطان محتمين بجبالهم المنيعة وخلف اعدادهم الغفيرة التي يصعب الوصول إليها وتجاوزها(٢٧٠).

لذلك، كان لا بدّ من الحسم العسكري، باسم منطق الدولة، للقضاء على هذه البؤرة، من الثائرين، الضارين، غير الخاضعين لأحد، والخطرين بشكل مزدوج: فهم من جهة متعاملون مع «الكفّار»: من فرنجة ومغول، أعداء الأمة الإسلامية، ومن جهة أخرى فإن احتماءهم في جبالهم الحصينة يسمح لهم بالانتقال السريع إلى محاربة المسلمين حالما يعود الفرنجة مجدداً إلى شواطىء بلاد الشام.

ويجمع اليونيني والنويري وابن أيبك والمؤرخ المجهول والذهبي وابن قاضي شهبة والعيني على أن أهل الجرد وكسروان آذوا عسكر المسلمين أثناء هربه من أمام عسكر قازان، إضافة إلى أسباب أخرى تنظر في النصوص.

٥ =ً نتائج الحملات:

النتيجة الأولى كانت تدمير البلاد وقطع الأشجار وهدم المنازل، وهو أكبر قصاص يمكن أن يلحق بالمزارع الفلاّح. وكان ابن تيمية يعتقد بأن هذا القصاص التخريبي لا يتناقض مع مبادىء القرآن: فالعلماء يجمعون على ضرورة قطع الأشجار وهدم الأماكن المأهولة عندما يحين القصاص.

ولما كانت الجبال مغطاة بالغابات، ولأسباب استراتيجية، قرّر قطع أشجارها حسب فتوى ابن تيمية، لكشفها ولتتمكن من ملاحقة الهاربين ولمنع الغابات من التحول مجدداً معقلاً لثوار جدد[٢٧١]. وكان الدمار كاملاً بحيث تحوّلت البلاد مراعي خصبة لقطعان التركمان الذين كلّفوا السكن فيها والسهر على مراقبتها وحراستها.

النتيجة الثانية كانت على الصعيد البشري. طبعاً، صالح بن يحيى، كان المصدر الوحيد الذي عني بتلمّس نتائج الحملات، بينما المصادر الإسلامية اكتفت عامة بالإشارة إلى حدوث الحملة فقط. ولذلك فإن صالح يخبر، كما رأينا، في النص المدرج في مطلع هذه الموضوع بأن المهاجمين لم يكتفوا بالتدمير للحجر والشجر بل عملوا على تصفية العديد من السكان وتشريد الآخرين في البلاد. وقد عمل نائب طرابلس على تشغيل بعضهم في الوظائف المدنية. ولاستمالة بعضهم، أعطي اقطاعات في حلقة طرابلس واختفى الباقون في البلاد وإمّحى ذكرهم. ثم أخضعت الجبال لمراقبة مشدّدة من قبل قراقوش الشهير بحكمه القاسي الذي أصبح مضرب مثل. فعمد الأخير إلى إجلاء من تبقّى من الأهالي وقتل بعضهم، خاصة أعيانهم، ثم أعطى الأمان، للبعض، ولمن مكث خارج كسروان ولجأ إلى جزين وبلادها وبلاد بعلبك[٢٧٢].

النتيجة الثالثة كانت تحويل كسروان إلى إقطاع أعطي بادىء الأمر لعلاء الدين بن معتب البعلبكي وعز الدين خطّاب وسيف الدين بكتمر الحسامي وابن صبح. ولكن الدولة المملوكية عادت في عام ١٣٠٦ م إلى إلغاء اقطاع هؤلاء وتحويله على عشائر التركمان مشترطة عليهم تقديم خدمة عسكرية من ٣٠٠ خيّال لتأمين الدرك لمرفأ بيروت وللطرق المؤدية إليه حتى عمل طرابلس[٢٧٣]. لذلك أمّن التركمان أعمال الحراسة «البوليسية» من انطلياس إلى مغارة الأسد عند حدود معاملة طرابلس. وكان عليهم منع أي كان من اجتياز دربند نهر الكلب إذا لم يكن مصحوباً بإجازة مرور صادرة عن متولي ولاية بيروت أو من الأمراء البحتريين حكّام منطقة الغرب. وقد انقسم التركمان إلى ثلاثة أبدال من مئة فارس كان على كل بدل منه تأمين الحراسة خلال شهر من الزمن[٢٧٤].

وهكذا تكون حملات كسروان قد أدخلت الاقطاع إلى الجبل كما ساهمت في انتشاره في طرابلس، أيضاً، وأدت إلى تبديل في جغرافية تواجد الطوائف الدينية في الجبل طيلة العهد المملوكي على الشكل الآتي:

- فلقد انكفأ الموارنة على ذاتهم في القسم الشمالي الشرقي من الجبل اللبناني الواقع ضمن نيابة طرابلس في جبة بشراي والزاوية وفي سفوح وأعالي البترون وجبيل. فصائل صغيرة منهم جاءت لتسكن كسروان بعد مدّة حسب رواية الأسقف تادرس الماروني. وقد لاحظ الرحّالة «بولونير» وجود الموارنة في مدينة طرابلس بالذات في عام ١٤٢٢ م[٢٧٥]. كما أن قسماً منهم هرب إلى قبرص ليشكل بعد اليونانيين الطائفة الأكثر عدداً. وقد لاحظ الرحّالة أيضاً وجوداً مارونياً في أورشليم[٢٧٦].

- الدروز، برغم الخسارة التي لحقت بهم في الجرد، بقوا محافظين على مواقعهم بفضل سياسة أمرائهم البحتريين ـ التنوخيين.

- أما الشيعة، فلقد توجهت الحملات الكسروانية أساساً ضدهم، وقد قضي على وجودهم نهائياً في جبال كسروان. ولكن ما ينبغي التوقف عنده، هو

أن الحملات لم تتخذ الموقف نفسه من كل شيع الشيعة. لذلك كان للدولة المملوكية ثلاثة مواقف مختلفة منهم:

أ ـ العديد منهم قضي عليه أو اختفى في جهات غير محدّدة.

ب ـ قسمٌ من الناجين أسكن في طرابلس. وهؤلاء كانوا حسب رأي هنري لاوست من النصيرية.

ج ـ وقسم لجأ إلى جزين والبقاع وبعلبك.

ولما كان سكان هذه المناطق من الشيعة الإمامية الاثني عشرية منذ ذلك التاريخ وحتى يومنا هذا، يمكننا الإستنتاج بأن من لجأ إلى هذه المناطق هم من كانوا على هذا المذهب أو من غلاة الشيعة الذين فضّلوا تغيير مذهبم والانتقال إلى التشيّع العادي الذي يجدون فيه جذورهم من أن يجبروا على اعتناق السنّة لحماية حياتهم.

ويمكننا الاجتهاد في القول مما آلت إليه النتائج على صعيد الشيعة، أن الحملات كانت موجهة أساساً ضد غلاة الشيعة وبدرجات متفاوتة يأتي في طليعتها الإسماعيلية والرافضة ثم النصيرية، ودرجة أخيرة الاثني عشرية.

ولكن لما كانت غالبية الشيعة على اختلاف مللها ونحلها متهمة بالتعامل مع الصليبيين أعداء الأمة الإسلامية، لذلك اضطروا جميعاً لحمل السلاح في وجه مصير واحد ينتظرهم وللدفاع عن المجموعة الشيعية التي تشعر بقربى إلى بعضها البعض منها إلى الإسلام السنّي. وبرغم أن ابن تيمية كان قد اتّهم شيعة جزين وجبل عامل كما الكسروانيين بالتنكر للقضية الإسلامية لمصلحة الكفّار أعدائها من الفرنج والتتار(٢٧٧)، فلم توجّه الحملات، بالدرجة الأولى، سهامها إلا إلى كسروان. مما يؤكد أن الإسلام السنّي كانت له مواقف متدرجة تجاه الجماعات الشيعية المختلفة.

وبعد الحملات بقيت للشيعة جزر صغيرة في بيروت والشوف، وبجوار بلاد الموارنة في المنيطره وبشناتا(٢٧٨).

ومع الزمن، تحوّل قسم من الشيعة إلى السنّة بسبب ممارستهم للتقية على المذهب الشافعي. وهذه كانت حال شيعة البقاع الأوسط ووادي التيم وإقليم الخرّوب والضنية وعكار(٢٧٩).

وبالنهاية، فلقد أدت هذه الحملات على المناطق الجبلية إلى إجبار الطوائف الثلاث المارونية والدرزية والشيعية على الخضوع لإحدى التقسيمات الإدارية المملوكية الأساسية: طرابلس ودمشق وصفد. وكان نصيب الموارنة وغلاة الشيعة الخضوع لحكم نائب طرابلس، تلك النيابة أو التقسيم الإداري الجديد الذي نشأ ليحتضن الطوائف المشاغبة الثلاث: الموارنة والنصيرية والإسماعيلية.

ولكن هل أدى طرد الصليبيين من جهة، والقضاء على المتعاملين معهم بعد حملات كسروان من جهة ثانية إلى إنهاء الصراع المملوكي الصليبي، طبعاً لا، كما تبرهن ذلك المعلومات اللاحقة، التي توضح كيف أن هاجس عودة الفرنجة بقي سيفا مسلّطاً فوق رقاب سكان نيابة طرابلس، غالباً ما دفع ثمنه المسيحيون في الشرق.

رابعاً: الصراع بين الفرنجة ونيابة طرابلس

رحل الصليبيون، عن نيابة طرابلس، غصباً عنهم، بالقوة، وكانت أرواد، الجزيرة الواقعة في النيابة المذكورة، آخر موقع فرنجي يسقط بيد المماليك. لذلك، أجبروا على الرحيل، بقوة السيف، فبقيت عيونهم شاخصة على شواطىء المتوسط الشرقي، يسعون للإنتقام وللإستفادة المادية، ويهيئون لعودة محتملة لهذه الشواطىء، لهذا كثرت غزواتهم للساحل المملوكي، وكان لنيابة طرابلس نصيب لا يستهان به من هذه الغزوات، نظراً لقربها من جزيرة قبرص.

جزر المتوسط، وعلى رأسها قبرص ورودوس وغيرهما، كانت نقطة انطلاق الغزوات الفرنجية ضدّ الموانىء المملوكية، بعد أن هرب إليها الصليبيون وجعلوها مراكز حصينة ونقطة انطلاق لعملياتهم في المتوسط.

أ ـ على عهد المماليك البحريين

بدأ الفرنج يركّزون عدوانهم على طرابلس منذ عام ٧١١ هـ/ ١٣١١ م عندما عرضوا على المدينة بيع ستين نفر من رسل السلطان، كانوا قد ألقوا القبض عليهم واشتطّوا في طلب الثمن فطلبوا ستين ألف دينار، ولما لم يستجب طلبهم رحلوا بهم، فاضطر السلطان إلقاء القبض على تجارهم بالإسكندرية للمقايضة[٢٨٠].

في سنة ٧٣٥ هـ/ ١٢٣٥ م، كانت أول عملية للفرنج ضد شاطىء طرابلس، ولكنها لم تحصل بسبب دفع الريح للمركب الغازي بعيداً عن الشواطىء[٢٨١].

ولم يمض وقت طويل حتى قدم مركب آخر، ليغزو الشاطىء، فوقع في أيدي الجيش المملوكي الذي كان في حالة تأهب. وأرسل نائب طرابلس، جمال الدين آقوش (١٣٣٤ ـ ١٣٣٥ م)، صاحب المركب الذي وقع في الأسر،

بعد مقتل بعض رجاله، إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون، فما كان من الفرنجي إلاّ أن أقنع السلطان بأنه تاجر، وقد اتّهم زوراً بالقرصنة، فعفا السلطان عنه برغم إصرار آقوش على التهمة. فأطلق سراح الفرنجي، وأعيد إليه مركبه[٢٨٢].

في عام ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٧ م، حالت الريح العظيمة دون وصول مراكب الفرنج إلى سواحل المسلمين[٢٨٣]، ومن بينها، طرابلس، طبعاً.

في عام ٧٥٦ هـ/ ١٣٥٥ م، بدأ القبارصة الفرنج بهجوماتهم على شواطىء طرابلس، حيث أخذوا أسرى، لم يطلقوهم إلا بعد مبادلتهم بكمية من المال والبضاعة[٢٨٤]. وفي السنة التالية جددوا الهجوم وأفسدوا وعادوا[٢٨٥].

وبعد عام عاودوا الكرة على السواحل، وكان من بينها طرابلس[٢٨٦].

وفي عام ٧٥٩ هـ/ ١٣٥٨ م، عاثت الفرنج بأطراف الساحل[٢٨٧]، ولا نعرف ما إذا كانت طرابلس مقصودة بذلك.

في عام ٧٦٣ هـ/ ١٣٦١ م، تعرّض الفرنج للسواحل، فردّ المماليك على ذلك بمصادرة حواصلهم بدمشق وسجن بعض منهم فيها[٢٨٨]، ولا ندري ما إذا كانت طرابلس مقصودة أيضاً بهذه الغزوة.

وأهم الغارات الفرنجية هي تلك التي جرت في ٢٢ محرم عام ٧٦٧ هـ/ ١٣٦٥ م، وكانت الأجواء المملوكية ـ الفرنجية تهيّء لها بمناوشات بين الفريقين بسبب الصراع بين سفن القوتين في البحر. وقد نتج عن هذا الصراع قيام سفن الفرنج بمهاجمة ساحل مصر في أبي قير في ٧٦٤ هـ/ ١٣٦٣ م ومبادرة أحد البحارة المسلمين للإغارة على الشواطىء القبرصية في سنة ٧٦٥ هـ/ ١٣٦٣م[٢٨٩].

انفجر الصراع في عام ٧٦٧ هـ/ ١٣٦٥ م وهاجم ملك قبرص، بطرس دي لوزنيان الفرنجي مدينة الإسكندرية، على حين غرّة، فعاث جيشه في المدينة حرقاً وتدميراً ونهباً وأسراً خلال خمسة أيام، إلى حين وصول الجيش المصري لطرد

الغزاة، فأقلع المهاجمون ومعهم أربعة آلاف أسير وكمية كبيرة من غنائم الذهب والحرير والبهار. وكان الرد على هذه الغزوة الدموية التخريبية، وهي الأعنف في تاريخ الغزو الفرنجي للمماليك، سجن الفرنج الموجودين في دمشق، وإصدار قرار بمسك النصارى من الشام جملة واحدة، وأن تؤخذ ربع أموالهم لعمارة ما خرب من الأسكندرية، ولعمارة مراكب تغزو الفرنج. ولقد أهين النصارى، وطلبوا من بيوتهم بعنف، لفرط ما لحق بهم من اضطهاد، وخافوا أن يقتلوا، ولم يفهموا ما يراد بهم، فهربوا كل مهرب. ويعلّق ابن كثير على لا شرعية هذه الاجراءات قائلاً: «ولم تكن هذه الحركة شرعية، ولا يجوز اعتمادها شرعاً». ولذلك طلب من نائب السلطنة إلغاء الإجراءات، فردّ عليه النائب بأن بعض الفقهاء أفتى بذلك، فقال له ابن كثير: «هذا مما لا يسوغ شرعاً، ولا يجوز لأحد أن يفتي بهذا، ومتى كانوا (النصارى) باقين على الذمة ويؤدون إلينا الجزية ملتزمين بالذلة والصغار، وأحكام الملة قائمة، لا يجوز لأحد أن يؤخذ منهم الدرهم الواحد ـ الفرد ـ فوق ما يبذلونه من الجزية، ومثل هذا لا يخفى على الأمير». واقترح ابن كثير على النائب الاقتصاص من أهل قبرص، لا من نصارى بلاد الشام. وذهبت مداخلة ابن كثير إدراج الرياح، إذ أن السلطة المصرية أصرّت على رأيها في الانتقام من النصارى، مع أخذها باقتراح ابن كثير، الاقتصاص من قبرص والتهيئة له بعمل السفن لغزو الفرنج[٢٩٠].

ولكي تبرر احدى الدراسات الاضطهاد «اللاشرعي» الذي قام به المماليك، تتهم النصارى بأنهم انضموا إلى الفرنج وعملوا لهم أدلاّء في الهجوم على الإسكندرية، وتحكم على النصارى حكماً مبرماً، عندما تذكر أنهم «في الحقيقة» سبق أن تآمر بعض من يتولى منهم مناصب عالية، على الدولة، بتدبيرهم مؤامرة لإحراق دمشق في عام ٧٤٠ هـ/ ١٣٤٠ م، وهي تمرّ بخجل على مداخلة ابن كثير ضد إجراءات المماليك بحق النصارى[٢٩١].

فالمؤامرة المذكورة جرت في عام ١٣٤٠ م وغزو الإسكندرية تمّ في عام ١٣٦٣ م بعد خمس وعشرين سنة. فكيف يربط هذا بذلك، . . . وتحميل

النصارى وزر «المؤامرة الخطيرة بعد ٢٥ سنة، وتأكيد اشتراكهم مع القبارصة في أعمال النهب والتخريب، من دون التنبّه إلى أن هذه الرواية، قد تكون دسا، تقليدياً، من قبل السلطة، لتبرير فعل معيّن، برشق المعتدي عليه، بأي تهمة كانت.

علماً أن كل ذلك، لم يبرره ابن كثير في زمانه، فكيف تبرره دراسات اليوم.

بنتيجة هذه الإجراءات التعسفية، ألقي القبض على النصارى، ومن بينهم، حكماً، نصارى نيابة طرابلس، وأجبروا على دفع أموالهم لفك أسر المسلمين الموجودين عند الفرنج، وفي دمشق وحدها جمع، على ما يذكر ابن كثير[٢٩٢] أربعمائة رجل الزموا دفع الربع من أموالهم، وأحضر الولاة من في معاملتهم لتطبيق هذا الإجراء وجرّد العسكر إلى القرى والنواحي لاستخلاص الأموال. وألقي القبض على الفرنج الموجودين في الدولة المملوكية[٢٩٣].

طال، هذا الاضطهاد، الموارنة، كما سائر الطوائف المسيحية، واستمرّ سنتين من ١٣٦٥ إلى ١٣٦٧ م، ولربما أكثر، بدليل القبض على البطريرك الماروني جبرائيل من حجولا (١٣٥٧ ـ ١٣٦٧ م)، واعدامه حرقاً خارج جامع طيلان، في ضاحية طرابلس[٢٩٤].

وكان يعقوب، أسقف إهدن الماروني، من جملة من سجن في دمشق من رؤساء الكنائس المسيحية، ولكنه تمكّن من الفرار[٢٩٥].

في العام نفسه في ١١ ربيع الأول، جاء الفرنج للاتجار في الإسكندرية، وإذ اكتشف المماليك، أن من بين السفن واحدة لملك قبرص، الذي غزا الإسكندرية كما عرفنا، حاولوا مصادرة المركب، فوقعت معركة بين الطرفين، ابتعد الفرنج على أثرها عن شاطىء الإسكندرية، وعرّجوا في طريقهم على طرابلس للانتقام، فأخذوا مركباً من المينا وأحرقوه وأسروا ثلاثة من المسلمين[٢٩٦].

بعد سنة على ما جرى، في الإسكندرية، عاد الفرنجة في عام ٧٦٨ هـ/ ١٣٦٦ م بقيادة ملك قبرص، بطرس المذكور أعلاه، إلى غزو شواطىء المماليك، فوصلت خمس عشرة سفينة من أصل الأسطول الفرنجي إلى طرابلس، فأعملت النهب في المدينة، ووقع ابن أخ ملك الجنوية، المشارك في الهجوم في قبضة المماليك[٢٩٧].

في أيلول ١٣٦٧ م، جدّد الفرنج، بقيادة ملك قبرص ومؤازرة العديد من جنود الممالك الفرنجية وعلى رأسهم متملك رودس الهجوم على طرابلس ومعهم مائة شيني و(١٥) ألف محارب فوجدوا المدينة خالية من نائبها وعسكرها، فتصدى لهم سكان المدينة ومعهم التركمان، حرس الأذواق. وتمكن الغزاة من دخول المدينة ونهبها، وحاولوا تخليص الأمير الفرنجي الذي أسر في العام الفائت، فقتله المسلمون. وبعد مقاومة شرسة من السكان وما تيسر من جند رحل الفرنج ووراءهم عشرات القتلى من الطرفين؛ وقتل من الفرنج نحو ٨٠٠ نفس وقيل ٤٠٠ وقيل أقلّ من ذلك، واختلف نتيجة لذلك صاحب قبرص والجنويين. وفي رواية المقريزي وابن تغرى بردى كان عدد المراكب ١٣٠ وقتلى المسلمين ٤٠ وقتلى الفرنج ألفاً[٢٩٨]. ومن طرابلس، انسحب الفرنج إلى جبله، فأبعدتهم العاصفة عنها، فساروا إلى اللاذقية، فوقع مركب لهم في الأسر في مينائها وقتل كل من فيه، ولكنهم نجحوا في بانياس. غير أن مهاجمة التركمان لهم قضت على العشرات منهم[٢٩٩].

وتتهم إحدى الدراسات نصارى جبل لبنان بالتآمر مع المهاجمين، باعلامهم بالوقت المناسب، للهجوم على طرابلس، لعلمهم بمواعيد خروج النائب وعسكره من المدينة، وتسلط تهمة الخيانة على البطريرك الماروني جبرائيل من حجولا. وهي في باب شرح حيثيات الاتهام، تذكر بأن أهل الذمة الذين بالسواحل، كانوا يكاتبون الملك القبرصي، وبأنه عندما قام المماليك بحملة اعتقال الأساقفة لم يفلت منهم سوى المطران يعقوب، أما البطريرك جبرائيل فلجأ إلى قرية حجولا ثم استسلم، إلخ...[٣٠٠].

ولقد غرب عن هذه الدراسة أن الموارنة لم يكونوا من نصارى الساحل، وبأن هرب المطران يعقوب تمّ قبل سنتين عند غزو الإسكندرية.

بعد هذا الكرّ والفرّ، في الغزو الفرنجي لشواطىء المماليك، يدفعهم إلى ذلك الحنين إلى تلك البلاد التي أبعدوا بالسيف عنها، وقع فرنجة قبرص والمماليك هدنة في عام ١٣٧٠ م[٣٠١]، أي بعد خمس وثلاثين سنة من التشنج الذي استمرّ من ١٣٣٥ م إلى عام ١٣٧٠، وكانت نتيجته وبالا على حركة التجارة بين شطري المتوسط الشرقي المملوكي والغربي الفرنجي.

استكان القبارصة في جهادهم ضد شواطىء المماليك، فجاء دور الجنويين في أواخر القرن الرابع عشر، يدفعهم إلى ذلك، من جهة، الدافع الصليبي التقليدي، ومن جهة أخرى، بدء تسلّط البندقية على تجارة المتوسط، ذلك التسلط الذي سيتحول في القرن الخامس عشر هيمنة واحتكاراً لهذه التجارة.

ففي عام ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨ م، حاول الجنويون مهاجمة طرابلس فوصلت عشر مراكب لهم إلى الساحل ونزل العسكر إلى البرّ، فقاومهم عسكر طرابلس بقيادة نائبها يلبغا الناصري (١٣٧٨ ـ ١٣٧٩)، وسقط للجنويين العديد من الأسرى[٣٠٢].

بعد تسع سنوات، عاد الجنويون للإغارة مجدداً وخسروا كما في المرة السابقة وغنم منهم المسلمون ثلاثة مراكب[٣٠٣].

وكالعادة، ألقيت تبعة هذه الهجومات على طرابلس، على النصارى، عملاء الفرنج[٣٠٤]!.

وفي عام ٧٩٢ هـ/ ١٣٨٩/ ١٣٩٠ م، حضر إلى طرابلس مقدار سبعين سفينة افرنجية صدتها الريح وأغرقت كبير مراكبها بكلّ ما فيها[٣٠٥]. فكان هذا الهجوم إيذاناً لما سيلحقه من هجومات في عهد المماليك البرجيين.

ب ـ على عهد المماليك البرجيين:

عاد الجنويون للهجوم على طرابلس، في عام ٨٠٤ هـ/ ١٤٠١ م. وكانوا في هجومهم يستغلون حالة الهلع التي أصابت سكان المدن إبّان هجوم تيمورلنك على بلاد الشام. وتمكن الفرنج، بمساعدة بعض التجار الفرنج، الذين كانوا موجودين في الميناء، من الإستيلاء على مركبين من مراكب المسلمين وأسر ٨٥ مسلماً، ثم هاجموا قرية قرب طرابلس فقاتلهم أميرها ووقع منهم أسرى، وفشلوا في متابعة خطتهم بالتعدي على قرى ساحل طرابلس، بعد تصدّي المماليك لهم، وجيء بهم إلى طرابلس فسجنوا وأخذ المسلمون مركبهم[٣٠٦].

وفي عام ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣ م، كان لطرابلس نصيب من غارة فرنجية، كباقي مدن الساحل المملوكي، وقد تمكّن عسكر طرابلس وأهاليها من ردّ المهاجمين، الذين كانوا في ثلاثين شينياً وقراقر وكان الأمير دمرداش غائباً عن البلد في نواحي بعلبك فاستنجد بالأمير شيخ نائب دمشق[٣٠٧].

وفي معرض الكلام على هذه الغارات الفرنجية، لا بدّ من التنبيه، إلى أن طرابلس، لم تكن هدفاً مميّزاً لهذه الغارات، بل كانت أحد الأهداف، شأنها شأن باقي المدن المملوكية البحرية، تأتي بالدرجة الثالثة من حيث الأهمية بعد بيروت والإسكندرية كمركز بحري.

ولا يجوز تحميل غارات الفرنج، خاصة الجنويين منهم، معاني أكثر ممّا تتحمّل. فهي «غارات اقتصادية»، قبل كلّ شيء. والدليل على ذلك أن أكثرية النصوص التي تتكلم على ذلك، تذكر أن الجنويين كانوا دائماً يصادرون بضائع البنادقة والكتلان، خاصة البنادقة مزاحميهم على السلطة على البحر المتوسط. فغارة ١٤٠١ انتهت بالإستيلاء على مراكب مشحونة بالقمح عند ساحل دمياط[٣٠٨]، والاستيلاء على المراكب الإسلامية في طرابلس المشحونة بالبضائع[٣٠٩]، وفي غارة عام ١٤٠٣ م، استولى الجنويون على مركب لأحد التجار وعلى مراكب للكتلان مشحونة بالبهار، ونهبوا بضائع البنادقة في ميناء

بيروت ونهبوا القطن من طرابلس، واضطر الجنويون لدفع تعويض للبنادقة على ما نهبوه لهم[٣١٠]. وفي عام ١٤١١ م، وقعت معركة بين الجنويين والكتلان قرب الإسكندرية[٣١١] إلخ.

هذه الوقائع، وان دلّت على شيء، فإنما تدلّ على أن تحركات الجنويين، كانت تحركات اقتصادية، وهذا يبطل التهم التي تطلقها الدراسة المذكورة جزافاً بحق المسيحيين متهمةً إياهم بالخيانة. فلو كان النصارى يسعون للخيانة لتآمروا مع البنادقة، وهم الدولة النصرانية الأقوى وقتذاك. كما أن الجنويين كانوا يبحثون عن البنادقة أمام الشواطىء المملوكية، لسلبهم تجارتهم، أكثر مما كانوا يبحثون عن محاربة المدن المملوكية لمجرد كونها مدناً إسلامية معادية. فالحرب التنافسية بين الجنويين والبنادقة، كانت في طليعة اهتمامات الجنويين بعدما أضحى المتوسط بحيرة بندقية في القرن الخامس عشر.

ولما كان الجنويون يتّخذون من موانىء قبرص، نقطة انطلاق لغاراتهم على السواحل المملوكية، كان لا بدّ من أن ينتقل المماليك من دور المقاومة إلى الهجوم لوضع حدّ لهذه الغزوات التي تؤثر كثيراً على حركة التجارة وما تقدمه من مردود مالي إلى الدولة المملوكية[٣١٢].

حاول السلاطين حلّ مشكلة القرصنة البحرية بالوسائل الدبلوماسية حتى إذا لم يؤدّ ذلك إلى نتيجة قرّر السلطان الأشرف برسباي (١٤٢٢ ـ ١٤٣٨) وضع حدّ لهذه القرصنة التي تلحق أكبر ضرر بصناديق السلطنة، وبالدول التي تقوم بينها وبين المماليك معاهدات تجارية، خاصة البندقية، التي كانت مستودعاتهم هدفاً مميّزاً لهجمات الجنويين والكتلان.

وكردّ جماعي على الهجمات الفرنجية على سواحل المتوسط الشرقية، أخذ برسباي بإعداد العدّة لغزو قبرص من جهة، وبمصادرة أموال التجار الفرنج في مصر وبلاد الشام[٣١٣].

وأعطي الأمر بجمع السفن الحربية المملوكية في طرابلس الشام، فاجتمع

فيها غرابان أو ثلاثة من مصر ومركب من بيروت وآخر من صيدا وغراب من طرابلس، وبلغ عدد المقاتلين ستماية مقاتل وثلاثمائة فارس[٣١٤].

ومن طرابلس، انطلقت الغزوة في عام ٨٢٧ هـ/ ١٤٢٣ م وتعرف بالغزوة الصغرى وكان سببها الظاهر، حسبما جاء في صالح بن يحيى، الإقتصاص من تعرّض مركب من القراصنة «الباسك» الإسبانيين في دمياط المركب المحمّل بالصابون وآت من طرابلس. لذلك، وبناءً لأمر السلطان، أبحر ثلاثة أغربة من مصر إلى بيروت وتوجه معها غراب من بيروت وغراب من طرابلس، وسارت الأغربة من طرابلس إلى قبرص، فغزت ساحلها في ليماسول وعادت بالأسرى وبالغنائم[٣١٥]. وكان رد جانوس صاحب قبرص، على هذه الغزوة إرسال غرابين لسبي من يلتقوه من المسلمين، وعند نزولهم عند نهر الكلب لأخذ الماء، أمسك المسلمون الذين كانت حراستهم منتشرة على الشاطىء، بجماعة منهم، و هربت الأغربة[٣١٦].

وواصل السلطان برسباي استعداداته، بعد نجاح الغزو، فزاد عدد المراكب البحرية وحصّن الشواطىء. وفي عام ٨٢٨ هـ/ ١٤٢٥ م، انطلقت الحملة البحرية من طرابلس أيضاً، وكان معها المؤرخ «صالح بن يحيى، على رأس قوات البحتريين التنوخيين أمراء الغرب وبيروت، ونزلت القوات الغازية في ميناء فماغوستا الذي كان بيد الجنويين الذين طلبوا الأمان، واجتاحت الشاطىء حتى ليماسول، ثم عادت، بعد سلسلة معارك ناجحة قتل بها خمسة آلاف من الفرنج، محملة بالغنائم والأسرى. وكانت عدة خيول الأمراء والأعيان من المجاهدين الذين ساروا في البر إلى طرابلس ثلاثماية فرس وعديد الحملة التي توجهت من بولاق إلى دمياط إلى طرابلس حيث انضمت إليها العساكر الشامية والمطوعة حوالي بضع أربعين مركباً[٣١٧].

هاتان الغزوتان الموفقتان مهّدتا لفتح الجزيرة في عام ٨٢٩ هـ/ ١٤٢٥ م. وكانت نقطة الانطلاق من الإسكندرية حيث اجتمع اسطول ضخم يناهز المئتي مركب بحري جاءت للمشاركة فيه جماعة من طرابلس وغيرها، اجتاح قبرص

ساحلاً وجبلاً، وأسر ملكها واقتيد إلى القاهرة حيث وقّع صلحاً مع السلطان لقاء مبلغ من المال وجزية سنوية[٣١٨].

وبرغم هذه الضربة الكبيرة لأهم مركز من مراكز القرصنة الفرنجية، فقد عاود الجنويون هجوماتهم وخصّوا طرابلس بغزوة في عام ٨٣٦ هـ/ ١٤٣٢ م، عادوا منها بمركبين محملين بضاعة فلما وصل الخبر بذلك إلى السلطان أمر أن يكتب بالحوطة على أموال الفرنج والكتلان إلا البنادقة[٣١٩].

في سنة ٨٣٧ هـ/ ١٤٣٣ هاجم المماليك مراكب للفرنج قرب بيروت فاستولوا على مركب للبنادقة محملاً بضائع كما استولوا على آخر في طرابلس للجنويين كان أيضاً مشحوناً بالبضائع وأحرقوه. فهلك بضع وعشرون رجلاً وقتل من المسلمين سبعة. ولم يشكر البحارة المماليك على هذا الفعل، لأن البنادقة والجنويين كانوا وقتذاك مسالمين للمسلمين[٣٢٠]. وجاءت ردة فعل الفرنج، بمهاجمة سفن المسلمين والإستيلاء عليها وقتل العديد من بحارتها وأسر الباقي. وفي السنة نفسها أخذ الفرنج (١٨) مركباً من سواحل الشام فيها ما لا يوصف من البضائع وقتلوا عدة ممن كان بها من المسلمين وأسروا باقيهم. وفي سنة ٨٣٨ هـ/ في ثالث يوم منها قدم الأمراء والمماليك السلطانية ومماليك الأمراء الذين كانوا توجهوا في المراكب على ظهر البحر ولم ينالوا طائلاً غير ما قدّمناه من حرق مركب الفرنج الطالعتين الجنويتين وأخذ مركب للبنادقة الطالعتين أيضاً[٣٢١].

وانفتحت شهية السلاطين المماليك على الفتوحات البحرية، فقرّر السلطان الظاهر جقمق (١٤٣٨ ـ ١٤٥٣ م) فتح رودوس، مركز فرسان الاسبتارية، التي كان يخشى أن تصبح قاعدة لهجمات القرصنة على الشواطىء المملوكية والتي كان المماليك يتحسبون لها بتحصن الشواطىء بالأبراج التي كثرت قرب طرابلس في تلك الآونة.

وبالفعل، كانت مراكب الفرنج، خاصة الكتلان والرودوسيين تترصد مراكب المسلمين، للإستيلاء عليها. وفي عام ٨٤٣هـ/ ١٤٣٩ م أصيبت

طرابلس بضربة موجعة عندما سطا الفرنجة على المراكب الخارجة من طرابلس إلى دمياط محمّلة مواداً غذائية[٣٢٢].

في عام ٨٤٤ هـ/ ١٤٤٠ م، سارت أول غزوة مملوكية إلى رودوس لتأديبها على مساهمتها في القرصنة، ولكنها باءت بالفشل بسبب دفاع الاسبتارية[٣٢٣]. وقد خلقت هذه الخسارة أجواء مشحونة في مدن الساحل، وانتشرت إشاعات عن دخول ملك «أراغون» الإسباني إلى جانب رودوس في الاستعدادات لشنّ هجوم على الساحل المملوكي، ستكون محطته الأولى في طرابلس[٣٢٤].

في عام ٨٤٧ هـ/ ١٤٤٣، توجهت غزوة ثانية إلى رودوس وهي تضم عدداً أكبر من المراكب والمحاربين وكانت نقطة الانطلاق من طرابلس، وباءت بالفشل، ولم تتمكن من فتح الجزيرة[٣٢٥].

وبعد عام، في ١٤٤٤ م، أعاد جقمق الكرة بأسطول أكبر وجيش عديد، منطلقاً من طرابلس أيضاً، ولم يكن النصر حليف الغزوة الثالثة. وكان الخروج إلى هذه الغزوة السبت ربيع الأول من القاهرة إلى بولاق فالإسكندرية ودمياط ومقدمهم الأمير اينال العلائي، وكانت عدة المماليك السلطانية تزيد على ألف مملوك خارج عن المطوعة وأمراء البلاد الشامية. وتوجه الجميع إلى طرابلس ومنها إلى رودوس[٣٢٦].

لم تسقط رودوس، فأضعف ذلك موقف المماليك في قبرص، فبدأت حركة المقاومة ضد المماليك تقوى برغم بقاء ملك قبرص على ولائه للماليك. ولإعادة تأكيد السلطة على الجزيرة، أرسل المماليك حملة في عام ٨٦٤ هـ/ ١٤٦٠ م إلى قبرص، انطلقت من طرابلس في آخر السنة، وعجزت عن الاستيلاء على مركز المقاومة التي كانت تقودها أخت ملك قبرص[٣٢٧]. ولكن ممثل السلطان إياس الطويل بمؤازرة الملك القبرصي، تمكن من إعادة أجزاء من الجزيرة إلى سلطة المماليك. وقد كلّف نواب طرابلس وعسكرها بنجدة المسلمين في الجزيرة، فقاموا بذلك خير قيام من عام ١٤٦١ إلى عام ١٤٦٣ م،

حيث فقد المماليك السيطرة على الجزيرة مع استمرار دفع قبرص الجزية للسلطان[٣٢٨].

وكما كان قدر المماليك أن يبقوا في صراع مع الصليبيين حتى بعد ترحيلهم عن المشرق، كذلك ظلوا في صراع مع المغول التتار اتخذ طابعاً تدميرياً في بعض الأحيان وكانت له انعكاساته على نيابة طرابلس، وان لم تصبها سهامه مباشرة.

خامساً: نيابة طرابلس تحارب التتار ـ المغول

برغم الانتصار الكبير الذي حقّقه المماليك على التتار في معركة عين جالوت، بقي خطر المغول جاثماً على قلب السلطنة المملوكية طيلة فترة حكمها.

فعين جالوت أوقفت تقدّم هؤلاء ولكنها لم تحل دون وجودهم، كقوة غازية تنطلق مرّةً إثر مرّة من فيافي آسيا إلى السلطنة المملوكية طمعاً بثرواتها[٣٢٩]. فالمغول كانوا بالنسبة لسكان «الشرق الأوسط» وباء بشريا، شبيهاً بالطاعون على صعيد الأوبئة، وليس من غريب الصدف، أن يكون الطاعون في أساس وجوده، مربوطاً في نشأته، بالمغول، كما سنذكر ذلك في باب كلامنا على الأوبئة.

وبحكم كون نيابة طرابلس، إحدى ركائز التنظيم الإداري المملوكي، وتأتي بالدرجة الثالثة بعد دمشق وحلب في التقسيم الإداري في الممالك الشامية، كان من الطبيعي أن تشارك مشاركة فعّالة في صدّ هجمات المغول على منطقة «الشرق الأوسط».

فمنذ العام ٦٨٠ هـ/ ١٢٨١ م، بدأت مشاركة نيابة طرابلس، عبر عسكر حصن الأكراد، إلى جانب السلطان المنصور قلاوون، بصدّ هجوم التتر والإنتصار عليهم[٣٣٠].

هذا الجهاد ضدّ المغول لن يكون الأخير، على عهد المماليك البحرية.

فعندما تسلم غازان (١٢٧١ ـ ١٣٠٤ م) عرش ايلخانية (زعامة) المغول في بلاد فارس في ٦٩٤ هـ/ ١٢٩٥ م، وكان على الدّين الإسلامي[٣٣١]، فكّر بانتزاع بلاد الشام ومصر من أيدي المماليك.

كان الدافع إلى ذلك، حالة الضعف التي سادت مصر في أثناء اغتصاب

عرش الناصر محمد بن قلاوون على يد كل من كتبغا ولاجين، عقب سلطنته الأولى ووصاية الأميرين بيبرس وسلار في أثناء سلطنته الثانية[٣٣٢].

ومن العوامل الجوهرية التي شجعت على إغارة المغول، هرب سيف الدين قبجق، نائب دمشق، مع جماعة من الأمراء في خمسمائة من الجند إلى غازان وإخباره بما آلت إليه حالة بلاد الشام في نهاية حكم لاجين، مما دفعه إلى العمل على احتلال هذه البلاد[٣٣٣].

في عام ١٢٩٨ م، أرسل غازان جيوشه إلى سلاجقة الروم وديار بكر، على أن تعود بعد انقضاء المهمة للإغارة على بلاد الشام، وفي شتاء ١٢٩٩ ـ ١٣٠٠ م، أرسل جيشاً كبيراً لتحقيق ذلك[٣٣٤].

وقعت المعركة في مجمع المروج في وادي خزندار بين حماه وحمص، فانتصر المماليك أولاً، ثم ما لبثوا أن خسروا المعركة[٣٣٥].

نيابة طرابلس، شاركت في هذه الحرب، وكان لها دور في تحقيق النصر، في مطلع المعركة[٣٣٦]، ولكن عند الخسارة في عصر النهار، قتل نائبها سيف الدين كرت (كرد) ونائب قلعة المرقب الأمير بيبرس العلمي، ونائب بلاطنس الأمير الطغريل، الأمير جمال الدين التقوي وقتل (١٦) مملوكاً وجرح (١٢) من مماليك النائب وقتل من عسكر طرابلس (١١) نفراً[٣٣٧].

بعد خسارة المعركة، زحف المغول إلى حمص فنهبوها، ثم دخلوا دمشق فحكموها. ووضع المغول على صفد وطرابلس والساحل حاكماً هو «فارس الدين الألبكي الساقي». وسرعان ما انقلب الألبكي وقبجق، نائب دمشق، الذي كان سبباً بقدوم جحافل غازان إلى المنطقة، ثم حكم النيابة باسم المغول، وبكتمر نائب حلب وحماة وحمص، من قبل غازان، على المغول، أثر رحيل غازان، ثم قطلوشاه، حاكم البلاد المغولي العام، بعد اطمئنانهم إلى استتباب الأوضاع لصالحهم. فعادت البلاد إلى حكم المماليك في مدة تقلّ عن الشهرين[٣٣٨].

في عام ٧٠٢ هـ/ ١٣٠٢ م، عاود المغول الهجوم، على عهد قازان، على بلاد الشام، فتصدّى لهم السلطان الناصر محمد بن قلاوون بجيوش نياباته، ومن بينها طرابلس بقيادة نائبها اسندمر وانتصر عليهم، في نواحي دمشق، في المعركة التي اشتهرت باسم موقعة «شقحب» أو معركة «مرج الصفر» التي تلت شقحب، وكان منَ المشاركين في هذه المعارك المؤرخان أبو الفداء والنويري[٣٣٩].

وكما ذكرنا، شارك عسكر نيابة طرابلس في المعركة. ويذكر أبو الفداء أن العساكر، بعد مسير المغول إلى الشام واجتيازهم الفرات، اجتمعت عند نائب حماه كتبغا، ووقع الاتفاق على إرسال جماعة من العسكر من بينها اسندمر، نائب السلطنة بالساحل، أي نائب طرابلس، وصحبته جماعة من عسكر حلب وحماه ومعهم، المؤرخ أبو الفداء، فاقتتل هذا العسكر مع التتار يوم السبت ١٠ شعبان الموافق لسلخ آذار ١٣٠٣ م، وانتصر عليه، ثم جرت المعركة الثانية في ٢ رمضان، عشرين نيسان من السنة نفسها، وانتصر المماليك ثانية وعادت العساكر إلى بلادها بعد النصر، ومن جملتها عسكر السواحل[٣٤٠].

وبهذه الخسارة الجسيمة، انكفأ غازان عن بلاد الشام، وأودت مرارة الانكسار بحياته وهو في الثانية والثلاثين في عام ٧٠٤ هـ/ ١٣٠٤م[٣٤١]، فارتاحت السلطنة من خطر المغول، إلى حدّ ما، طيلة القرن الرابع عشر، ليعود هذا الشبح إليها مجدّداً مع مطلع القرن الخامس عشر.

مع بداية عهد السلاطين المماليك البرجية، مع أول سلاطينهم برقوق، (١٣٨٢ ـ ١٣٨٩، ١٣٩٠ ـ ١٣٩٩)، ظهر تيمورلنك، أخطر زعماء المغول، وأشدهم فتكاً وأذىً في بلاد الشام، وكانت أولى مآثره التدميرية في بغداد التي دخلها في سنة ١٣٩٣ م[٣٤٢].

وعلى عهد الناصر فرج بن برقوق (١٣٩٩ ـ ١٤١٢)، خرج تيمور من بغداد إلى بلاد الشام وتوجه إلى حلب، فسارت عساكر المماليك في نيابة دمشق وكان نائبها سودون، وعساكر نيابات طرابلس وغزة وصفد وحماة لصدّ

الغازي[٣٤٣]. وكان على رأس جيش نيابة طرابلس نائبها شيخ المحمودي في ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠ م، الذي سيصبح سلطاناً على المماليك فيما بعد (١٤١٢ ـ ١٤٢١). ويبدو انه كان أكثر المدافعين حماسة وبعد نظر، ولكن الخلافات بين قوى المماليك ومباطنة تمرداش نائب حلب لتيمور افقدتهم القوة الضرورية فخسروا أمام تيمورلنك ووقع نائب طرابلس بالأسر[٣٤٤]، وبعد تقدّم جحافل المغول باتجاه دمشق، هرب كثيرون عبر طرابلس إلى مصر ومن بينهم نائب طرابلس الجديد «آقبغا الجمالي»[٣٤٥]. ويخبر ابن الشحنة أنّ طرابلس دفعت مالاً لتيمور لقاء ابتعاده عنها[٣٤٦]. وتذهب بعض المصادر إلى أن طرابلس كادت تقع بيد المغول عندما سارت فرقة منهم إليها، وغالت في اخبارها فزعمت أنّ دفاع وصدّ أهل القرى لها وقتلهم لأفرادها بالحجارة عند دخولهم بين جبلين!، حال دون الوصول إليها في وقت كانت حوادث تقع فيها ما جعل أهلها يتركونها[٣٤٧]؛ وكانت قد ثارت الحمية ببعض أمراء التركمان بطرابلس، من أمثال ابن رمضان وابن صاحب الباز وأولاد شهري، فهاجموا قوات المغول في حلب، قتلوا منهم زيادة على ثلاثة آلاف فارس[٣٤٨].

وتمكن شيخ المحمودي من الإفلات من الأسر وعاد إلى نيابة طرابلس ثانية (١٤٠١ ـ ١٤٠٢)، فأعاد الأمان إلى النيابة، وقمع أعمال الفوضى التي حاول التركمان القيام بها[٣٤٩].

ولا بد في معرض الكلام على هذه الحوادث من ذكر الدور الذي لعبه المؤرخ ابن خلدون الذي رافق السلطان فرج إلى دمشق مع مجموع من العلماء لإنقاذها من اللنك وكان وقتذاك ابن ثمان وستين عاماً، فتدلى من أسوار المدينة وبقي عند تيمور خمسة وثلاثين يوماً يحاول ثنيه عن تدمير المدينة[٣٥٠].

وهكذا نجت طرابلس من خطر المغول وانطلقت لتساهم في وقائع تاريخ بلاد الأرمن وتاريخ النيابات الشامية ومن خلالها السلطة المركزية في القاهرة.

سادساً: المشاركة في الحرب ضد بلاد الأرمن

كان مفروضاً، على نيابة طرابلس، شأنها شأن كل أجزاء السلطنة المملوكية، خاصة في نياباتها الشامية، المشاركة في الأحداث خارج البلاد، ومنها طبعاً، محاربة بلاد الأرمن، التي كانت مركزاً استراتيجياً، كجزر المتوسط، يمكن للصليبيين، الاتصال به والارتكاز إليه، في أي عودة محتملة إلى الشرق.

لذلك، كان المماليك، تساورهم الشكوك من بلاد الأرمن، ويوجسون خيفة مما يحاك لهم فيها. وكانت هذه الهواجس في محلّها. فالخطة التي يعرضها المؤرخ الأرمني «هايتون» تؤكد على دور الأرمن والموارنة في مشاريع عودة الصليبيين إلى المنطقة[٣٥١]. ولئن كان الموارنة قد دجّنوا، فقد كان على المماليك السيطرة على بلاد الأرمن، لعدة أسباب من بينها هذا السبب بالذات، إضافة إلى الدور الكبير الذي لعبوه سابقاً إلى جانب الصليبيين، إبّان احتلال هؤلاء لأجزاء من الشرق الأوسط الحالي.

وقد بدأ الإحتكاك المملوكي ـ الأرمني، عسكرياً، منذ مطلع عهد المماليك، منذ عهد بيبرس.

أول احتكاك من قبل جيش نيابة طرابلس ببلاد الأرمن، جرى في عام ٦٩٧ هـ/ ١٢٩٧ م عندما هاجم بلاد الأرمن إلى جانب جيوش النيابات الشامية، وتمّ نتيجة ذلك فتح عدة أمكنة[٣٥٢].

في عام ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣ م عاد المماليك إلى الهجوم على بلاد الأرمن، وكان عسكر طرابلس بقيادة نائبها اسندمر من جملة عساكرهم[٣٥٣]. وكذلك شارك هذا العسكر في الهجوم على ملطية في ٧١٥ هـ/ ١٣١٥ م[٣٥٤].

في عام ٧٢٠ هـ/ ١٣٢٠ م في شهر ربيع الآخر، أيار، خرجت عساكر النيابات الشامية لمحاربة بلاد الأرمن، وكان عسكر نيابة طرابلس بقيادة النائب

شهاب الدين قرطاى الذي كان كما يذكر النويري، قائداً للحملة من جملة المشاركين في الهجوم. وقد حصدت نيابة طرابلس من الهجوم، كارثة كبيرة، إذ غرق ألف تركماني من فرسانها في نهر جيحان، ونجا نائب السلطنة من الغرق فتابع الإغارة على بلاد سيسّ، عاصمة الأرمن، فدمّر القلاع والقرى المحيطة بها. وكانوا قد دخلوا بلاد الأرمن من اسكندرونة ففتحوا الثغر ثم تلّ حمدان، وبعد غرق من غرق وصلوا سيسّ، فحاصروها وقطعوا الأشجار واستولوا على المواشي، كما فعلوا بطرسوس، وأحرقوا وخربوا ما طالته يدهم، ثم رجعوا، فعلموا بموت صاحب سيّس، فشنّوا مجدداً الغارة على بلاد الأرمن، وقد انتهت بمقتل جماعة منهم[٣٥٥].

في عام ٧٢٢ هـ/ ١٣٢٢ م، أعاد المماليك الكرّة، بمساندة جيش نيابة طرابلس، بالهجوم على ميناء آياس، فأخذوه بالقوة وبحيلة نائب طرابلس[٣٥٦].

وتابع المماليك، بمساندة جيش نيابة طرابلس، مهاجمة بلاد الأرمن في عام ٧٣٧ هـ/ ١٣٣٧ م[٣٥٧].

وفي عام ٧٣٨ هـ/ ١٣٣٧ م[٣٥٨] و٧٤٤ هـ/ ١٣٤٣ م[٣٥٩]، إلى أن تمّ فتح أرمينية نهائياً في عام ٧٧٦ هـ/ ١٣٧٤ م[٣٦٠].

وكما كان على عسكر نيابة طرابلس أن يشارك في حروب ضد الأرمن، كان من الطبيعي أن يشارك في صناعة الأحداث في بلاد الشام، خاصة زمن الفتن السياسية التي استفحلت زمن الدولة المملوكية الثانية وجرّت الويل على السكان.

سابعاً: المشاركة في صناعة أحداث بلاد الشام

أ ـ على عهد المماليك البحريين:

بعدما استتب الأمر للمماليك بفتح طرابلس، وتحويلها إلى قاعدة لنيابة السلطنة الإسلامية المملوكية، أضحى على طرابلس كمدينة وكنيابة، المشاركة في صناعة التاريخ المملوكي والمشاركة في كل أحداث بلاد الشام والتأثر بكل ما يجري في النيابات المحيطة بها على كل الصعد.

فعلى الصعيد السياسي، ساهمت نيابة طرابلس مساهمة فعّالة في إنهاء الوجود الصليبي في الشرق، وكان فتح عكا، كما رأينا، أبرز مشاركة على هذا الصعيد، وتبع ذلك فتح ما تبقّى من مراكز صليبية على الساحل اللبناني والسوري الحاليين، خاصة في أرواد، آخر نقطة وجود صليبية. كما سيكون لنيابة طرابلس دور في الحرب ضد الفرنجة، وضد التتار وضد بلاد الأرمن كما عرضنا كل ذلك في بابه.

ومن الأحداث التي شارك في صناعتها عسكر نيابة طرابلس نجد ما يلي:

في عام ٧٠٨ هـ/ ١٣٠٩ م، ترك الناصر محمد بن قلاوون سلطنته الثانية، لصالح استاداره بيبرس الجاشنكير (٧٠٨ هـ/ ١٣٠٩ م) الذي بايعه نائب دمشق جمال الدين آقوش الأفرم وامتنع عن ذلك نائباً حلب وحماه ونائب طرابلس اسندمر الكرجي (١٢٩٨ ـ ١٢٩٩، ١٣٠٠ ـ ١٣٠٩ م). لا بل بادر اسندمر إلى الإتصال، سرياً، بالناصر محمد بن قلاوون الذي اعتزل في قلعة الكرك بالأردن، باسم النواب الثلاثة، مشجعاً إياه على العودة إلى السلطنة. وما إن تمّ ذلك، حتى نقل اسندمر إلى نيابة حماه، وحلّ مكانه الحاج بهادر الحلبي المنصوري (١٣٠٩ ـ ١٣١٠ م) الذي كلّف القبض على السلطان بيبرس إلى جانب قراسنقر نائب دمشق[٣٦١].

وفي عام ٧١٠ / ١٣١٠ كتب السلطان إلى نائب دمشق ونائب طرابلس بالقبض على الأمراء المناوئين له[٣٦٢].

وبموت بهادر عين جمال الدين آقوش الأفرم نائباً على طرابلس. وأثناء نيابته شارك عسكر طرابلس الجيش المصري والشامي في عام ٧١٠ هـ/ ١٣١٠ م في الهجوم على سيف الدين اسندمر نايب حلب، نائب طرابلس سابقاً، بسبب ظلمه وعسفه. وكان قد سبق الهجوم وصول سيف الدين أرغون إلى طرابلس واجتماعه بالروم ومعه أمثلة من السلطان تشرح الأسباب الموجبة للقبض على اسندمر. وحين دبّ الخلاف بين قرا سنقر، نائب حلب، والسلطان الناصر في عامي ٧١١ ـ ٧١٢، عندما بدأ السلطان المذكور بالعمل على التخلص من الأمراء الذين كانوا في نظره يشكلون خطراً على دولته، مال الأفرم إلى جانب قراسنقر وتظاهر بطاعة السلطان متخذاً في الوقت نفسه الحذر منه، إلى أن تبين له أن السلطان يريد الإيقاع به بحجة تكليفه بنيابة حلب، ففر من طرابلس إلى مرج الأسل وطلب من الأمراء اللحاق به، لضرب الجيش المصري الذي كان موجوداً في حمص. فلم يتجاوب معه الأمراء بضغط من شهاب الدين النويري، المؤرخ المشهور، الذي كان يعمل وقتذاك، كناظر للجيش في طرابلس ، وقد اجتمع بأقوش في ذي الحجة ٧١١ هـ وحاول اقناعه بعدم السير وراء قراسنقر الذي، بحسب رواية النويري، وعده بالمال وبحلب. فلما لم يتجاوب مع الأفرم سوى أمير واحد من جيش نيابة طرابلس، فرّ إلى البرية باتجاه قرا سنقر الذي، بدوره، كان يعتقد أن الأفرم جاء للقبض عليه؛ وعندما بان السبب التقى الأميران وفرّا إلى بلاد المغول حيث عملا في خدمة خربندا ملك التتار. ويخبر النويري أن أقوش كان يتنقل بحجة الصيد تارة في الجوز وأخرى باللاذقية وجبله ومرة بالجبال. وحاول السلطان في مستهل محرم ٧١٢ هـ الإيقاع به فطلب مجيئه إليه لتقليده على نيابة حلب فارتاع من الطلب وطلب من الأمراء الركوب معه وتوجه من جبله إلى مرج الأسل، ولكن تدخل النويري حال دون السير في مخططه فهرب كما ذكرنا وعاد أمراء التركمان إلى طرابلس[٣٦٣].

في عام ٧١٤ هـ/ ١٣١٤ م شارك عسكر طرابلس العساكر الشامية في مطاردة ابن مهنّا. أحد زعماء البدو[٣٦٤].

في عام ٧٤١ هـ/ ١٣٤١ م، وعلى أثر موت الناصر محمد بن قلاوون، دبّ الخلاف على وراثته بين المنصور سيف الدين أبو بكر وأخيه الأمير أحمد. وكان الأمير سيف الدين قطلوبغا الفخري والأمير قوصون قد ارسلا من مصر لمحاصرة الأمير أحمد في الكرك والقبض عليه. وقد طلب قوصون من نائب دمشق ومن الحاج أرقطاي (١٣٤٠ ـ ١٣٤١ م)، نائب طرابلس، قتال طشتمر نائب حلب. ولكن قطلوبغا انقلب على السلطان المنصور وعلى قوصون وبايع الأمير أحمد الذي اتخذ تسمية الناصر بن الناصر. ودارت الدائرة لصالح الفخري، فاضطر نائبا دمشق وطرابلس، المؤيدان للملك المنصور، للهرب إلى مصر والإحتماء بقوصون، الذي كان حظه سيئاً، إذ قبض عليه واستلم أحمد السلطنة وقبض على نائبي دمشق وطرابلس وسجنا في قلعة الجبل[٣٦٥].

في عام ٧٤٧ هـ/ ١٣٤٦ م، في جمادى الأولى، خرج نوّاب دمشق وحلب وحماه وحمص ونائب طرابلس بيدمر النويري على السلطان الملك الكامل (١٣٤٥ م) بتحريض من نائب دمشق، بسبب اتهام الملك الكامل بكثرة سفكه لدماء الأمراء المماليك، واجتمعت جيوشهم في دمشق، فلما علم أهل مصر ما فعله أهل الشام، ثاروا على السلطان وخلعوه وتملّك بعده أخوه الملك المظفر حاجي ابن الناصر محمد بن قلاوون[٣٦٦].

في عام ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٧ م، قام جيش طرابلس بالمشاركة في حصار سيف الدين يلبغا في حمص. وكان يلبغا نائب دمشق السابق قد رفض الإمتثال لأمر السلطان الملك المظفر حاجي بالتخلّي عن مركزه[٣٦٧].

وفي ٧٥٠ هـ/ ١٣٤٩ م في ٢٣ ربيع الأول، قام نائب طرابلس الأمير سيف الدين ألجيبغا المظفري (١٣٤٨ ـ ١٣٤٩ م)، بالإتفاق مع فخر الدين إياس نائب حلب السابق، بالركوب على نائب السلطنة بدمشق، سيف الدين ارغون شاه، فأحاطوا به مع طائفة من الأمراء ودخلوا عليه بالحيلة، وهو نائم، حيث قتلوه ذبحاً ثم حاولوا تغطية جريمتهم بإشهاد أحد القضاة وشهود بأنه قتل نفسه بيده فلم يفلحوا. ثم تظاهروا بأنهم فعلوا لك بأمر من السلطان ووضعوا

أيديهم على بعض ممتلكات أرغون المغدور، وحاول الأمراء بدمشق منع نائب طرابلس من الخروج من دمشق، لارتيابهم بصحة ما ذكره، ولكن ألجي تمكن من الإفلات منهم والعودة إلى نيابته. عندها اشتكى الأمراء إلى السلطان وأعلموه بما وقع، فأجاب السلطان بأن ما ذكره ألجي لا أساس له من الصحة، وأمر باعتقال النائب. فما كان من عسكر دمشق إلا أن ركب في أثر نائب طرابلس، فقبض عليه وعلى فخر الدين إياس وأشهر أمرهما وقتلا في ٢١ ربيع الآخر[٣٦٨].

ويخبر ابن قاضي شهبة، أن الجيبغا لما وصل إلى طرابلس أخذ أمواله... ورجع قاصداً مصر، فلما وصل إلى نهر الكلب قام عليه جماعة من التركمان، وقطعوا الجسر ومنعوه من المرور عليه، وإذ وعدهم بالعطاء الجزيل أرادوا تخليته، لكن والي بيروت وبدر الدين ابن الحنش زعيم البقاع منعاهم من ذلك وقبضوا عليه. أما آياس فهرب في الجبال ووصل إلى قرية العاقورة التي كان أهلها نصارى فاختفى بها. فعلم به نائب بعلبك وألقى القبض عليه[٣٦٩].

في عام ٧٥٢ هـ/ ١٣٥١ م، جيش نيابة طرابلس يشارك في محاصرة نائب السلطنة في صفد[٣٧٠].

وفي ٧٥٣ هـ/ ١٣٥٢ م، في أوائل شهر رجب، اشتهر الخبر أن نائب حلب يلبغا اتفق مع نائب طرابلس بكلمش (١٣٥٠ ـ ١٣٥٢ م) بالخروج على طاعة السلطان الملك الصالح (١٣٥١ ـ ١٣٥٤ م) لخلافهما مع شيخون وطاز عضوا الدولة بالديار المصرية. ورفض نائب دمشق ارغون مشاركتهم في ذلك. وفي يوم الأربعاء، الرابع والعشرين من رجب دخل سيف الدين يلبغا أروش نائب حلب إلى دمشق بمن معه من العساكر الحلبية وغيرهم وفي صحبته نائب طرابلس الأمير سيف الدين بكلمش ونائب حماه الأمير شهاب الدين أحمد، ونائب صفد الأمير علاء الدين طيبغا وطوائف من التركمان وعاثوا نهباً وفسقاً في دمشق حتى جاءهم الخبر بخروج السلطان بالعساكر لمحاربتهم ففرّوا إلى جهات حلب، ولكن عسكر السلطان الملك الصالح لحق بهم، وألقى القبض على

النوّاب العصاة بمن فيهم نائب طرابلس وقتلوهم ولم ينج منهم سوى نائب حلب[٣٧١].

في ٧٥٩ هـ/ ١٣٥٧ م، جيش نيابة طرابلس يقف إلى جانب طاز نائب حلب في صِراعه مع السلطان الملك الناصر حسن ابن الناصر محمد بن قلاوون (١٣٤٧ ـ ١٣٥١، ١٣٥٤ ـ ١٣٦١ م)، وانتهى الصراع بحلّ سلمي[٣٧٢].

وفي ٧٦٢ هـ/ ١٣٦٠ م تغلّب سيف الدين بيدمر نائب دمشق وراسل الأمراء بالطاعة له، فحلف له بذلك أمراء دمشق وأعلن الأمير منجك من القدس عدم رضاه وعدم طاعته ليلبغا الناصري، ثم حضر الأمير سيف الدين تومان تمر (١٣٥٨ ـ ١٣٦٠ م) نائب طرابلس في عاشر رمضان وأعلن انضمامه إلى بيدمر، فجهّز الأخير العساكر الشامية وسار باتجاه مصر، وعلى الطريق هاجمت العرب أمراء العساكر الشامية، مستغلة فرصة اقتتالهم فيما بينهم، فاختفى خبر نائب طرابلس وعدد من أمراء دمشق، فخارت قوى بيدمر وانكفأ عائداً بعد خروج السلطان إليه. وقبض على تومان ووليّ طرابلس عوضه ملكتمر المحمدي[٣٧٣].

في ٧٨٥ هـ/ ١٣٨٣ م شارك. عسكر طرابلس العساكر الشامية والثغور والتركمان في قتال التركمان العصاة في بلاد سيسّ[٣٧٤].

وفي ٧٦٣ هـ/ ١٣٦١ م عسكر طرابلس يتوجه مع عسكر دمشق وحماة إلى ملطية لمحاربة نائبها[٣٧٥].

وفي ٧٦٨ هـ/ ١٣٦٦ م الأمير اشقتمر نائب طرابلس وطيبغا الطويل يعصيان على السلطة. فأرسل السلطان بالكشف عن الخبر على خيل البريد للتأكد من صحة ذلك، فلما عاد بالجواب وصحة الخبر، قرر اسندمر الزيني على نيابة طرابلس[٣٧٦].

في ٧٨٣ هـ/ ١٣٨١ م عسكر طرابلس، وعلى رأسه النائب كمشبغا الحموي، بالإضافة إلى عسكر النيابات الشامية والتراكمين والعربان والعشران يشارك في الهجوم على خليل بن قراجا بن ذلغادر في بلاد مرعش[٣٧٧].

٧٨٥ هـ/ ١٣٨٣، عسكر طرابلس يشارك العساكر الشامية وعساكر الثغور والتراكمين في قتال العصاة في بلاد سيسّ[٣٧٨].

ب ـ على عهد المماليك البرجيين:

أشهر الفتن التي عرفها التاريخ المملوكي، هي تلك التي رافقت بداية العهد البرجي مع السلطان الظاهر برقوق، ودامت أربع سنوات، وكان لطرابلس دور في صناعة أحداثها.

١ = مشاكل منطاش:

ففي عام ٧٨٩ هـ/ ١٣٨ م، أعلن نائب ملطية تمربغا المعروف بمنطاش، العصيان على السلطان برقوق، فبادر السلطان الذي كان يشكك في ولاء أمراء النيابات الشامية له إلى القاء القبض على بعض أمراء الشام، ومن بينهم نائب طرابلس كمشبغا الحموي (١٣٨٤ ـ ١٣٨٨ م).

وفي عام ٧٩١ هـ/ ١٣٨٩ م، انضمّ يلبغا الناصري، نائب حلب، إلى العصيان، وأيد أمراء الشام العصيان، ومن بينهم أمراء نيابة طرابلس الذين قام بعضهم بالقبض على نائبها اسندمر الحموي المحمدي وعلى من عارضهم من الأمراء الذين قتلوا بعضهم، وعيّنوا بزلار العمري، وهو أحد الأمراء من الثائرين نائباً على طرابلس، وأطلق كمشبغا النائب السابق لطرابلس من سجنه في دمشق. وبذلك، أضحت طرابلس إلى جانب العصيان. وعبثاً حاول برقوق تعيين نائب على المدينة ليجرّها إلى تأييده فلم يفلح، إذ حال الثوّار دون وصوله إلى المدينة.

وعمّ العصيان حماه وبعلبك، وأيدته عشائر التركمان والعرب، إضافة إلى حلب وطرابلس، بحيث أضحت الممالك الشامية إلى جانب الثائرين منطاش ويلبغا، فجاء عند ذلك العسكر المملوكي من مصر لضرب العصاة، فانهزم عند دمشق، مما سهّل للعصاة إضافة دمشق إلى حلقة عصيانهم كما غزة والرملة

والكرك. وعندما استتبت الأمور لهم في بلاد الشام كلها، شنّ العصاة هجوماً على مصر انتصروا فيه على برقوق وعزلوه من السلطنة. ووضع مكانه على العرش المنصور حاجي ابن الملك الأشرف (١٣٨٩م). وعيّن بزلار نائب طرابلس على دمشق وعيّن صنجق الحسني نائباً مكانه. وسرعان ما دبّ الخلاف بين يلبغا ومنطاش على مصير السلطان برقوق: فيلبغا يريد سجنه ومنطاش قتله، وأدى ذلك إلى قتال بين الاثنين حالف الحظ فيه منطاش الذي عزل بزلار ثم قتله.

ثم تغيّرت الأمور، إذ قام نائب حلب كمشبغا الحموي بالعصيان على منطاش ومساعدة برقوق بمدّه ببعض العساكر التي مكّنته من القبض على المنصور حاجي واستعادة السلطنة في ٧٩٢ هـ/ ١٣٨٩ م، مما اضطر منطاش للإمساك بدمشق. ولأخذ زمام المبادرة، عيّن برقوق نائباً على طرابلس قرا دمرداش الأحمدي الذي كانت بينه وبين منطاش عداوة قديمة والطنبغا الجوباني على دمشق وطلب منهما محاربة منطاش.

ويبدو أن العسكر في طرابلس كان إلى جانب منطاش، فعندما وصلته دعوة المذكور لمساندته ضدّ العسكر الآتي من مصر إلى محاربته، سار إلى دمشق، فوصل إلى قربها بعد خروج منطاش منها، ليجد نفسه وجهاً لوجه مع عسكر المماليك الآتي من مصر، مما حتّم وقوعه في الأسر. أمام هذا الواقع الجديد، أعلن اسندمر السيفي، وكان يشغل وظيفة الحاجب، تأييده لبرقوق، وحاول التمهيد لوصول «قرا دمرداش» إلى نيابة طرابلس. ولكن ما إن مضى شهر على ذلك حتى عادت طرابلس إلى سلطة منطاش بالقوة بعد حصار جماعته للمدينة وانتزاعها من الحاجب اسندمر بعد معركة أودت بحياة الكثيرين من أهل المدينة. فآلت النيابة لمنطاش الذي عيّن قشتمر الأشرفي نائباً عليها. وعادت المدينة مجدداً إلى كنف السلطان برقوق عندما توجّه يلبغا الناصري ونائب دمشق الجوباني والنائب الأصيل لطرابلس قرا دمرداش لمحاربة منطاش. فانتهت المعركة بقتل نائب دمشق، وباستيلاء قرادمرداش على طرابلس بعد تسليم قشتمر

له بالنيابة سلماً. كما استولى جماعة برقوق على حمص وحماة. ثم انتقل دمرداش إلى نيابة حلب وعيّن الأمير اينال من خجا علي (١٣٨٩ ـ ١٣٩٠) نائباً على طرابلس.

واستمر منطاش في عصيانه في عام ٧٩٣ هـ/ ١٣٩١ م، واسترد حماه وحمص وبعلبك وتوجه إلى دمشق، فسار عسكر طرابلس بقيادة النائب اينال لمساندة دمشق ومعه ابن الحنش، فتمكّن منهم منطاش وأردى عدداً كبيراً منهم قبل أن يتمكنوا من اللجوء إلى داخل المدينة، ثم شارك في إبعاد منطاش عن دمشق: وهذا الأخير حاول إعادة الكرّة لدخول دمشق، فأرسل برقوق جيشه من مصر ودخل دمشق وحمص وحماة وحلب وعيّن نائباً جديداً على طرابلس هو فخر الدين إياس الجرجاوي، الذي ما إن تسلّم نيابته حتى اضطر لدفع عسكر النيابة إلى حلب لردّ منطاش عنها، ولكنه لم يمكث كثيراً في النيابة لكثرة الشكايات عليه، فعزله السلطان وعيّن مكانه دمرداش الحموي الظاهري في مطلع عام ٧٩٥ هـ/ ١٣٩٢ م، ودمرداش هو عمّ المؤرخ ابن تغرى بردى. ولم ترتح المنطقة على عهد دمرداش من عصيان منطاش، الذي هاجم، بمساندة العرب، حماه، فاضطر نائب طرابلس، كالعادة، لتقديم المساعدة العسكرية، وبرغم ذلك انتصر منطاش، الذي لم تسترح منه المنطقة إلا في شهر رمضان ٧٩٥ هـ/ ١٣٩٣ م، عندما وقع في قبضة نائب حلب الذي قطع رأسه[٣٧٩]، منهياً بذلك عصياناً كلّف طرابلس العديد من أفراد جيشها وتبدّلات في الحكم وفي الوظائف بشكل سريع لا بدّ أن يكون قد إرتدّ على الازدهار الإقتصادي في النيابة التي لم تعرف الراحة طيلة أربع سنوات، فعاشت في حالة كرّ وفرّ عسكرية، خاصة من الترك والشراكسة جمّدت الأوضاع الإقتصادية، بسبب حالة اللااستقرار التي شغلت الناس عن القيام بنشاط يقتضي الهدوء. ومن أحداث هذا العصيان محاصرة إيمان التركماني من قبل منطاش لطرابلس في نحو ثمانية آلاف فارس حصاراً شديداً ملكها بعده[٣٨٠].

ولم تمض تسع سنوات، حتى وقعت طرابلس صريعة الفتن في بلاد الشام،

بسبب ضعف السلطة المركزية في القاهرة وتزاحم نوّاب السلطنة على السلطة، وإبطال عادة انتقال الملك عن طريق التوارث، وتحوّل السلطنة لمن تَغَلّب عليها من الأمراء البرجية[٣٨١].

ففي عام ٨٠٢ هـ/ ١٤٠٠ م، إبان حكم السلطان الناصر فرج (١٣٩٩ - ١٤١٢ م) استغل «تنم» نائب السلطنة في دمشق، الخلاف المستحكم بين الأمراء الكبار وتجاوزهم لسلطة السلطان الصغير السنّ، فخرج عن طاعة السلطان، وراسل نوّاب الممالك الشامية للإنضمام إليه، فأجابه إلى ذلك يونس بلطا الرمّاح، نائب طرابلس (١٣٩٨ - ١٤٠٠ م) ونائب صفد، ورفض أحد سكان طرابلس ويدعى ناصر الدين محمد بن بهادر، ما كان يدبّره يونس وتنم وسافر إلى القاهرة عبر دمياط لإطلاع المسؤولين فيها على ما يعدّه النائبان ضد السلطان. فبادر السلطان إلى تعيين حاجب حجّاب طرابلس المدعو قرمش نائباً على النيابة وأن يقتل يونس، فعاد بهادر ومعه الأوراق اللازمة من السلطات في مصر، وما كاد بهادر يصل إلى ميناء طرابلس حتى كان يونس قد اغتال قرمش وعيّن نائباً له على المدينة الدوادر قجغار وسار إلى دمشق ومعه عسكر طرابلس. وعند اقتراب بهادر من الساحل أرسل ما كان يحمله من قرارات فوصلت إلى المدينة قبل أن يتمكن من دخولها بسبب محاولة قجغار نائب الغيبة منعه من ذلك. وبعد إذعان القضاة والأهالي لقرارات السلطان، تحرّك الأهالي فقاتلوا قجغار، ونهبوا بيته وبيت يونس بلطا، فدبت الفوضى في المدينة وفرّ قجغار إلى حمص، ونزل بهادر من مخبئه وأخذ الناس يتهيئون للحرب.

وعندما علم النائبان المتآمران تنم ويونس بما جرى في طرابلس، أرسلوا فرقة عسكرية كبيرة معها قجغار لتأديب طرابلس، حاصرت المدينة، التي صمد سكانها وقضاتها في الدفاع عنها مدة تسعة أيام، عندها سار النائب يونس بنفسه فاقتحم المدينة وأعمل السيف برقاب أهلها وأسر قضاتها، وتمكن من الهرب من وجه قوات يونس، القاضي الشافعي وبهادر المذكور ونقيب الأشراف، فوصلوا مصر وأخبروا بما جرى. ونهبت عساكر يونس المدينة وسبيت النساء وقتل

القضاة وبعض أعيان البلد، وتجاوز عدد القتلى الألف، بعد هذه الحادثة، وبسيطرة تنم على أكثر أرجاء النيابات الشامية، قرّر مهاجمة مصر، فجابهته عساكر السلطان عند غزّة، فانهزم تنم ووقع في الأسر، هو ونائب طرابلس ونائب حلب. وفي الرابع من شهر رمضان من العام المذكور أعدم تنم ويونس وعيّن شيخ المحمودي نائباً على طرابلس (٨٠٢ - ٨٠٣ - ٨٠٥ هـ/)[٣٨٢]. وبعد تثبيت شيخ في النيابة قبض على حاجب طرابلس وعلى جماعة من أمرائها وسجنهم في قلعة المرقب واستخدم جماعة كثيرة من العربان والعشير والتركمان[٣٨٣].

وبذلك، انتهى الصراع الذي كلّف طرابلس مئات القتلى والتدمير الإقتصادي من جرّاء تدخّل نوّاب طرابلس في صراعات بلاد الشام.

ومن عام ٨٠٦ هـ/ إلى العام ٨٢١ هـ/ ١٤٠٣ - ١٤١٨ م، وطيلة ١٥ سنة، شهدت المدينة ونيابتها حالة فوضى، بسبب الطمع بالسلطة وبالسلطنة، جعلت الناس في حالة لا استقرار دائمة، بما قد يترتب على ذلك من انهيار، اقتصادي، اجتماعي وغيره. فقد تبدّل خلال هذه الخمس عشرة سنة حوالى ٢٧ نائباً للسلطنة، خمسة منهم في عام واحد هو عام ٨٠٧ هـ/ ١٤٠٤ م، وذلك بسبب ما أثاره من مشكلة الأمير جكم في ٨٠٦ - ٨٠٩ هـ/ ١٤٠٣ - ١٤٠٦ م، وما استتبع ذلك من مشاكل طرحها الأميران «شيخ المحمودي» و«نوروز الحافظي»، وما تلا ذلك من مشاكل.

٢ = مشاكل الأمير جكم:

ففي عام ٨٠٦ هـ/ ١٤٠٤ م، قام أحد أمراء المماليك، المدعو «جكم ابن عوض» بالاتفاق مع أحد أمراء التركمان، بالإغارة على معاملة حلب، فسار إليهما نائبها دمرداش، فهربا إلى انطاكية، حيث لحق بهما النائب المذكور وحاصرهما، ولكن تدخّل السلطان الناصر فرج بن برقوق، والطلب من جكم الإقامة في مصر أو القدس أو طرابلس، حال دون القاء القبض عليه. غير أن

جكم لم ينصع لأمر السلطان، وبقي في انطاكية، حيث اتصل به نائب دمشق «شيخ المحمودي» ودعاه للوقوف معه ضدّ السلطان، فما كان من جكم إلا أن سار إلى طرابلس وتواطأ مع بعض أمرائها ودخل عاصمة النيابة فاستولى على طرابلس وسجن نائبها شيخ السليماني المعروف بـ «المسرطن» في قلعة صهيون، التي كانت باستلام الأمير بيازير، أحد أخوة الأمير نوروز. وكان جكم قد طلب من نوروز قتل النائب شيخ السليماني ولكنه امتنع عن ذلك وعمل على إطلاق سراحه لاحقاً.

ومن طرابلس بدأ جكم اتصالاته لتأليب نوّاب السلطنة إلى جانبه وجانب «شيخ المحمودي»، مخفياً على الجميع ميله الشخصي وسعيه للاستئثار بالسلطنة لاحقاً. وقد بدأ يظهر ذلك عندما رفض دعوة «شيخ» له إلى دمشق، وسار إلى حماه فسيطر عليها، وتآمر مع بعض أمراء حلب، فدخلها، واستقرّ له الأمر في حلب وحماة وطرابلس، وقطع مع شيخ المحمودي اسم السلطان من الخطبة[٣٨٤].

وبعد طول تردّد في قبول دعوة «شيخ» نائب دمشق لزيارة المدينة والتحالف معاً، قبل بذلك، فدخل دمشق وتفاهم مع نائبها وعاد لإعداد العدة للحرب، في طرابلس. ولكن مشاكل عدة ستواجهه. فقد ارتاب بحاجب طرابلس تنكزبغا فقتله، واستولى أحد أمراء المماليك المدعو «سودون الجلب» على قلعة المرقب، وأطلق نائب قلعة صهيون المسرطن، نائب طرابلس السابق الذي دعا إليه عشير الجبل وتراكمين طرابلس ونائب حماة وجعل بيازير في قلعة صهيون، ومن جهة أخرى عمل على ضمّ «علاّن» نائب حماه، الذي كان جكم قد طرده منها إليهما، فأجابه إلى مبتغاه.

وبينما كان سودون المستولي على قلعة المرقب ينحاز إلى جانب «شيخ» نائب الشام، كان نائب حماه، قد بدأ يهدد مخطط جكم، فأرسل جيشاً لاستعادة حماة، التي كان نائبها قد سار إلى قلعة صهيون للاتفاق مع نائبها بيازير، فتوجه عسكر جكم إلى هناك مستبقاً اللقاء وحاصر القلعة عشرة أيام، دون أن يتمكن

منها، فقرر جكم السير بنفسه إليها، فبادر نائب حماه، علاّن، إلى نجدة المسرطن، فاضطر جكم إلى الفرار ومعه بعض عسكر طرابلس، مما أتاح لشيخ السليماني، النائب السابق بدخول طرابلس. وهكذا أصبحت قلعة صهيون مركزاً للصراع بين الموالين لجكم والمختلفين معه المعتصمين فيها[٣٨٥].

واستغلّ «شيخ» وضع طرابلس المتقلّب، فاتصل بأمرائها يدعوهم للوقوف معه، فبدأ جكم يضعف، مع فرار أمرائه عنه، واضطر للانسحاب إلى دمشق، والمسرطن والتركمان في أثره. وعادت طرابلس لسلطة السلطان مع المسرطن، الذي جمع التركمان والعشران والعربان وعسكر طرابلس وقسم من عسكر حلب وقسم من المماليك، وبدأ بإعادة الاستيلاء على القلاع والحصون على الساحل الشمالي وإعادتها إلى سلطة السلطان فرج[٣٨٦] ولكن في عام ٨٠٧ تمكّن المناوئين للسلطان من استعادة بعض المعاملات والحصون: العجل بن نعير على الحصن والمناصف، وابنا صاحب الباز على سواحل اللاذقيه وجبله وصهيون وبلاطنس. وعلم الدين سليمان على حصن الأكراد ورجب ابن أمير أسد على قلعة المرقب، فعمل شيخ السليماني على طرد عجل وأخذ حصن الأكراد[٣٨٧].

ولكن السلطان، الغريب عما كان يجري، خذل المسرطن، الذي كان بدأ باستعادة النيابة لصالحه، فعيّن نائباً جديداً مكانه هو الأمير قانباي، في الوقت الذي كان فيه جكم قد أضحى في دمشق يتفق مع شيخ على السير إلى مصر لقلب السلطان، ويعدّا العدة لذلك، ويسيران إلى مصر، ويعودان منها مهزومين[٣٨٨].

ومن الملفت للنظر أن المرقب أصبح سجناً ومكاناً لنفي أمراء المماليك، تبعاً للتغيرات التي تلحق بهم في حمى الصراع على السلطة[٣٨٩].

في آخر السنة من العام ٨٠٧ هـ/ ١٤٠٥ م، عيّن نائب جديد على طرابلس هو «بكتمر».

في عام ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥ م، اختلف شيخ وجكم أثناء توجههما خارج دمشق، لمحاربة «نعير» أمير العربان، فتوجه جكم إلى ناحية طرابلس، في

الوقت الذي كان أحد أمراء المماليك «نوروز» يستغل فرصة وجود «شيخ» خارج دمشق للسيطرة عليها. ولكن تبدّل الظروف بعزل السلطان فرج، وجلوس أخيه عز الدين مكانه على عرش السلطنة، حتّم على شيخ وجكم، العودة إلى التحالف، ممّا سمح لشيخ باستعادة دمشق، التي فرّ منها نوروز إلى طرابلس، فلحقا به إليها، فوجدا أن نائبها بكتمر قد هرب منها[٣٩٠].

ومع عودة نوروز إلى السلطة بعد ٧٠ يوماً، أُقرّ«شيخ» على نيابة دمشق، وجكم على حلب، ولكن حكم بقي بأمر من السلطان وبالاتفاق مع شيخ، نائباً على طرابلس، التي وضع فيها نائباً عنه[٣٩١].

وقرر السلطان تعيين دمرداش نائب حلب، المذكور سابقاً، نائباً على طرابلس في ذي القعدة ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٦ م، كما قرّر عزل جكم عن حلب وطرابلس، ثم عاد فعيّن «علان اليحياوي» على طرابلس في ذي الحجة من العام نفسه، ولما لم يقف «شيخ» موقفاً صريحاً إلى جانب جكم، اختلفا وتقاتلا في بلدة الرستن بين حماة وحمص، فقتل في المعركة نائب طرابلس الجديد، وانهزم شيخ، وأرسل جكم إلى دمشق «نوروز» ليحكمها باسمه[٣٩٢].

واسترد جكم حكم طرابلس وحماه، مما اضطر السلطان فرج إلى المجيء إلى بلاد الشام لمحاربته، فدخل دمشق ثم حلب، وفرّ جكم من أمامه إلى ما وراء الفرات ومعه نوروز، وعيّن نائباً جديداً على طرابلس، هو، سودون بقجه، في أول جمادى الأولى عام ٨٠٩ هـ/ ١٤٠٧ م، وطلب حضور قضاة طرابلس إلى حلب، حيث أخذ منهم مالاً.

وبخروج السلطان من حلب، انقضّ جكم عليها وأعلن نفسه سلطاناً في ١١ شوّال ٨٠٩ هـ/ ١٤٠٧ م، ولكن قتل التركمان له في منتصف ذي القعدة من السنة نفسها، وكانوا قد أكثروا الفساد في حماه وطرابلس، قضى على طموحاته، وعلى مشاكله، ليترك الساحة، أمام عصيان كلّ من شيخ المحمودي، ونوروز الحافظي المذكورين أعلاه[٣٩٣].

٣ = مشاكل شيخ ونوروز:

دخل نوروز في طاعة السلطان بعد مقتل حليفه جكم، وعيّن نائباً على دمشق، وبقي شيخ عاصياً على الدولة، فطلب السلطان من بكتمر، نائب طرابلس، تأمين نيابة دمشق لحين وصول نوروز إليها، فما كان من شيخ إلا أن حاول صدّه عن ذلك، فدارت بينهما معركة قرب بعلبك، اضطرت بكتمر للعودة إلى طرابلس في ربيع الآخر ٨١٠ هـ/ ١٤٠٧ م، دون أن يهنأ سكنه فيها، إذ سيكون فدية لصلح شيخ ونوروز، مما سيضطر الأخير لوضعه في السجن في دمشق، وإعطاء نيابة طرابلس لشيخ، الذي سيتمكن منها برغم فرار نائبها بكتمر من السجن وقرار السلطان باستقراره فيها[٣٩٤].

عاد شيخ إلى سيرته الأولى، فطلب رضى السلطان بعد وعده له بأنه سيقضي على جميع أعدائه، فوافق السلطان على توليته على نيابة الشام، على أن يتعين بكتمر المذكور على طرابلس، فما أن وصله الجواب وكان في حصار لقلعة المرقب حتى راسل نوروز، معلماً إياه بقرار السلطان بعزله عن دمشق وانه يقف إلى جانبه. فتشجع نوروز على العصيان، وكان قد بدأ به في محاولة الاستيلاء على نيابة صفد، حيث سيتصدى له بكتمر بجيش نيابة طرابلس في مطلع عام ٨١١ هـ/ ١٤٠٨ م حيث ستجري معركة قرب صفد ستكلف الجيشين عدداً كبيراً من القتلى، وستمكن بكتمر من امتلاك غزة والسيطرة على دمشق، ودخولها مع شيخ، الذي سرعان ما كان انقلب على تحالفه مع نوروز وتفضيله تطبيق قرار السلطان بتوليته على دمشق[٣٩٥].

وانطلق بكتمر بعسكر كبير من دمشق، فسار إلى نيابته بطرابلس ليضيف إليه عساكره، وفي ذي القعدة من السنة المذكورة، ٨١١ هـ/ ١٤٠٩ م سار إلى حلب حيث سينضم إليه نائبها دمرداش في ملاحقته لنوروز. وكان من نتائج ذلك، تقدير السلطان لخدماته ونقله من طرابلس إلى نيابة دمشق وتعيين دمرداش نائب حلب على طرابلس أيضاً في ٢٠ صفر ٨١٢ هـ/ ١٤٠٩ م[٣٩٦].

حاول السلطان تحييد عصيان شيخ، بخروجه لمحاربته في صرخد من جهة وباعطائه نيابة طرابلس من جهة أخرى مع الطلب من بكتمر بالحيلولة دون دخوله دمشق. ولكن شيخ تمكن من ذلك بالحيلة، وبدأ بتقليب أمراء المماليك ضد بكتمر وبالتقرب مجدداً من نوروز، والتحالف معه، مما اضطر السلطان لضرب هذا التحالف بتعيين نوروز على الشام[٣٩٧].

وفي عام ٨١٣ هـ/ ١٤١٠ م، كانت نيابة طرابلس ضمن إطار الصراع على السلطة، وعسكرها إلى جانب عسكر حلب وحماه ودمشق في لعبة الصراع هذه. وقد قادت لعبة الصراع هذه إلى تعيين السلطان نائباً جديداً على طرابلس هو يشبك الموساوي، الذي سرعان ما عزل عنها بسبب شكاية أهل طرابلس لسوء تصرفاته، فتعيين نائب آخر هو جانم في جمادى الآخرة من السنة المذكورة الذي اضطر لدخولها بعد حصار لها من قبل نائب قلعة المرقب، بسبب اعتصام مؤيدي شيخ فيها، وظلم أهلها بشكل سيء[٣٩٨]. وكانت النيابة مسرحاً لعمليات عسكرية كثيرة، إذ سار حيدر نائب قلعة المرقب من طرابلس على رأس عسكر منها ونزل على قلعة المرقب وبها بدر الدين حسين استادار الأمير شيخ وأولاد الأمير الكويثر، وسار تنكز نائب حصن الأكراد ومعه ابن إيمان بتركمانه لأخذها، ونزل علي بن حوجي ببيوته وحواشيه وتركمانه على مرج السلطان قرب صهيون. وكان السلطان قد ولّى بلبان ليأخذها من كزل، أحد أصحاب شيخ[٣٩٩].

وكان جانم يعدّ العدة لمقاتلة شيخ ونوروز، وسار مع جيشه وجيش بلاد الشام لتحقيق ذلك، ولكن شيخ ونوروز قطعا الطريق على ذلك بالدخول بطاعة السلطان، الذي عمل في نهاية ٨١٣ هـ/ ١٤١١ م إلى تعيين نوروز على طرابلس وشيخ على حلب وتغرى بردى على دمشق مشترطاً عليهما عدم تولية الإمارة والاقطاعات في إطار نيابتيهما إلا بأمر منه. وكالعادة وافق شيخ ونوروز على ذلك ظاهرياً، حتى إذا ما استقر الأمر لهما عادا إلى التصرف على هواهما وإعطاء الاقطاعات لجماعتهما في ربيع الأول من عام ٨١٤ هـ/ ١٤١١ م،

وضرب من يرفض الانصياع لقراراتهما؛ لذلك، وفي إطار نيابة طرابلس، عمد نوروز إلى استعمال القوة ضد قلعة صهيون وقلعة حصن الأكراد. فنزل نوروز على قلعة صهيون وحاصرها أياماً وصالحه أهلها على مال. ونائب صهيون قبض على نائب اللاذقية، وحاصر نوروز أيضاً حصن الأكراد[٤٠٠].

ثم بادر شيخ بالمجاهرة بالعصيان الكامل وطلب من نوروز اللحاق به، فسار السلطان إلى مقاتلتهما مروراً بطرابلس وبعلبك وحمص فحلب، حيث سينهزم في محرم سنة ٨١٥ هـ/ ١٤١٢ م، ويفتح الطريق أمام دخول شيخ ونوروز إلى دمشق وعزل السلطان الناصر الذي توفي في ١٧ من الشهر المذكور، وتعيين سودون الجلب نائباً على طرابلس، ثم نقله منها إلى حلب، وتعيين أحد الأمراء المدعو يشبك نائباً على النيابة المذكورة، ولكن وفاة سودون السريعة، جعلت نوروز يغيّر رأيه فيعمد إلى تعيين نائب للمرة الثالثة هو الأمير طوخ. وثار أهالي طرابلس على مباشري طوخ فقتلوا استاداره وولده وأخرجوا الحاجب بعدما جرح جراحات بالغة[٤٠١].

نصّب شيخ نفسه سلطاناً وحمل لقب الملك المؤيد في شعبان ٨١٥ هـ/ ١٤١٢ م، فحدثت في طرابلس في ذي الحجة فتنة ضد موظفي النائب، فأبدل بآخر هو قرقماش، ولكن ذلك لم يعجب نوروز، الذي طلب تبديل نيابات الشام وعمد إلى عزل نائب حلب وعيّن طوخ نائب طرابلس السابق عليها وقمش على طرابلس، فبادر شيخ إلى تعيين كزل نائباً على طرابلس وسار معه لقتال نوروز، فانتصر عليه وقتله في جمادى الأولى سنة ٨١٧ هـ/ ١٤١٤ م بعدما كان قد قتل قمش. وبنهاية هذه الأحداث عيّن سودون بن عبد الرحمن نائباً على طرابلس (١٤١٤ ـ ١٤١٥ م)[٤٠٢].

وفي جمادى الأولى ٨١٨ هـ/ ١٤١٥ م، عصى سودون على السلطة وانضم إلى نواب دمشق وحلب وحماه وغزة، فعزله السلطان شيخ وعيّن مكانه يشبك اليوسفي، الذي نقل إلى حلب وعين مكانه برد بك الخليلي في رجب سنة ٨٢٠ هـ/ ١٤١٧ م، الذي أساء معاملة أهالي طرابلس، الذين رفضوا نيابته ومنعوه من

العودة إلى مركز النيابة، فاستلم مقدرات المدينة قاضيها الحنبلي، ابن الحبّال لحين تعيين نائب جديد في ٢٣ ربيع الآخر عام ٨٢١ هـ/ ١٤١٨ م، كان برسباي الدقماقي الذي حاول الاقتصاص من التركمان، من جهة بسبب قيامهم بأعمال عصيان في النيابة، ومن جهة أخرى بسبب طمعه بماشيتهم. ولكن التركمان انتصروا عليه وسلبوا عسكره وفتكوا بعدد منه فاضطر السلطان لعزله وتعيين سودن القاضي نائباً على نيابة طرابلس مكانه. ولئن لم يحالف الحظ برسباي بطرابلس، فقد كان بانتظاره في القاهرة حيث سيصبح سلطاناً بعد وفاة المؤيد شيخ في عام ١٤٢٢ م وحتى عام ١٤٣٨ م[٤٠٣].

ومن الأحداث التي تدخل أيضاً في إطار بلاد الشام ما جرى في السنوات الآتية، وكان لطرابلس دور فيها:

في عام ٨١٩ هـ/ ١٤١٦ م تعرضّت قلعة الخوابي، التي كانت إحدى قلاع الإسماعيلية لهجوم من نائب حلب الذي أخذها عنوة وأخربها حتى صارت بالأرض[٤٠٤] وفي عام ٨٢٢ هـ/ ١٤١٩ م شارك عسكر طرابلس مع العساكر المرسلة من السلطان في محاربة ابن قرمان في جبل لارندة. وكان على رأس جيش طرابلس نائبها سودون[٤٠٥] وفي عام ٨٤٢ هـ/ ١٤٣٨ م هاجم تغري برمش، نائب حلب، طرابلس ومعه الأمير طُر علي بن صفد سبز التركماني، فلما قرب من المدينة لم يثبت الأمير جلبان وانهزم منها إلى نحو الرملة[٤٠٦].

وفي العام نفسه توجه نائب طرابلس قاني باي إلى حلب صحبة العساكر المصرية وجلبان نائب حلب وغيرهم لمحاربة تغري برمش[٤٠٧]. في عام ٨٤٣ هـ/ ١٤٣٩ م قدم عسكر من طرابلس، فنازل قلعة الكهف ومدينتها وبها إسماعيل بن العجمي أمير الإسماعيلية، وبعد عدة أيام أخذها وهدمها وسوّى الأرض بها فزالت القلعة وكانت أحد الحصون المنيفة. وكان ذلك بسعاية ناصر الدين محمد، وحجي وفرج، أولاد عز الدين، الداعي الإسماعيلي. وانعم على إسماعيل بامرة في طرابلس[٤٠٨]. في عام ٨٧٢ هـ/ ١٤٦٧ م قتل قانباي

الحسني المؤيدي شيخ، نائب طرابلس في كائنة سوار. وكان قد ناهز السبعين من عمره، وقتل غيره أيضاً من أمراء طرابلس[٤٠٩].

في عام ٨٨٤ هـ/ ١٤٥٣ م انتقل برد بك المعمار نايب صفد نهار الاثنين ١٦ ربيع الأول إلى طرابلس نايباً بها. ولكنه قتل في العام التالي مع الأمير يشبك الباش الدوادار على يد العرب. وأسر نايب الشام قانصوه اليحياوي.. وكانوا من الظلم مخذولين[٤١٠].

في عام ٨٨٥ هـ/ ١٤٨٠ م شهر شوّال جرت كاينة الرها التي قتل فيها الأمير يشبك الدوادار وانكسر العسكر. وكان بصبحة يشبك؛ برد بك نائب طرابلس إضافة إلى النواب الشاميين الآخرين وعسكراً مصرياً[٤١١].

في عام ٨٨٩ هـ/ ١٤٨٤ م وقع القتال في ١٨ رمضان بين علي دولة، شاه سوار، وبين العسكر الشامي والمصري، فقتل نايب حلب ونايب صفد ومسك نايب طرابلس، وقتل خلق كثير من عسكر علي دولة، فاضطر للهرب ومعه جماعة من عسكر السلطان ابن عثمان[٤١٢]. وفي العام ذاته أطلق علي دولاة في ذي القعدة، اينال السلحدار نائب طرابلس الذي كان مأسوراً عنده[٤١٣].

في عام ٩٠٤ هـ/١٤٩٨ م وصل الأمير أركماس كافل طرابلس إلى مسطبة السلطان ببرزة، مستحثاً عسكر الشام للذهاب إلى ناحية المملكة الحلبية بسبب حصار حلب[٤١٤].

في عام ٩٠٥ هـ/ ١٤٩٩ م العساكر السلطانية تمسك النواب العصاة على السلطان ومنهم نايب طرابلس[٤١٥]. وفي العام نفسه استولى قصروه نائب الشام على طرابلس وقبض على نائبها بلباي المؤيدي وسجنه بقلعة دمشق[٤١٦].

وبالختام، يمكن القول، إن نيابة طرابلس لم تعرف السكون في العهد المملوكي إلا لماماً. فما كادت تنتهي من الفتوحات وتستقرّ أوضاعها مع السلاطين الأوائل، حتى عاد اللااستقرار إليها مع الحملات العسكرية خارج إطار النيابة، والحروب الأهلية الداخلية، خاصة في الدولة المملوكية الثانية.

وفي هذا الإطار الجيوسياسي، كان مجتمع نيابة طرابلس ينمو، فتتجذر معه أسس الكيانات الطائفية التي ستكون من أحد جذور البنية الإجتماعية في لبنان وسوريا الحاليين.

هوامش الفصل الأول

(١) د. علي فاعور: «مدينة طرابلس، الموضع وخصائص المكان»، مجلة **حنون**، ١٣ ـ ١٤ (١٩٧٨ ـ ١٩٧٩)، ص ٧ ـ ٢٥، ص ٩.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) المرجع نفسه.

(٥) المرجع نفسه، ص ٩ ـ ١٠. J. RICHARD, op. cit., p. 1

(٦) المرجع نفسه، ص ٩ ـ ١٠.

(٧) المرجع نفسه، ص ١٠ ـ ١١.

(٨) المرجع نفسه، ص ١١.

(٩) المرجع نفسه، ص ١١.

(١٠) المرجع نفسه، ص ١١ ـ ١٢.

(١١) المرجع نفسه، ص ١٢ ـ ١٣. J. RICHARD. op. Cit. p. 1

(١٢) المرجع نفسه، ص ١٦ ـ ١٧.

(١٣) المرجع نفسه، ص ١٩.

(١٤) المرجع نفسه، ص ٢١ ـ ٢٣.

(١٥) Paul SANLAVILLE, «La personnalité géographique de la syrie», in *La syrie d'aujourd'hui*, CNRS, 1980, pp. 22 - 23. Voir aussi RICHARD, op, dit, p.1

(١٦) SANLAVILLE, op. cit, p. 22.

(١٧) Ibid., p. 22.

(١٨) Ibid., p. 23.

(١٩) Ibid., 2 - 3.

(٢٠) ابن فضل الله العمري، **التعريف بالمصطلح الشريف**، مصر، ١٣١٢ هـ، ص ١٨٢. ولفظة الأسل قد ترد الأسد في بعض المصادر. وبعض الشروحات يعطيها معنى الغزّار، ويحددها بالسهل الواسع فوق المنبع الكبير للعاصي، أو ما يعرف حالياً بالمرج.

راجع: GAUDEFROY - DEMOMBYNES, *La syrie à l'époque des Mamelouks d'après les auteurs arabes*, Paris, 1923, p. 112.

(٢١) القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، طبعة دار الكتب المصرية، ١٤ جزءاً، القاهرة، ١٩٦٣، ج ٤، ص ٨٠.

(٢٢) ابن الشحنة، **الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب**، بيروت، ١٩٠٩، ص ١٧٥ ـ ١٧٦.

(٢٣) القلقشندي، المصدر المذكور، ج ٤، ص ٨٥.

(٢٤) RICHARD, op. cit, 2 - 3.

(٢٥) ابن شاهين الظاهري، **كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك**، طبعة بولس راويس، باريس، ١٨٩٣، ص ٤٨.

(٢٦) ابن تغرى بردى، **النجوم الزاهرة**، ١٦ جزءاً، القاهرة ١٩٦٣، ج ٧، ص ١٠٢ ـ ١٠٣، ١٠٥.

(٢٧) محيي الدين بن عبد الظاهر (ت ١٢٩٢)، **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر**، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٩٧٦، ص ١١٧، المقريزي، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، ١٤ جزءاً، تحقيق محمد مصطفى زياده، دار الكتب المصرية، ج ١، ١٩٣٤، ج ١، ص ٤٦٢.

(٢٨) ابن عبد الظاهر، **الروض**،المصدر المذكور، ص ١٢٧ ـ ١٢٨. المقريزي **السلوك**، المصدر المذكور، ج ١، ص ٤٧٠. والطواشي لفظ كان يعني الخصي والخدم، ثم جرى التصرف به فأصبح مرادفاً لكلمة جندي. انظر المقريزي، **الخطط والآثار**، تحقيق غاستون فيت، ٥ مجلدات، القاهرة ١٩١١ ونسخة بولاق ١٢٧٠ هـ.، ج ١، ص ١٥٩، ج ٣، ص ٣٤٣. أيضاً انظر خاطر، **معجم**، ص ٣٩٤.

(٢٩) ابن عبد الظاهر، **الروض**، المصدر المذكور، ص ١٥٧. والدعوة تعني الإسماعيلية. انظر المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ١، ٤٨٧ـ ٤٨٨.

(٣٠) أحمد حطيط، **تاريخ لبنان الوسيط، دراسة في مرحلة الصراع المملوكي ـ الصليبي**، دار البحار، بيروت، ١٩٨٦، ص ٥٧.

(٣١) المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ١، ص ٤٧٢.

(٣٢) ابن عبد الظاهر، **الروض**، المصدر المذكور، ص ٢٥١.

(٣٣) المصدر نفسه، ص ٢٥١ ـ ٢٥٢. راجع أيضاً، الملك المؤيد إسماعيل أبي الفداء (ت ١٣٣٢ م)، **المختصر في أخبار البشر**، ٤ مجلدات، دار الطباعة الشاهانية، القسطنطينية، ١٢٨٦ هـ/ ١٨٥١ م، المجلد الرابع، ص ٣. ونصّ الكتاب لغاية سنة ٧٠٩ هـ مطبوع كما هو في نسخة الأصل، وابتداء من سنة ٧١٠ هـ، منقول عن النسخة المطبوعة في أوروبا، وابتداء من سنة ٧٣٠ هـ منقول عن تذييل ابن الوردي، ج ٤، ص ١٦٠. راجع أيضاً: ابن الوردي (ت ١٣٤٩ م)، **تاريخ ابن الوردي**، أو **تتمة المختصر في أخبار البشر**، جزءان، القاهرة، ١٨٦٨ م، ج ٢، ص ٢١٨. ابن الفرات (ت ١٤٠٥ م)، **تاريخ ابن الفرات**، تحقيق قسطنطين زريق، المجلد السابع، المطبعة الأميركانية، بيروت، ١٩٤٢، ص ٨٢. المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ١، ص ٥٤٥. اسطفان الدويهي (ت ١٧٠٤ م) **تاريخ الأزمنة**، طبعة بطرس فهد، دار لحد خاطر، بيروت، ١٩٨٣، ص ٢٤٩، ولا نجد عند هذا البطريرك الماروني ذكرا لفتح حلبا إلا في باب تعداده لفتوحات بيبرس بعد وفاته، ص ٢٥٤. محمد علي مكي، **لبنان من الفتح العربي إلى الفتح الإسلامي ٦٣٥ ـ ١٥١٦**، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧٧، ص ٢٠٢. ولا نجد ذكراً لهذه الفتوحات عند ابن كثير، في **البداية والنهاية**، وسيأتي ذكره لاحقاً. ويذكر ابن تغرى بردى، أن السلطان أرسل عسكراً بقيادة سيف الدين قلاوون للإغارة على بلاد الساحل ومنها طرابلس وحصن الأكراد، فسبوا وغنموا ما لايحصى، **النجوم**، المصدر المذكور، ج ٧، ص ١٣٨.

(٣٤) الدويهي، **الأزمنة**، المصدر المذكور، ص ٢٤٩.

(٣٥) ابن عبد الظاهر، **الروض**، المصدر المذكور، ص ٢٤٥، ٣٠٠ المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ١، ص ٥٤٣. ويخبر ابن تغرى بردى ان بيبرس سار إلى طرابلس فشن عليها الغارة وأخرب قراها وقطع أشجارها وغوّر أنهارها، بعد غارة قلاوون المذكور، المصدر المذكور، ج ٧، ص ١٤٣.

(٣٦) ابن عبد الظاهر، **الروض**، المصدر المذكور، ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦ المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ١، ص ٥٤٦ ـ ٥٥٠.

(٣٧) ابن عبد الظاهر، المصدر نفسه، ص ٢٦٦. المقريزي، **السلوك**، المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٥٠. ويقصد بالأسبتار Les Hospotaliers الفرسان الصليبيين. وعن الإقطاع، قطيعة، قطائع، يراجع مقالتنا في مجلة حنون «Quelques aspects de l'istitution de l'iqṭā' au Liban à la fin du Moyen Age... HANNON, 1978 - 1979. pp 141 - 164.

(٣٨) ابن عبد الظاهر، المصدر نفسه، ص ٢٦٧. وهذه الروايات تقترب من الأخبار المارونية، ولكن لا نعرف ما دخل المسلمين بها وقتذاك.

(٣٩) ابن عبد الظاهر، المصدر نفسه، ص ٢٧٤. المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ١، ص ٥٥٧.

(٤٠) ابن عبد الظاهر، المصدر نفسه، ص ٢٨٣. المقريزي، **السلوك**، المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٦٠. القلقشندي، **صبح**، المصدر المذكور، ج ١٤، ص ٣١ ـ ٣٩.

(٤١) ابن عبد الظاهر، المصدر نفسه، ص ٢٥٢.

(٤٢) حطيط، المرجع المذكور، ص ٥٨.

(٤٣) J. PRAWER, *Histoire du royaume latin de Jérusalem*, Trad, de l'hébreux par G. NAHON, T. II, éd. du C. N. R. S. 5 ème éd. Paris. 1975, p. 482.

(٤٤) ابن عبد الظاهر، **الروض**، المصد المذكور، ص ٢٩٩ ـ ٣٠٥. المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ١، ص ٥٦٦. وفي تحليل لتدمري: البرج المذكور هو حصن صنجيل، هذا مع العلم بأن النّص الذي أخذ عنه معلوماته يستفيض في الكلام على حصن صنجيل وعندما يصل إلى ذكر فتح هذا البرج يمرّ عليه بشكل ثانوي، مما يزعزع صحة استقراء تدمري، ج ١، ص ٥٥٦ ـ ٥٥٨، علماً بأن ابن عبد الظاهر، المذكور أعلاه، يفرّق دائماً بين لفظتي البرج والحصن. راجع أيضاً مكي، المرجع المذكور، ص ٢٠٢.

(٤٥) اليونيني، **ذيل مرآة الزمان**، ٤ أجزاء، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ١٣٧٤ ـ ١٣٨٠ هـ/ ١٩٥٤ ـ ١٩٦١ م، ج ٢، ص ٣٨٢. الذهبي، **دول الإسلام**، جزءان، حيدر آباد، ١٣٦٤ هـ/ ١٩٤٥ م، ج ٢، ص ١٧٠؛ ابن تغرى بردى، **النجوم الزاهرة**، ج ٧، ص ١٤٢. وقد ورد ذكر هذه الرواية في أحداث ٦٦٤ هـ. الدويهي، **الأزمنة**، المصدر المذكور، ص ٢٥١.

(٤٦) ابن عبد الظاهر، **الروض**، المصدر المذكور، ص ٤٧. الدويهي، **الأزمنة**، المصدر المذكور، ص ٢٥١، ٢٦١، ٢٦٥. ولقد أخطأ الدكتور تدمري في اعتماده على كتاب منسوب إلى الدويهي، يحمل اسم **تاريخ الطائفة المارونية**، عملت فيه يد رشيد الشرتوني تصحيحاً للنصّ وإضافات من كتب مختلفة، وكان عليه العودة إلى تاريخ الأزمنة بإحدى طبعتيه لفرد يناند توتل أو الأباتي بطرس فهد، إذ ذاك لربما كان وفّر عليه هذا الخطأ. راجع أيضاً، الصليبي، **منطلق تاريخ لبنان**، منشورات كارافان، نيويورك ١٩٧٩، ص ١١٨ ـ ١١٩.

(٤٧) تدمري، **تاريخ طرابلس**، المرجع المذكور، ١، ص ٥٧٤.

(٤٨) ابن عبد الظاهر، **الروض**، المصدر المذكور، ص ٣٠٦. المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ١، ص ٥٦٦.

(٤٩) ابن عبد الظاهر، المصدر نفسه، ص ٣٣١.

(٥٠) ابن عبد الظاهر، **الروض**، المصدر نفسه، ص ٣٤٨. اليونيني، **ذيل**، ج ٣، ص ٢٦. وهو يجعل وفاة مظفر الدين في عام ٦٥٩ هـ، وقد خلفه ابنه محمد بن عثمان بن منكورس أو سيف الدين المتوفي في ٦٧١ هـ الذي جاء بعده ابنه سابق الدين وعمه عز الدين في حكم صهيون وبرزيه. المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٥ ـ ٢٦، ٢٤٤، ٢٥٦. وفي مكان آخر، يجعل وفاة سيف الدين في ٦٧٢ هـ؛، ص ٣٠. وقد ورد اسم صاحب صهيون عز الدين عثمان في مصادر أخرى كأبي الفداء، **المختصر**، المصدر المذكور، م ٤، ص ٧٥. ابن الوردي، المصدر المذكور، ج ٢، ص ٢١٩. المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ص ٥٧٩. وفي **النجوم**، ج ٧، ص ١٤٦ تسلّمها الملك الظاهر بن عز الدين أحمد بن مظفر الدين عثمان، وتسلّم معها منه قلعة كرابيل (مجهول) وعوضه غيرهما قرية تعرف بالخميلة من أعمال شيزر.

(٥١) ابن عبد الظاهر، **الروض**، المصدر نفسه، ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦. أبو الفداء، المصدر نفسه،

ج ٤، ص ٦. ابن الوردي، المصدر المذكور، ج ٢، ص ٢١٩. المقريزي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٨٦ ـ ٥٨٧. وهو يورد توجّه صارم الدين، وهو صهر نجم الدين، في ١٧ جمادى، ويذكر بأن مصياف وبلادها كانت خاصاً للسلطان، ويجعل هذه الأحداث قبل سقوط حصن الأكراد. راجع أيضاً: الدويهي، **الأزمنة**، ص ٢٥١. وقد ورد عنده، نقلاً عن ابن الحريري، أن المشغراني دفع مئة ألف درهم. ولمزيد من التفاصيل عن تسلّم بلاد الإسماعيلية، تراجع الصفحات اللاحقة. ونجم الدين المذكور أعلاه هو حسن نجم الدين بن الشعراني، توفي في شهر رجب ٦٧٢ هـ بخزانة البنود. ابن شداد، **تاريخ الملك الظاهر**، تحقيق أحمد حطيط، فسبادن، ١٩٨٣، ص ٣٧، ٨٨ اليافعي، **مرآة الجنان**، ج ٤، ط ١. حيدر آباد ١٣٣٩ هـ، ط ٢، منشورات الأعلمي، بيروت ١٩٧٠، ص ١٦٧.

(٥٢) ابن عبد الظاهر، **الروض**، ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥، ٣٧٥ ـ ٣٧٦، ٣٧٩ ـ ٣٨٢. اليونيني، **ذيل**، ج ٢، ص ٤٤٨ ـ ٤٥٠. أبو الفداء، **المختصر**، ج ٤، ص ١٠٦. إبن أبي الفضائل، **النهج السديد**، نشر بلوشيه، باريس، ١٩١٩ ـ ١٩٢٩، ص ٥٢٧ ـ ٥٢٩، ٥٣٢ ـ ٣٥٣ ابن كثير، **البداية والنهاية**، مطبعة السعادة، ١٤ جزءاً، القاهرة ١٣٥٨، ج ١٣، ص ٢٥٩، المقريزي، **السلوك**، ج ١، ص ٥٩٠ ـ ٥٩١. ابن تغرى بردى، **النجوم**، ج ٧، ص ١٤٨، ١٥٠ ـ ١٥٢.

(٥٣) ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**، تحقيق سامي الدهان، منشورات المعهد الفرنسي بدمشق، ١٩٦٢، ج ٢، ق ٢، ص ١١٦ ـ ١١٨.

(٥٤) ابن كثير، المصدر المذكور. ابن تغرى بردى، المصدر المذكور. وفي تحليل لـ «م. بالار»، تمكّن السلطان بيبرس من أخذ حصن الأكراد، الذي كان يستوعب ألفي شخص، بواسطة رسالة كاذبة أرسلها إلى المدافعين عنه. M. BALARD, «Des châteaux forts en palestine», in *Les croisades*, L’histoire, Seuil, No 47 (1982), pp. 94 - 101.

(٥٥) ابن كثير، المصدر نفسه، ص ٢٥٩. وقد ورد ذكر هذه القلعة الإسماعيلية تحت اسم القليعة في أخبار سنة ٦٧١ هـ في: عز الدين بن شداد، **تاريخ الملك الظاهر**، ص ٣٧، الذي يذكر أن نواب السلطان تسلموا الخوابي والقليعة، ولم يبق بيد الإسماعيلية سوى الكهف والقدموس والمينقه، ويمكن تأكيد معلومات ابن كثير بالرجوع إلى اليونيني المعاصر للأحداث، **ذيل**، المصدر المذكور، ج٢، ص ٤٥٠. ابن تغرى بردى، **النجوم**، المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٥١ ـ ١٥٢.

(٥٦) اليافعي، **مرآة الجنان**، المصدر المذكور، ص ١٧٠، ابن تغرى بردى، **النجوم**، المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٥٢، وفي اليونيني فتح حصن الأكراد، وحصن عكّار، والقرين عنوة، ومرقية وحلبا، **ذيل**، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٥٥.

(٥٧) ابن عبد الظاهر، **الروض**، المصدر المذكور، ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥. المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ١، ص ٥٨٦. ابن تغرى بردى، **النجوم**، المصدر نفسه ج ٧، ص ١٤٨.

(٥٨) ابن عبد الظاهر، **الروض**، المصدر نفسه ص ٣٧٤ ـ ٣٨٤.

(٥٩) أبو الفداء (ت ١٣٣١ م)، **المختصر أو تاريخ الملك المؤيد**، المصدر المذكور، ج ٤، ص ٦ ـ ٧.

(٦٠) ابن عبد الظاهر، **الروض**، المصدر المذكور، ص ٣٧٥ ـ ٣٧٦.

ومن مصادر هذا الفتح، يراجع، إضافة إلى ما ذكر:

ـ ابن الوردي، المصدر المذكور، ج ٢، ص ٢٢٠.

ـ ابن الفرات، **تاريخ**، المصدر المذكور، ج ٧، ص ٨٢.

ـ المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ١، ص ٥٩٠ ـ ٥٩٢، وهو يروى أن السلطان، بعد تسلّمه لصافيتا، تسلّم الحصون والأبراج المجاورة لحصن الأكراد، مثل تل خليفة وغيره.

ـ اسطفان الدويهي، الأزمنة، المصدر المذكور، ص ٢٥٢، ٢٥٤.

(٦١) المقريزي، **السلوك**، المصدر نفسه ج ١، ص ٥٩٣.

(٦٢) ابن عبد الظاهر، **الروض**، المصدر المذكور، ص ٣٨٣، ٤٤٥ ـ ٤٤٧. ابن كثير، **البداية**، المصدر المذكور، ج ١٣، ص ٢٥٩. ابن أبي الفضائل، **النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد**، نشر بلوشيه، باريس ١٩١١ ـ ١٩٣٠، ص ٥٣٤ ـ ٥٣٥. المقريزي، **السلوك**، ج ١، ص ٥٩١ ـ ٥٩٢. ابن تغرى بردى، **النجوم**، المصدر المذكور، ج ٧، ص ١٥٢. حطيط، المرجع المذكور، ص ٦٤.

(٦٣) القلقشندي، **صبح**، المصدر المذكور ج ١٤، ص ٤٢ ـ ٥١.

(٦٤) حطيط، المرجع المذكور، ص ٦٤ ـ ٦٨.

(٦٥) اليونيني، **ذيل**، المصدر المذكور، ج ٣، ص ٦ ـ ٧. أبو الفداء، **المختصر**، المصدر المذكور، ج ٤، ص ٧، وفي نصّه اضطراب لجهة ضبط السنة. ابن كثير، **البداية والنهاية**، المصدر المذكور، ج ١٣، ص ٢٦٤، وقد وردت لديه تسمية «المنطقة» بدلاً عن «المينقه». ابن الفرات، **تاريخ**، المصدر المذكور، ج ٧، ص ٨٢. ابن الوردي، المصدر المذكور، ج ٢، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١. الدويهي، **الأزمنة**، المصدر المذكور، ص ٢٥١.

(٦٦) ابن عبد الظاهر، **الروض**، المصدر المذكور، ص ٣٨٤. أبو الفداء، **المختصر**، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٦ ـ ٧. ابن الوردي، المصدر المذكور، ج ٢، ص ٢٢٠. المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ١، ص ٥٩٣، ٥٩٩.

(٦٧) ابن عبد الظاهر، **الروض**، المصدر نفسه، ص ٣٩٠.

(٦٨) المصدر نفسه، ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦. أبو الفداء، **المختصر**، المصدر المذكور، ج ٤، ص ٧. ابن الوردي، المصدر المذكور، ج ٢، ص ٢٢١. ولفظة طبلخاناه تعني مقدم أربعين. وعندما يصبح الأمير في هذه المرتبة يحق له أن تضرب الموسيقى أمامه. وفي اليونيني، سلمت في ٦٧١هـ بعد وفاة صاحبها محمد بن عثمان بن منكورس بن جردكين

أبو عبد الله الأمير سيف الدين ابن الأمير مظفر الدين بن ناصر الدين بن بدر الدين. وكان تملك صهيون بعد وفاة أبيه الأمير مظفر الدين في ٦٥٩ هـ ولم يزل مستقلاً بصهيون إلى أن توفي في ٦٧١ هـ بعدما تملكها ١٢ سنة. وتسلم صهيون مكانه وكذلك برزيه ولده سابق الدين فكاتب السلطان بيبرس وحضر إليه فسلمه القلعة فأعطاه السلطان بدلاً عن ذلك خبز ٤٠ فارس واقطع عمه جلال الدين مسعود ١٠ طواشية وعمه الأخر مجاهد الدين ١٠ طواشية وتسلم صهيون وبرزيه، اليونيني، المصدر المذكور، ج ٣، ص ٢٥ ـ ٢٦، ٣٠.

(٦٩) المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ١، ص ٦٠٨. وتجدر الملاحظة أن رواية المقريزي في الصفحتين ٥٨٦ ـ ٥٨٧ عن تسليم قلاع الإسماعيلية فيها الكثير من الاضطراب.

(٧٠) ابن عبد الظاهر، **الروض**، المصدر المذكور، ص ٣٩٣ ـ ٣٩٤، ٤٠٥. راجع أيضاً حول مسألة تسليم قلاع الإسماعيلية، ابن شداد، **تاريخ**...، المصدر المذكور، ص ٣٧، ٦٠، ٧٠، ٨٨.

(٧١) ابن عبد الظاهر، **الروض**، المصدر نفسه، ص ٤١١ ـ ٤١٤.

(٧٢) المصدر نفسه، ص ٤٤٥ ـ ٤٤٦. ابن الفرات، **تاريخ**، المصدر المذكور، ج ٧، ص ٣٥.

(٧٣) المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ١، ص ٥٥٧، ٥٦٠، ٥٨٦ ـ ٥٨٧.

(٧٤) المصدر نفسه ج ١، ص ٦١٩.

(٧٥) ابن الفرات، **تاريخ**، المصدر المذكور، ج ٧، ص ١٥٤، ١٦٨، ١٧٢.

(٧٦) أبو الفداء، **المختصر**، المصدر المذكور، ج ٤، ص ١٣ ـ ١٤. ابن الفرات، **تاريخ**، المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٧٠، ١٧٢، ١٨٦.

(٧٧) اليونيني، **ذيل**، المصدر المذكور، ج ٤، ص ٨٨. ابن عبد الظاهر، **تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور**، تحقيق مراد كامل، وزارة الثقافة، القاهرة، ١٩٦١، ص ٨٧. أبو الفداء، **المختصر**، ج ٤، ص ١٥. ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٢٧. ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٠٩، ٢١٤، ٢٢١، ٢٨٣. المقريزي، **السلوك**، ج ١، ص ٦٨٧. الدويهي، **الأزمنة**، المصدر المذكور، ص ٢٥٨.

(٧٨) ابن شداد، المصدر المذكور، ج ٢، ق ٢، ص ٩٥.

(٧٩) ابن عبد الظاهر، **الروض**، المصدر المذكور، ص ٤٤٦. ابن الفرات، **تاريخ**...، المصدر المذكور، ج ٧، ص ٣٤.

(٨٠) ابن عبد الظاهر، المصدر نفسه، ص ٤٤٥ ـ ٤٤٦. ابن الفرات، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٣٤.

(٨١) ابن عبد الظاهر، المصدر نفسه، ص ٤٤٦.

(٨٢) ابن عبد الظاهر، **الروض**، المصدر نفسه، ص ٣٧٧، ٤٤٦، الجزري، **حوليات** (منشورة

بالفرنسية)، جان سوفاجيه، باريس ١٩٤٩، ص ٢٨. ابن الفرات، **تاريخ**، المصدر المذكور، ج ٧، ص ٣٤، ٦٢. ويؤكد المقريزي أن الكافري كان أول نائبٍ للسلطنة في حصن الأكراد؛ **السلوك**، المصدر المذكور، ج ١، ص ٦٢٤. راجع أيضاً، ابن شداد، **تاريخ** المصدر المذكور، ص ٢٤١، الذي يذكر اسمه قايماز، الذي ولي بعد موته عز الدين أيبكِ الموصلي الذي نقل إلى الحصن في حمص.

(٨٣) ابن عبد الظاهر، **تشريف**، المصدر المذكور، ص ٦٠. ابن الفرات، **تاريخ**، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٨٢، ١٦١، ١٦٧، ١٩٥.

(٨٤) ابن عبد الظاهر، **الروض**، المصدر المذكور، ص ٣٨٣. ابن الفرات، **تاريخ**، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٤٠. المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ١، ص ٦٦٩.

(٨٥) عز الدين ابن شداد، **تاريخ**، المصدر المذكور، ص ٣٢٦.

(٨٦) ابن عبد الظاهر، **تشريف**، المصدر المذكور، ص ٨٠. أبو الفداء، **المختصر**، المصدر المذكور، ج ٤، ص ١٤. ابن الوردي، المصدر المذكور، ج ٢، ص ٢٢٨. المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ١، ص ٦٨٤.

(٨٧) ابن الفرات، **تاريخ**، المصدر المذكور، ج ٧، ص ١٦٧، ١٩٥.

(٨٨) ابن الفرات، **تاريخ**، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٢١٥ ـ ٢١٦. المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ١، ص ٦٩٢.

(٨٩) ابن عبد الظاهر، **تشريف**، المصدر المذكور، ص ٨٠. ابن الفرات، **تاريخ**، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٦. اليونيني، **ذيل**، المصدر المذكور، ج ٤، ص ٨٦.

(٩٠) ابن عبد الظاهر، **تشريف** المصدر المذكور، مقدمة المحقق، ص ٤٥. وقد اعتمد قلاوون على ما كان قد بدأ به بيبرس من معاهدات سنعود إليها عما قليل، ونجد المعلومات عنها في المصادر المعاصرة مثل ابن عبد الظاهر، **الروض**، ص ٢٨٣، اليونيني، **ذيل**، ج ٢، ص٤٥٠. المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ١ ص ٦٨٥، ٩٧٤ ـ ٩٧٧، ٩٨٥ ـ ٩٩٧.

(٩١) ابن عبد الظاهر، **تشريف**، المصدر نفسه، ص ٨٢ ـ ٨٣، ٢١٠ ـ ٢١١. ابن الفرات، المصدر المذكور، ج ٧، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦. المقريزي، **السلوك**، المصدر نفسه، ج ١، ص ٩٧٤ ـ ٩٧٧.

(٩٢) ابن عبد الظاهر، **تشريف** المصدر نفسه، ص ٢٠ ـ ٢٢.

(٩٣) راجع المصدر نفسه، ص ٣٤ ـ ٤١. المقريزي **السلوك**، المصدر المذكور، ج ١، ص ٩٨٥ ـ ٩٩٧. ويلاحظ في نص ابن عبد الظاهر عن هذه المعاهدة تخصيص لنوعية السكان الموجودين في ممالك السلطان والمكوّنين من عسكر وعرب وتركمان وأكراد ورعايا على اختلاف الأجناس، ص ٤٠. كما ورد ذكر لهوية السكان في معاهدة سنة ١٥٩٦ للإسكندر التي نجد فيها أن رعايا السلطان كانوا من: «عساكر وجنود وجيوش

وحشود وتركمان وأكراد وعرب ومسلمين ونصارى وسائر طوائف الناس». كما يضيف لفظة «الفلاحين» في أحد نصوص المعاهدات إلى مجموع رعايا السلطان، المصدر نفسه، ص ١٠٥.

(٩٤) اعتمدنا في هذا الإيجاز على ما ورد عند أحمد حطيط، المرجع المذكور، ص ٦٥.

(٩٥) حطيط، المرجع المذكور، ص ٧٣ ـ ٧٤.

(٩٦) ابن عبد الظاهر، **تشريف**، المصدر المذكور، ص ٤٧. ومن المؤسف أن يكون محقق الكتاب قد وقع في خطأ جسيم إذ اعتبر أن المقصود بالحدث القلعة القائمة بين ملطية وسميساط ومرعش والمعروفة بالحمراء، راجع حاشية رقم ٢ ص ٤٧، بينما الأمر واضح لأن المذكورة هنا تقع في بلاد طرابلس وهي قرية حدث الجبة في شمالي لبنان. ابن الفرات، المصدر المذكور، ج ٧، ص ٢٧٧، لم يوضّح أن البطريرك أحضر إلى الأبواب السلطانية. راجع أيضاً: كمال الصليبي، **منطلق**، المرجع المذكور، ص ١١٩. تدمري، **تاريخ طرابلس**، ج ١، ص ٥٧٤ يجعل اسم القرية حدشيت نقلاً عن بيبرس المنصوري وابن الفرات ومحيي الدين الظاهري.

(٩٧) المقريزي، **السلوك**، ج ١، ص ٥٦٦.

(٩٨) الدويهي، **الأزمنة**، المصدر المذكور، ص ٢٦١، راجع التفاصيل في باب الحملات على بلاد الموارنة. انظر أيضاً: مكي، المرجع المذكور، ص ٢٠٤.

(٩٩) ابن عبد الظاهر، **سيرة**، المصدر المذكور، ص ٧٧ ـ ٨٧. وفي حاشية للمحقق نقلاً عن ابن الفرات، ج ٨، ص ١٨، أن الملك المنصور جهّز أهل الحصن وأعماله ومرقبه إلى طرابلس. وقد جاء في ابن كثير، أن الفتح تمّ في يوم الجمعة ثامن عشر صفر، **بداية**، المصدر المذكور، ج ١٣، ص ٣٠٥. كما جاء عند أبو الفداء، أن الفتح تم في ١٩ ربيع الأول، **المختصر**، المصدر المذكور، ج ٤، ص ٢٢. وكذلك ابن الوردي، المصدر المذكور، ج ٢، ص ٢٣٣. كما جاء عند ابن الفرات، أن الفتح تمّ في أوايل شهر ربيع الأول، **تاريخ**، المصدر المذكور، ج ٨، ص ١٨. ولكنه جهّز أهل الحصن إلى طرابلس. المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ١، ص ٧٢٧ ـ ٧٢٨. الدويهي، **الأزمنة**، المصدر المذكور، ص ٢٦٣، وقد جعل الأباتي فهد موقع المرقب في لبنان، وهذا خطأ.

(١٠٠) ابن كثير، **البداية**، المصدر المذكور، ج ١٣، ص ٣٠٥.

(١٠١) ابن تغرى بردى، **النجوم**، المصدر المذكور، ج ٧، ص ٣١٦.

(١٠٢) ابن عبد الظاهر، **تشريف** المصدر المذكور، ص ٨٧ ـ ٩٠. في رواية لابن الوردي يترجم فيها لحياة بيبرس يرد ذكر صافيتا ومرقيه ضمن الحصون التي افتتحها هذا السلطان، راجع ابن الوردي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٢٥.

(١٠٣) اليونيني، **ذيل**، المصدر المذكور، ج ٤، ص ٨٨.

بالفرنسية)، جان سوفاجيه، باريس ١٩٤٩، ص ٢٨. ابن الفرات، **تاريخ**، المصدر المذكور، ج ٧، ص ٣٤، ٦٢. ويؤكد المقريزي أن الكافري كان أول نائب للسلطنة في حصن الأكراد؛ **السلوك**، المصدر المذكور، ج ١، ص ٦٢٤. راجع أيضاً، ابن شداد، **تاريخ** المصدر المذكور، ص ٢٤١، الذي يذكر اسمه قايماز، الذي ولي بعد موته عز الدين أيبك الموصلي الذي نقل إلى الحصن في حمص.

(٨٣) ابن عبد الظاهر، **تشريف**، المصدر المذكور، ص ٦٠. ابن الفرات، **تاريخ**، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٨٢، ١٦١، ١٦٧، ١٩٥.

(٨٤) ابن عبد الظاهر، **الروض**، المصدر المذكور، ص ٣٨٣. ابن الفرات، **تاريخ**، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٤٠. المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ١، ص ٦٦٩.

(٨٥) عز الدين ابن شداد، **تاريخ**، المصدر المذكور، ص ٣٢٦.

(٨٦) ابن عبد الظاهر، **تشريف**، المصدر المذكور، ص ٨٠. أبو الفداء، **المختصر**، المصدر المذكور، ج ٤، ص ١٤. ابن الوردي، المصدر المذكور، ج ٢، ص ٢٢٨. المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ١، ص ٦٨٤.

(٨٧) ابن الفرات، **تاريخ**، المصدر المذكور، ج ٧، ص ١٦٧، ١٩٥.

(٨٨) ابن الفرات، **تاريخ**، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٢١٥ ـ ٢١٦. المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ١، ص ٦٩٢.

(٨٩) ابن عبد الظاهر، **تشريف**، المصدر المذكور، ص ٨٠. ابن الفرات، **تاريخ**، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٦. اليونيني، **ذيل**، المصدر المذكور، ج ٤، ص ٨٦.

(٩٠) ابن عبد الظاهر، **تشريف** المصدر المذكور، مقدمة المحقق، ص ٤٥. وقد اعتمد قلاوون على ما كان قد بدأ به بيبرس من معاهدات سنعود إليها عما قليل، ونجد المعلومات عنها في المصادر المعاصرة مثل ابن عبد الظاهر، **الروض**، ص ٢٨٣، اليونيني، **ذيل**، ج ٢، ص٤٥٠. المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ١ ص ٦٨٥، ٩٧٤ ـ ٩٧٧، ٩٨٥ ـ ٩٩٧.

(٩١) ابن عبد الظاهر، **تشريف**، المصدر نفسه، ص ٨٢ ـ ٨٣، ٢١٠ ـ ٢١١. ابن الفرات، المصدر المذكور، ج ٧، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦. المقريزي، **السلوك**، المصدر نفسه، ج ١، ص ٩٧٤ ـ ٩٧٧.

(٩٢) ابن عبد الظاهر، **تشريف** المصدر نفسه، ص ٢٠ ـ ٢٢.

(٩٣) راجع المصدر نفسه، ص ٣٤ ـ ٤١. المقريزي **السلوك**، المصدر المذكور، ج ١، ص ٩٨٥ ـ ٩٩٧. ويلاحظ في نص ابن عبد الظاهر عن هذه المعاهدة تخصيص لنوعية السكان الموجودين في ممالك السلطان والمكوّنين من عسكر وعرب وتركمان وأكراد ورعايا على اختلاف الأجناس، ص ٤٠. كما ورد ذكر لهوية السكان في معاهدة سنة ١٥٩٦ للإسكندر التي نجد فيها أن رعايا السلطان كانوا من: «عساكر وجنود وجيوش

وحشود وتركمان وأكراد وعرب ومسلمين ونصارى وسائر طوائف الناس». كما يضيف لفظة «الفلاحين» في أحد نصوص المعاهدات إلى مجموع رعايا السلطان، المصدر نفسه، ص ١٠٥.

(٩٤) اعتمدنا في هذا الإيجاز على ما ورد عند أحمد حطيط، المرجع المذكور، ص ٦٥.

(٩٥) حطيط، المرجع المذكور، ص ٧٣ ـ ٧٤.

(٩٦) ابن عبد الظاهر، **تشريف**، المصدر المذكور، ص ٤٧. ومن المؤسف أن يكون محقق الكتاب قد وقع في خطأ جسيم إذ اعتبر أن المقصود بالحدث القلعة القائمة بين ملطية وسميساط ومرعش والمعروفة بالحمراء، راجع حاشية رقم ٢ ص ٤٧، بينما الأمر واضح لأن المذكورة هنا تقع في بلاد طرابلس وهي قرية حدث الجبة في شمالي لبنان. ابن الفرات، المصدر المذكور، ج ٧، ص ٢٧٧، لم يوضّح أن البطريرك أحضر إلى الأبواب السلطانية. راجع أيضاً: كمال الصليبي، **منطلق**، المرجع المذكور، ص ١١٩. تدمري، **تاريخ طرابلس**، ج ١، ص ٥٧٤ يجعل اسم القرية حدشيت نقلاً عن بيبرس المنصوري وابن الفرات ومحيي الدين الظاهري.

(٩٧) المقريزي، **السلوك**، ج ١، ص ٥٦٦.

(٩٨) الدويهي، **الأزمنة**، المصدر المذكور، ص ٢٦١، راجع التفاصيل في باب الحملات على بلاد الموارنة. انظر أيضاً: مكي، المرجع المذكور، ص ٢٠٤.

(٩٩) ابن عبد الظاهر، **سيرة**، المصدر المذكور، ص ٧٧ ـ ٨٧. وفي حاشية للمحقق نقلاً عن ابن الفرات، ج ٨، ص ١٨، أن الملك المنصور جهّز أهل الحصن وأعماله ومرقبه إلى طرابلس. وقد جاء في ابن كثير، أن الفتح تمّ في يوم الجمعة ثامن عشر صفر، **بداية**، المصدر المذكور، ج ١٣، ص ٣٠٥. كما جاء عند أبو الفداء، أن الفتح تم في ١٩ ربيع الأول، **المختصر**، المصدر المذكور، ج ٤، ص ٢٢. وكذلك ابن الوردي، المصدر المذكور، ج ٢، ص ٢٣٣. كما جاء عند ابن الفرات، أن الفتح تمّ في أوايل شهر ربيع الأول، **تاريخ**، المصدر المذكور، ج ٨، ص ١٨. ولكنه جهّز أهل الحصن إلى طرابلس. المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ١، ص ٧٢٧ ـ ٧٢٨. الدويهي، **الأزمنة**، المصدر المذكور، ص ٢٦٣، وقد جعل الأباتي فهد موقع المرقب في لبنان، وهذا خطأ.

(١٠٠) ابن كثير، **البداية**، المصدر المذكور، ج ١٣، ص ٣٠٥.

(١٠١) ابن تغري بردى، **النجوم**، المصدر المذكور، ج ٧، ص ٣١٦.

(١٠٢) ابن عبد الظاهر، **تشريف** المصدر المذكور، ص ٨٧ ـ ٩٠. في رواية لابن الوردي يترجم فيها لحياة بيبرس يرد ذكر صافيتا ومرقيه ضمن الحصون التي افتتحها هذا السلطان، راجع ابن الوردي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٢٥.

(١٠٣) اليونيني، **ذيل**، المصدر المذكور، ج ٤، ص ٨٨.

(١٠٤) ابن عبد الظاهر، **تشريف**، المصدر المذكور، ص ٩٢. وقد جاء عند المحقق نقلا عن ابن تغرى بردى، أن تسليم ثغر بلاطنس تمّ في أول صفر. **النجوم**، ج ٧، ص ٣٤٥،

(١٠٥) ابن عبد الظاهر، **تشريف**، المصدر نفسه، ص ١٤٩. الدويهي، **الأزمنة**، المصدر المذكور، ص ٢٦٤.

(١٠٦) ابن عبد الظاهر، المصدر نفسه، ص ١٤٩ ـ ١٩٥٠. وفي أبو الفداء، **المختصر**، المصدر المذكور، ج ٤، ص ٢٣، قد تمّ التسليم في ربيع الأول. ابن الوردي، المصدر المذكور، ج ٢، ص ٢٣٣. ابن الفرات، **تاريخ** المصدر المذكور، ج ٨، ص ٤٩، ١١٠. المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ١، ص ٧٣٤. وقد توفي سنقر مقتولاً خنقاً بأمر من الأشرف خليل. ابن تغرى بردى، **النجوم**، المصدر المذكور، ج ٧، ص ٣٢٠، ج ٨، ص ٣٧. راجع أيضاً الدويهي، **الأزمنة**، المصدر نفسه، ص ٢٦٤.

(١٠٧) ابن عبد الظاهر، **تشريف**، المصدر نفسه، ص ١٥٢. راجع أيضاً أبو الفداء، **المختصر**، المصدر المذكور، ج ٤، ص ٢٣. الدويهي، **الأزمنة**، المصدر نفسه، ص ٢٦٤.

(١٠٨) حول أسباب الهجوم على طرابلس، يمكن الاستفادة ممّا ساقه تدمري من معلومات، **تاريخ طرابلس**، المصدر المذكور، ج ١، ص ٥٧٨ ـ ٥٨١.

(١٠٩) أبو الفداء، **المختصر**، المصدر المذكور، ج ٤، ص ٢٤. راجع أيضاً، ابن الوردي، المصدر المذكور، ج ٢، ص ٢٣٤. ابن كثير، **البداية**، المصدر المذكور، ج ١٣، ص ٣١٣. الجزري، المصدر المذكور، ص ٨، ابن الفرات، **تاريخ**، ج ٨، ص ٨٠، وهو يذكر أن السلطان توجه إليها في ٢٢ صفر وافتتحها في ٤ ربيع الآخر، كما يذكر أن الجزيرة تدعى النخلة وأن البحر في ساعة الفتوح «زجر وانطرد عن طرابلس، فظهرت للناس المخايض، فعبر الفارس والراجل إلى هذه الجزيرة... وكان جماعة من الفرنج قد ركبوا البحر في مركب وتوجهوا فألقتهم الريح إلى الساحل فأخذهم الغلمان والأوشاقية وقتل منهم خلق كثير...» المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ١، ص ٧٤٧. اليافعي، **مرآة الجنان**، المصدر المذكور، ص ٢٠٧. ابن تغرى بردى، **النجوم**، ج ٧، ص ٣٢٠ ـ ٣٢٢. الدويهي، **الأزمنة**، المصدر المذكور، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥، وهو يستمدّ معلوماته من أبي الفداء في المختصر، فتارة يجعل مهاجمة طرابلس في ١٢٨٧ م وطوراً آخر في ١٢٥٩ م. انظر أيضاً، مكي، المرجع المذكور، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥. الصليبي، **منطلق**، المرجع المذكور، ص ١١٩ ـ ١٢٠. تدمري، **تاريخ طرابلس**، المرجع المذكور، ج ١، ص ٥٨٢ ـ ٥٩٤، وهو يذكر نقلاً عن شاهد عيان من فرسان الداوية في صور أن الحصار بدأ في ١٧ آذار، ٢٢ صفر، بينما يحدده يعقوب دوريا في ١٠ نيسان / ١٧ ربيع الأول.

(١١٠) الدويهي، **الأزمنة**، المصدر المذكور، ص ٢٦٥ ـ ٢٧٢، ولنا عودة إلى هذه المواضيع في سياق الكلام على الحملات التأديبية للموارنة وللمقدمين.

(١١١) حطيط، المرجع المذكور، ص ٧٧. K. SETTON, A History of the crusades, II, London, 1970, p. 592. PRAWER, op, cit., II, p. 537.

(١١٢) الجزري، المصدر المذكور، ص ٨. المؤرخ المجهول وهو معاصر للحدث، راجع، ZETTERESTEN, Beitrâge, op, cit, p. 2. ابن الفرات، **تاريخ**، المصدر المذكور، ج ٨، ص ٨٠ ـ ٨١، وهو ينقل معلوماته عن فتح أنفه وجبيل والبترون عن قطب الدين اليونيني. المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ١، ص ٧٤٨. ابن تغرى بردى، **النجوم**، المصدر المذكور، ج ٧، ص ٣٢١ ـ ٣٢٢.

(١١٣) ابن تغرى بردى، **النجوم**، المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٠.

(١١٤) ابن الفرات، **تاريخ**، المصدر المذكور، ج ٨، ص ٩٠. المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ١، ص ٧٥١.

(١١٥) تدمري، **تاريخ طرابلس**، المصدر المذكور، ص ٥٩٧. هذا مع التذكير بأننا لم نجد في غرس الدين بن شاهين الظاهري في الصفحة ١٠٤ تسمية «المملكة الطرابلسية الشريفة»، بل «وأجناد الحلقة بطرابلس المحروسة»، فاقتضى ذلك منا التنبيه.

(١١٦) تدمري، **تاريخ طرابلس** المرجع المذكور، ج ١، ص ٦٢.

(١١٧) أبو الفداء، **المختصر**، المصدر المذكور، ج ٤، ص ٢٩ ZETTERESTEN, 23 - 24 وعند النويري نجد «الفتوحات الطرابلسية» ولكننا نجد أن ابن الفرات، يسمي أيبك نائباً للسلطنة بالمملكة الطرابلسية والحصون، ج ٨، ص ١٥٣، ١٩٩. وكان سيف الدين بلبان الطباخي نائباً من ٦٨٩ هـ إلى ٦٩١هـ/ ١٢٩٠ ـ ١٢٩١م. وسيف الدين بلبان طغريل الإيغاني من ٦٩١ إلى ٦٩٢ هـ/ ١٢٩١ ـ ١٢٩٢. وتتطابق رواية الجزري مع ابي الفداء، ويجعل استلام عز الدين أيبك للنيابة في ٦٩٢ هـ، ويطلق عليه تسمية «متولّي الفتوحات في شاطىء طرابلس»، ص ٢٨ ـ ٢٩ وفي ابن تغرى بردى نجد تسمية «نائب الفتوحات والأعمال الطرابلسية والقلاع الإسماعيلية، **النجوم** المصدر المذكور، ج ٨، ص ٤.

(١١٨) يذكر اليونيني، ان الملك الظاهر نقل الأمير عز الدين الموصلي الظاهري أيبك بن عبد الله إلى حصن الأكراد وما جمع إليه، وجعله نائب السلطنة هناك، وكان له نهضة وكفاية، وكان عنده تشيّع. وقد قتل بالحصن المذكور غيلة في ١٧ رجب ٦٧٦ هـ/ ١٢٧٧ م، **ذيل**، المصدر المذكور، ج ٣، ص ٢٣٨. أما بيبرس المنصوري فيذكر في معرض كلامه على حوادث ٦٩٤ هـ/ ١٢٩٥ م: «وفيها نقل المنتقولون ووشى المتخرصون إلى زين الدين كتبغا أن الأمير عز الدين أيبك الخزندار، وهو يوميذ نايب السلطنة بحصن الأكراد والفتوحات قد عزم على التوجه إلى سيس. فأرسل في إحضاره. فأحضر محتاطاً عليه وعزل عزلاً مزعجاً. ورتب مكانه الأمير عز الدين أيبك الموصلي. فاستقر بطرابلس إلى ان مات ثم حددت طرابلس. وجعلت دار الأقامة ومقر النيابة إلى يومنا هذا...» المصدر المذكور، ج ١٠ من مخطوطة **زبدة الفكرة**، حوادث ٦٩٣ ـ ٦٩٨/ ١٢٩٣ ـ ١٢٩٨، ص ١٢. راجع أيضاً أبو الفداء، المصدر المذكور، ج ٤، ص ٣٤. النويري، **نهاية**، ج ٢٩، منشور من قبل الهام شاه مراد، في كتبغا ولاجين، ص ٤٤. الجزري، المصدر المذكور، ص ٤٣. المؤرخ المجهول، زترستن، ص ٣٤، ٣٧.

(١١٩) أبو الفداء، **المختصر**، المصدر المذكور، ص ٣٩. الجزري، المصدر نفسه، ص ٨٥، ٨٧، ٧٧، وقد ذكر أنه توفي في سنة ٦٩٨ هـ مسموماً. كما ذكر المؤرخ المجهول ان ايبك توفي في ٦٩٨ هـ، زترستن، المصدر نفسه، ص ٥٧. ويذكر ابن حجر في **الدرر الكامنة**... تحقيق محمد جاد الحق، ٥ أجزاء، مصر ١٩٦٦ ج ٢، ص ١٦ ـ ١٧ نائباً سابقاً له هو بكتمر السلح الذي استناب من صفر ٦٩٨ هـ إلى ربيع الآخر من السنة نفسها.

(١٢٠) أبو الفداء، المصدر نفسه، ص ٤٥. وفي المؤرخ المجهول، كان شهاب الدين قرطاي نائباً في ٦٩٩ هـ وقطلوبك في ٧٠٠ هـ، زترستن، ص ٥٧، ٨٢. وفي تدمري، **تاريخ طرابلس**، ج ٢، ص ٣٤، جاء قبل قطلوبك اسندمر الكرجي (٦٩٨ ـ ٧٠٠ هـ) (١٢٩٨ ـ ١٢٩٩ م) ثم الألبكي الساقي (٦٩٩ ـ ٧٠٠ هـ) فسيف الدين قطلوبك (٧٠٠ هـ/ ١٣٠٠م).

(١٢١) أبو الفداء، المصدر نفسه، ص ٤٧.

(١٢٢) المصدر نفسه، ص ٤٩.

(١٢٣) المصدر نفسه، ص ٥٩. وقد ورد ذكره في المؤرخ المجهول «مقدم عسكر الساحل وطرابلس، زترستن، ص ١١٠.

(١٢٤) وقد وردت التسميات عند اليونيني على الشكل الآتي: «عساكر السواحل صفد وطرابلس»، بلاد طرابلس وحصونها»، «طرابلس والفتوحات الطرابلسية»، الثغور الطرابلسية والحصون الساحلية». كما أن نائب طرابلس اسندمر الذي نقل منها في ٧٠٩ هـ/ ١٣٠٩ م، وعين مكانه سيف الدين بهادر حمل تسمية «مقدم الساحل»، ثم «نائب طرابلس والفتوحات»، **ذيل**، تحقيق حمزة عباس، جامعة القديس يوسف، بيروت ١٩٩٠، ص ١٣، ٦٦، ٨٨، ٩٣، ٤١٦، ٧٨٤. أبو الفداء، المصدر نفسه، ص ٦٠. كما ورد عند المؤرخ المجهول، انه أخلع على بهادر لنيابة طرابلس عوض اسندمر، وفي ١٨ ربيع الأول. ٧١٠ هـ توفي بهادر نايب السلطنة بالفتوحات الطرابلسية وتولى بعده آقوش الأفرم، زترستن، المصدر نفسه، ص ١٥١، ١٥٣.

(١٢٥) أبو الفداء، **المختصر**، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٦٢.

(١٢٦) أبو الفداء، المصدر نفسه، ص ٦٢. وقد استناب جمال الدين آقوش بن عبد الله الأفرم في ٧١٠ ـ ٧١٢ هـ/ ١٣١٠ ـ ١٣١٢ م. ابن أيبك، **كنز الدرر أو الدرّ الفاخر**، تحقيق رويمر، ١٩٦٠، ج ٩، ص ٢٠٧، ٢٤٣. ZETTERESTEN, op, cit, p. 2

(١٢٧) أبو الفداء، المصدر نفسه، ص ٦٨.

(١٢٨) أبو الفداء، المصدر نفسه، ص ٧٩. وقد استناب سيف الدين تمر الساقي المنصوري في ٧١٢ ـ ٧١٤ هـ/ ١٣١٢ ـ ١٣١٤ م. ابن أيبك، **الدرّ**، المصدر المذكور، ج ٩، ص ٢٤٣، ٢٨٣.

(١٢٩) أبو الفداء، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٨٥. ابن أبي الفضائل، المصدر المذكور، ص ٣. زترستن، المصدر المذكور، ص ١٥٧، ١٦٣.

(١٣٠) أبو الفداء، المصدر نفسه، ص ٩١. وقد استناب شهاب الدين قرطاي الأشرفي بن عبد الله في ٧١٥ ـ ٧٢٦ هـ/ ١٣١٥ ـ ١٣٢٦ م. ابن أيبك، **الدرّ**، المصدر المذكور، ج ٩، ص ٢٨٧، ٣٢٠. ZETTERESTEN, op. cit., p 157-163

(١٣١) أبو الفداء، المصدر نفسه، ص ٩٤ ويرد اسمه في ابن أبي الفضائل، سيف الدين، ص١.

(١٣٢) أبو الفداء، المصدر نفسه، ص ٩٧، وقد استناب سيف الدين طينال الأشرفي الناصري الحاجب في ٧٢٦ ـ ٧٣٣ هـ/ ١٣٢٦ ـ ٣٢ م. ابن أيبك، **الدرّ**، المصدر المذكور، ج ٩، ص ٣٢٠، ٣٧٢. اليوسفي، **نزهة الناظر**، تحقيق أحمد حطيط، بيروت ١٩٨٦، مقدمة، ص ٩ ـ ١٠، ٦٤، ٦٨، ١١٤ ـ ١١٥، ١٦٤.

(١٣٣) أبو الفداء، **المختصر**، المصدر نفسه، ج ٤، ص ١١٤. ويجدر التنبيه أن النص المطبوع، موضوع الاستعمال من أبي الفداء، مأخوذ ابتداء من سنة ٧٣٠ هـ /١٣٢٩ م لا من نسخة الأصل، بل من تذييل تاريخ ابن الوردي. وقد حكم قرطاي، للمرة الثانية، من ٧٣٣ إلى ٧٣٤ هـ/ ١٣٣٢ ـ ١٣٣٣ م. ابن أيبك، **الدّر**، المصدر المذكور، ج ٩، ص ٣٧٢، ٣٧٨. ابن الوردي، ج ٢، ص ٣٠٤.

(١٣٤) أبو الفداء، المصدر نفسه، ص ١١٤. وقد استناب جمال الدين آقوش الأشرفي الكركي في عام ٧٣٤ ـ ٧٣٥ هـ/ ١٣٣٣ ـ ١٣٣٥ م. ابن أيبك، **الدرّ**، المصدر المذكور، ج ٩، ص ٣٧٨، ٣٨١. ابن الوردي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٠٤. اليوسفي، **نزهة**، المصدر نفسه، ص ٢٣٦.

(١٣٥) أبو الفداء، المصدر نفسه، ص ١١٨. وقد استناب طينال، للمرة الثانية، في عام ٧٣٥ ـ ٧٤١ هـ/ ١٣٣٥ ـ ١٣٤٠ م. ابن الوردي، ج ٢، ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩. اليوسفي، **نزهة**، المصدر نفسه، ص ٢٤٠.

(١٣٦) أبو الفداء، المصدر نفسه، ص ١٣٩. وقد استناب في ٢٣ محرم ٧٤١ ـ شعبان ٧٤٢ هـ/ ١٣٤٠ ـ ١٣٤٢ م. ابن الوردي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٣٢.

(١٣٧) أبو الفداء، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٤٣. ابن الوردي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٣٦.

(١٣٨) أبو الفداء، المصدر نفسه، ص ١٤٤. ابن الوردي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٣٨. وقد استناب سيف الدين طرغاي الطباخي الجاشنكير في ٧٤٣ ـ ٧٤٤ هـ/ ١٣٤٢ ـ ١٣٤٣ م.

(١٣٩) أبو الفداء، **المختصر**، المصدر المذكور، ج ٤، ص ١٤٨. وقد استناب سيف الدين قماري بن عبد الله الناصري في ٧٤٦ هـ/ ١٣٤٥ م. ابن الوردي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٤٢.

(١٤٠) أبو الفداء، المصدر نفسه، ص ١٤٩. وقد استناب سيف الدين بيدمر البدري في ٧٤٦ ـ ٧٤٧ هـ/ ١٣٤٥ ـ ١٣٤٦ م. ابن الوردي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٤٣.

(١٤١) أبو الفداء، المصدر نفسه، ص ١٥٠. ابن الوردي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٤٤.

(١٤٢) أبو الفداء، المصدر نفسه، ص ١٥٣، ابن الوردي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٤٧.

(١٤٣) بيبرسً المنصوري، **مخطوطة زبدة الفكرة**، حوادث سنة ٦٩٣ ـ ٦٩٨ هـ/ ١٢٩٣ ـ ١٢٩٨ م، الجزء العاشر في نشرة شاه مراد، shah morad elham راجع أيضاً في ص ٤٤ من الكتاب نفسه نصّاً من النويري، ج ٢٩، من مخطوطة **نهاية الأرب**.

(١٤٤) أبو الفداء، **المختصر**، المصدر المذكور، ج ٤، ص ٢٦، وكان مشاركاً في الحصار ومعه منجنيق من حصن الأكراد ZETTERESTEN, op, cit, p. 1-5 وكان المؤرخ المجهول مشاركاً في القتال. راجع أيضاً، ابن الوردي، المصدر المذكور، ج ٢، ص ٢٣٥. ابن كثير، **البداية**، المصدر المذكور، ج ١٣، ص ٣٢١. الجزري، المصدر المذكور، ص ٤ ـ ٧، ١٠. المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ١، ص ٧٦٤ـ ٧٦٥ الدويهي، **الأزمنة**، المصدر المذكور، ص ٢٦٦ ـ ٢٦٨.

(١٤٥) أبو الفداء، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٦، الجزري، المصدر نفسه، ص ٦. ابن الوردي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٣٦. ابن كثير، المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٣٢١. المقريزي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٧٦٥ ـ ٧٦٦، الدويهي، المصدر نفسه، ص ٢٦٧ ـ ٢٦٩. والأمير علم الدين سنجر الشجاعي، هو من كبار الأمراء في مصر، تسلّم صيدا في ١٢٩١ م، ثم ولّي نيابة دمشق في السنة نفسها، وكان قبل ذلك وزيراً في مصر. انظر ابن طولون، **اعلام الورى بمن ولّي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى**، دمشق ١٩٦٤، ص ٩.

(١٤٦) ابن الفرات، **تاريخ**، المصدر المذكور، ج ٨، ص ١١١. المقريزي، **السلوك**، المصدر نفسه، ج ١، ص ٧٦٤.

(١٤٧) اليافعي ، **مرآة الجنان**، المصدر المذكور، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٦.

(١٤٨) اليونيني، **ذيل**، تحقيق حمزة عباس، ص ٤١٢ ـ ٤١٣. ويرد عنده الفتح يوم الأربعاء ٢ صفر وكذلك عند المؤرخ المجهول. أبو الفداء، **المختصر**، المصدر المذكور، ج ٤، ص ٤٩. ابن أيبك، **الدرّ**، المصدر المذكور، ص ٨٠. ابن الوردي، المصدر المذكور، ج ٢، ص ٢٥٠. ابن كثير، **البداية**، المصدر المذكور، ج ١٤، ص ٢١، وقد جاء عنده أن الفتح تمّ في يوم الأربعاء ثاني صفر. المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ١، ص ٩٢٣، ٩٢٨ ـ ٩٢٩. وقد ورد عنده أن الفتح تمّ في يوم الجمعة ١٨ صفر. ويعطي المؤرخ المجهول تاريخ ٢ صفر ZETTERSTEEN, op. cit., p. 108. اليافعي، **مرآة الجنان**... المصدر المذكور، ص ٢٣٦. العيني، **عقد الجمان**، تحقيق محمد محمد أمين، ٤ أجزاء، القاهرة، ١٩٩٢. ج ٤، ص ١٨٤ ـ ١٨٨ ابن تغرى بردى ، المصدر المذكور، ج ٨، ص ١١، ١٥٤ ـ ١٥٧.

(١٤٩) كسروان القديم يشمل المنطقة الممتدة من نهر بيروت إلى نهر إبراهيم. راجع صالح بن يحيى، **تاريخ بيروت**...، تحقيق فرنسيس هورس وكمال الصليبي وغيرهما، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦٩، ص ٩.

(١٥٠) A. BEYDOUN, *Identité confessionnelle et temps social chez les historiens libanais contemporains, publications de l' U. L., Beyrouth, 1984, pp. 77 - 124.*

(١٥١) H. LAOUST, «Remarques sur les expéditions du Kasrawân sous les premiers Mamlûks» in, **Bulletin du musée de beyrouth.** Damas, 1942, T, IV, PP. 93 - 115, p. 93.

(١٥٢) القلقشندي، **صبح**، ج ١٣، ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩.

(١٥٣) أحمد بن تيمية، **مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية**، ٣٧ مجلداً، الرياض، ١٩٦١، المجلد ٢٨، ص ٣٩٩ ـ ٤٠٨.

(١٥٤) ابن تيمية، المصدر نفسه، ص ٤٠٠ ـ ٤٠٤.

(١٥٥) LAOUST, art, cit., pp. 102 - 105

(١٥٦) حول نقد هذه المصادر راجع أيضاً: LAOUST, art, cit., pp. 93 - 97

(١٥٧) اليونيني، **ذيل**، تحقيق حمزة عباس، ص ١٥٧ ـ ١٥٨.

(١٥٨) المصدر نفسه، ص ٥١٦.

(١٥٩) المصدر نفسه، ص ٥١٧.

(١٦٠) المصدر نفسه، ص ٥١٨.

(١٦١) النويري، **نهاية**، مخطوطة الفاتيكان رقم ٧٤، ج ٣٠، ص ١٠.

(١٦٢) أبو الفداء، **المختصر**، المصدر المذكور، ج ٤، ص ٥٤.

(١٦٣) ابن الوردي، المصدر المذكور، ج ٢، ٢٥٤.

(١٦٤) ابن أيبك الدواداري، **الدّر الفاخر في سيرة الملك الناصر**، الجزء التاسع، تحقيق هانس رويمر، القاهرة، ١٣٧٩ هـ/ ١٩٦٠ م، ص ١٧.

(١٦٥) المصدر نفسه، ج ٩، ص ٤٠.

(١٦٦) المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٣١.

(١٦٧) الجزري، المصدر المذكور، ص ١٧.

(١٦٨) ZETTERESTEN op. cit. pp. 20 - 21, 81.

(١٦٩) Ibid, pp 59 - 80.

(١٧٠) الذهبي، أبو عبد الله، **من ذيول العبر**، تحقيق محمد رشاد عبد المطلب، مطبعة حكومة الكويت، سلسلة التراث العربي، عدد ١٧ (من دون تاريخ) ص ٣٠. المؤرخ كان معاصراً للأحداث إذ توفي في ٧٥٨ هـ.

(١٧١) ابن كثير، **البداية**، المصدر المذكور، ج ١٣، ص ٣٢٨.

(١٧٢) المصدر نفسه، ج ١٤، ص ١٢.

(١٧٣) المصدر نفسه، ص ٣٥.

(١٧٤) ابن كثير، **البداية**، المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٣٥.

(١٧٥) ابن الفرات، **تاريخ**، المصدر المذكور، ج ٨، ص ١٤٣.

(١٧٦) المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ١، ص ٧٧٩.

(١٧٧) المصدر نفسه، ج ١، ص ٩٠٢ ـ ٩٠٣. (وقد ورد عند مكي خطأ الجزء الثالث، راجع ص ٢٢٢). وتذكر رواية لمؤرخ مملوكي مجهول، أن آقوش توجّه سنة ٧٠٠ هـ، وبصحبة الرجّالة الفلاحين. ZETTERESTEN op. cit. pp. 79.

(١٧٨) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٢.

(١٧٩) المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ص ١٤ ـ ١٦.

(١٨٠) ابن قاضي شهبة، **تاريخ**. . .، ٣ مجلدات، تحقيق عدنان درويش، المعهد العلمي الفرنسي، دمشق ١٩٧٧، م ٢، ج ١، ص ١٨٧.

(١٨١) العيني، **عقد**، المصدر المذكور، ص ٨١ ـ ٨٣.

(١٨٢) المصدر نفسه، ٣٨٤ ـ ٣٨٥ والمقصود بالشمالية الشامية.

(١٨٣) صالح بن يحيى، **تاريخ بيروت**، المصدر المذكور، ٢٤ ـ ٢٩، ٥٣ ـ ٥٤، ٧٧، ٩٦.

(١٨٤) ابن إسباط، **مخطوط ابن أسباط رقم ١٨٢١، المكتبة الوطنية بباريس، ص ١١٥ ـ ١١٦**.

(١٨٥) ابن القلاعي، **حروب المقدمين** نشر قرأ لي ١٩٣٧، **زجليات ابن القلاعي**، نشر الجميل، ١٩٨٢، ص ٤٤.

(١٨٦) الدويهي، **تاريخ الأزمنة**، وقد ورد سابقاً ذكر طبعة فهد، أما طبعة فرديناند توتل ففي عام ١٩٥٠، والاعتماد هو على طبعة فهد، ص ٢٦٧ ـ ٢٧٢، ٢٨٣ ـ ٢٨٤، ٢٨٦ ـ ٢٨٨.

(١٨٧) قلعة حصينة في غربي الفرات مقابل البيرة. بينها وبين سميساط. ياقوت، **معجم البلدان**، ج ٤، ص ٣٩٠ ـ ٣٩١. انظر هورس والصليبي، المصدر المذكور، ص ٢٤، والحواشي التي تشرح نص صالح هي للمحققين.

(١٨٨) هو الأمير بدر الدين بيدرا المنصوري. استنابه الملك الأشرف خليل في السلطنة، لكنه انقلب على الأشرف فيما بعد، فقتله واستأثر بالسلطنة، غير أنه قتل ثاني يوم ملكه (٦٩٣ هـ/ ١٢٩٤ م). المقريزي، **السلوك**، ج ١، ص ٦٩٩، ٧٤١. انظر هورس والصليبي، المصدر نفسه، ص ٢٤.

(١٨٩) هو شمس الدين سنقر الأشقر الرومي، أحد أمراء المماليك، ولّي نيابة دمشق مدة في ٦٧١ هـ/١٢٧٢ م. ابن طولون، **اعلام الورى**، ص ٧ ـ ٨. انظر هورس والصليبي، المصدر نفسه، ص ٢٥.

(١٩٠) هو قرا سنقر الجوكندار الجركسي المنصوري، أحد أمراء المماليك. ولّي نيابة حلب في أيام المنصور قلاوون والأشرف خليل، ثم ناب في السلطنة وولّي بعدئذ نيابة دمشق. وفرّ هارباً إلى التتار في ٧١١ هـ/ ١٣١٢ م ومات في مراغة في ٧٢٨ هـ/ ١٣٢٨ م. ابن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة** (حيدر آباد، ١٣٤٨ هـ)، ج ٢، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧. انظر هورس والصليبي، المصدر نفسه، ص ٢٥.

(١٩١) بدر الدين بكتوت الأتابكي وبدر الدين بكتوت العلائي كلاهما من أمراء الأشرف صلاح الدين خليل، خدماه ثم خدما أخاه الملك الناصر محمد ثم الملك العادل كتبغا. ابن إياس، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، (القاهرة، ١٣١١ هـ)، ج ١، ص ١٣١ و١٣٦. انظر هورس والصليبي، المصدر نفسه، ص ٢٥.

(١٩٢) ركن الدين بيبرس طقصوا، أحد أمراء المماليك في سلطنة الملك الأشرف خليل. المقريزي، **سلوك**، ج ١، ص ٦٥٤، ٧٧٠، ٧٨٠. انظر هورس والصليبي، المصدر نفسه، ص ٢٥.

(١٩٣) هو عز الدين أيبك التركي الحموي. ناب في دمشق بعد سنجر الشجاعي في ٦٩١ هـ/ ١٢٩١ م، ثم صرف عنها في ٦٩٥ هـ/ ١٢٩٥ م، وأخيراً ناب في حمص في ٦٩٩ هـ/ ١٢٩٩ م إلى أن مات بها في ٧٠٣ هـ/ ١٣٠٣ م. ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ج ١، ص ٤٢٢ ـ ٤٢٣. انظر هورس والصليبي، المصدر نفسه، ص ٢٥.

(١٩٤) ولّي حسام الدين لاجين المنصوري نيابة دمشق في ٦٧٩ هـ/ ١٢٨٠ م واستمر بها إحدى عشرة سنة، ابن طولون، **اعلام الورى**، ص ٨. تسلطن ٦٩٦ ـ ٦٩٨ هـ/ ١٢٩٦ ـ ١٢٩٩ م، تلقب بالملك المنصور، انظر هورس والصليبي، المصدر نفسه، ص ٢٦.

(١٩٥) الأجزاء المخطوطة من كتاب عيون التواريخ لأحمد بن شاكر الكتبي في المكتبة الظاهرية بدمشق، لا نجد بينها الأجزاء التي تحتوي على حوادث القرنين السابع والثامن للهجرة. أما فيما يتعلّق بتاريخ النويري، فراجع ص ١٢، حاشية ١. انظر هورس والصليبي، المصدر نفسه، ص ٢٧.

(١٩٦) هو الملك الناصر محمد بن المنصور قلاوون، من سلاطين المماليك البحرية (٦٩٣ ـ ٦٩٤ هـ/ ١٢٩٣ ـ ١٢٩٤ م، ٦٩٨ ـ ٧٠٨ هـ/ ١٢٩٩ ـ ١٣٠٩ م، ٧٠٩ ـ ٧٤١ هـ/ ١٣١٠ ـ ١٣٤١ م). انظر هورس والصليبي، المصدر نفسه، ص ٢٧.

(١٩٧) أحد كبار الأمراء المماليك في أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون. ولّي نيابة دمشق من ٦٩٩ هـ/ ١٣٠٠ م إلى قرب سنة ٧٠٩ هـ/١٣٠٩ م. ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ج ١، ص ٣٩٦ ـ ٣٩٨. انظر هورس والصليبي، المصدر نفسه، ص ٢٧.

(١٩٨) هو زين الدين (أو محيي الدين) محمد بن عدنان، نقيب الأشراف بدمشق (٦٢٦ ـ ٧٢٢ هـ/ ١٢٢٩ ـ ١٣٢٢ م). ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ج ٤، ص ٤٧. انظر هورس والصليبي، المصدر نفسه، ص ٢٧.

(١٩٩) هو تقي الدين أحمد بن تيمية، الفقيه الحنبلي الشهير. ولد في ٦٦١ هـ/ ١٢٦٣ م وتوفي

في ٧٢٨ هـ/ ١٣٢٧ م. وكان له اليد الطولى في الحملة على كسروان في ١٣٠٥ م. انظر هورس والصليبي، المصدر نفسه، ص ٢٧.

(٢٠٠) هو الأمير بهاء الدين قراقوش المنصوري. المقريزي، **السلوك**، ج ٢، ص ١٢. انظر هورس والصليبي، المصدر نفسه، ص ٢٧.

(٢٠١) هو سيف الدين اسندمر الكرجي، أحد كبار الأمراء بدمشق. ولّي نيابة طرابلس في ٧٠١ هـ/ ١٣٠١ ـ ١٣٠٢ م، وقتل في ٧٢١ هـ/ ١٣٢١ م. ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ج ١، ص ٣٨٧ ـ ٣٨٨. انظر هورس والصليبي، المصدر نفسه، ص ٢٨.

(٢٠٢) هو سنقر شاه المنصوري، أحد كبار الأمراء بدمشق. ولّي نيابة صفد في ٧٠٤ هـ/ ١٣٠٤ ـ ١٣٠٥ م، ومات بها في ٧٠٧ هـ/ ١٣٠٧ م. ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ج ٢، ص ١٧٥. انظر هورس والصليبي، المصدر نفسه، ص ٢٨.

(٢٠٣) علاء الدين بن معبد البعلبكي: المقريزي، **السلوك**، ج ٢، ص ١٦. انظر هورس والصليبي، المصدر نفسه، ص ٢٨.

(٢٠٤) هو عز الدين خطاب بن محمود بن رتعس العراقي، مات في ربيع الآخر ٧٢٥ هـ/ ١٣٢٥ م. ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ج ٢، ص ٨٥. المقريزي، **السلوك**، ج ٢، ص ١٦. انظر هورس والصليبي، المصدر نفسه، ص ٢٨.

(٢٠٥) كان بكتمر الحسامي حاجباً بدمشق، ثم ولّي ثغر الاسكندرية في ٧١٦ هـ/ ١٣١٦ م، ومات بها في رمضان ٧٢٤ هـ/ ١٣٢٤ م. ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ج ١، ص ٤٨٧. أيضاً المقريزي، **السلوك**، ج ٢، ص ١٦، يذكر اقطاع كسروان لسيف الدين بكتمر عتيق بكتاش الفخري. انظر هورس والصليبي، المصدر نفسه، ص ٢٨ ـ ٢٩.

(٢٠٦) لم يذكر المقريزي ابن صبح بين الأمراء الذين اقتطعت لهم كسروان. **السلوك**، ج ٢، ص ١٦. وابن صبح هذا هو الأمير شهاب الدين أحمد بن علي ابن صبح الذي استقر في نيابة صفد في ٧٥٣ هـ/ ١٣٥٢ م، المقريزي، **السلوك**، ج ٢، ص ٨٧٥. انظر هورس والصليبي، المصدر نفسه، ص ٢٩.

(٢٠٧) هو سنقر المنصوري الأعسر، أحد كبار الأمراء المماليك. ولّي نيابة الاستدارية ثم شدّ الدواوين بدمشق في أيام الأشرف خليل، وتوفي وزيراً للسلطان لاجين في مصر في ٧٠٩ هـ/ ١٣٠٩ م. ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ج ٢، ص ١٧٧ ـ ١٧٨. أما سنقر نائب طرابلس، فهو على الأرجح سنقر الجمالي الذي ولّي نيابة بعلبك ثم نقل إلى طرابلس ومات بها في ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨ م. ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ج ٢، ص ١٧٦ ـ ١٧٧. ويظهر أن الأمر قد اختلط على صالح بن يحيى. انظر هورس والصليبي، المصدر نفسه، ص ٥٣.

(٢٠٨) صالح بن يحيى، المصدر نفسه، ص ٥٣.

(٢٠٩) المصدر نفسه، ص ٥٣.

(٢١٠) المصدر نفسه، ص ٥٤.

(٢١١) المصدر نفسه، ص ٥٤.

(٢١٢) هو قازان بن ارغون، ملك المغول في بلاد فارس والعراق (١٢٩٥ ـ ١٣٠٤ م) وقد أطلق عليه اسم «محمود» بعد أن اعتنق الإسلام. كسر المماليك في واقعة حمص سنة ١٣٠٠ م. انظر هورس والصليبي، المصدر نفسه، ص ٧٧.

(٢١٣) صالح بن يحيى، المصدر نفسه، ص ٧٧.

(٢١٤) هو ناصر الدين الحسين بن سعد الدين الخضر (توفي ١٣٥٠ م)، أهم وأكبر أمراء البحتريين.

(٢١٥) صالح بن يحيى، المصدر نفسه، ص ٩٦.

(٢١٦) ابن أسباط، مخطوط رقم ١٨٢١، المكتبة الوطنية بباريس، ص ١١٥ ـ ١١٦.

(٢١٧) K. SALIBI, *The Maronite historians of mediaeval lebanon*, Beirut, 1959.

(٢١٨) ابن القلاعي، **حروب المقدمين**، نشره الأب بولس قرألي، بيت شباب، ١٩٣٧. ثم طبعة جديدة تشمل العديد من زجلياته بعنوان، **زجليات ابن القلاعي**، تحقيق الأب بطرس الجميل، دار لحد خاطر، بيروت، ١٩٨٢.

(٢١٩) الدويهي، **تاريخ الأزمنة**، طبعة فرديناند توتل، بيروت، ١٩٥٠، طبعة الأباتي بطرس فهد، دار لحد خاطر، ط ٢، بيروت ١٩٨٣.

(٢٢٠) لعلّه المطران تادرس العاقوري الأول، الذي ناب عن البطريرك ارميا الدملصاوي سنة ١٢٨٢ م ووضع الشرطونية المعروفة باسمه سنة ١٢٩٦، فكان معاصراً لحملتي كسروان في سنتي ١٢٩٢ و١٣٠٥ اللتين جاء وصفهما في وثيقته عن نكبة كسروان. قرألي، **حروب المقدمين**، المصدر المذكور، ص ٩٦.

(٢٢١) انظر نقد الوثيقة من قبل الخوري إبراهيم حرفوش في مقالة عن «الأديار القديمة في كسروان»، مجلة **المشرق**، عدد ٥، ص ٢٧٠، نقلاً عن الخوري قرألي الذي يردّ عليه مصوّباً وثيقة المطران تادرس واضعاً نصها في المكان اللائق؛ هذه الوثيقة تحمل عنوان **نكبة النصارى ودير مار شليطا مقبس** ١١٩٤ ـ ١٣٠٧، وهي من أوراق خزانة بكركي، **حروب المقدمين** المصدر نفسه، ص ٨٥ ـ ٩٥.

(٢٢٢) لا نعرف موقعاً بهذا الاسم، ولعلّه تحريف جبيل. انظر المحقق، قرألي، المصدر نفسه، ص ٨٧، حاشية رقم ٣.

(٢٢٣) تادرس مطران حماه الماروني، «**نكبة كسروان ودير مار شليطا مقبس**» وثيقة منشورة في حروب المقدمين، طبعة قرألي، المصدر نفسه، ص ٨٥ ـ ٨٨.

(٢٢٤) قرألي، **حروب المقدمين**، المصدر نفسه، ص ٨٩ ـ ٩٥.

(٢٢٥) بين حدث الجبة والديمان.

(٢٢٦) بني طي أي العرب المسلمين.

(٢٢٧) في الأصل - وعلمه.

(٢٢٨) هل يعني المقدم؟

(٢٢٩) ذكر الدويهي خراب الحدث في سنة ١٢٨٣ م.

(٢٣٠) نهر قديشا والديورة التي كانت فيه.

(٢٣١) ابن القلاعي، **حروب المقدمين**، نشر قرألي، ص ٤٤.

(٢٣٢) الدويهي، **الأزمنة** المصدر المذكور، ص ٢٦١ - ٢٦٢.

(٢٣٣) المصدر نفسه، ص ٢٦٥ - ٢٦٦.

(٢٣٤) المصدر نفسه، ص ٢٦٩.

(٢٣٥) المصدر نفسه، ص ٢٦٩ - ٢٧١.

(٢٣٦) المصدر نفسه، ص ٢٨٣ - ٢٨٤.

(٢٣٧) المصدر نفسه، ص ٢٨٦ - ٢٨٩.

(٢٣٨) K. SALIBI, «The Maronite of Lebanon under Frankish and Mamluk rule, 1099 - 1516», in *Arabica*, IV (1957), pp. 290 - 296. 294. الظاهر أن ابن القلاعي والدويهي لا يفصحان بشكل واضح عن هذه الحملة. وقد استنتجها الصليبي، من معلوماتهما المتناقضة، خاصة معلومات ابن القلاعي الذي يروي، في القسم السابع من حروب المقدمين، قصة المقدّم بولس وأمير يدعى مسعود، وتدمير قرية الحدث. راجع ابن القلاعي، حروب، ص ٤٤. وبالنسبة للصليبي، يمكن التأكيد على معلومات ابن القلاعي بالرجوع إلى مخطوط يتكلم على الظاهر بيبرس (المكتبة الوطنية بباريس، رقم ١٧٠٤) ومن خلال معلومات الدويهي، **تاريخ الأزمنة**، طبعة توتل، المصدر المذكور، ص ١٣٦ - ١٣٧. انظر أيضاً: K. SALIBI, *Maronite Historians...*, op. cit., pp. 61 - 63, 66.

(٢٣٩) الدويهي، **الأزمنة** المصدر المذكور، ط توتل، ص ١٤٦، ١٦٠، ١٦٣، ط. فهد، ص ٢٦١ - ٢٦٢، ٢٦٩ - ٢٧١. وقد صحّحت، مجلة الأصول التاريخية، معلومات طبعة توتل فقالت بأن سكان الحدث اختبأوا في مغارة العاصي، بينما ضرب المسلمون الحصار، سبع سنوات، ثم أعطوا الأمان فحصلوا على خضوع السكان، فأحرقوا أمراء الحدث، وقتلوا ما قدروا على قتله، وخطفوا نساءها والعذارى. بولس مسعد ونسيب وهيبه الخازن، مجلة **الأصول التاريخية**، ٣ أجزاء، بيروت، ١٩٥٦ - ١٩٥٨، ج ٣، ص ٨٠. ولسنوات خلت، قام فريق من مكتشفي المغاور في لبنان، باكتشاف مغارة عاصي الحدث حيث وجدوا بقايا بشريّه وعليها ثياب تعود إلى هذه الفترة.

(٢٤٠) الصليبي، **منطلق**، المرجع المذكور، ص ٩٤ - ٩٥.

(٢٤١) المرجع نفسه، ص ١١٩.

(٢٤٢) K. SALIBI, «Maronite of Lebanon...» art. cit., pp. 289 - 296 وبخصوص مشاريع استعادة الأراضي المقدسة، يثبت الصليبي حوليات الأرمني «هايتون» من القرن الرابع عشر. وبخصوص حلم العودة وانتظاره، يسند رأيه إلى رحلة لويس دو روشوشوار في عام ١٤٦١.

(٢٤٣) H. LAOUST, art. cit., p. 99.

(٢٤٤) صالح بن يحيى، المصدر المذكور، ص ٥٣.

(٢٤٥) المصدر نفسه، ص ٢٤ - ٢٥. H. LAOUST, art. cit., P. 100.

(٢٤٦) SALIBI, Maronite Historians..., op. cit., pp. 69 - 73 ويشير الصليبي أيضاً في **منطلق تاريخ لبنان**، ص ١٣٣ - ١٣٤ إلى أن الشيعة في كسروان كانوا يعتبرون من الخارجين على الدولة. وثار الشيعة ضد المماليك في عهد قلاوون فاستعدّ نائب السلطنة في دمشق لمحاربة كسروان والجرديين (ربما المعني هنا جرد «الخارجة» وجرد «الداخلة» من كسروان. والجرود في لبنان هي المناطق الجبلية العالية الوعرة). ولربما حدثت غارة على كسروان في ذلك الوقت لأن جماعة من أهالي المنطقة كانوا قد اعتقلوا بدمشق في أواخر عهد قلاوون، فما أن خلف الأشرف خليل والده، قلاوون حتى جردت العساكر في صيف ١٢٩١ م. وهناك في زجلية ابن القلاعي ما يفيد بأن المماليك هزموا آنذاك على يد المقدمين الموارنة في بلاد جبيل. ولعل حملة بيدرا شملت المناطق الجبلية المارونية في بلاد جبيل بالإضافة إلى المناطق الشيعية في كسروان. غير أن المصادر الإسلامية المعروفة (بما فيها التواريخ الدرزية) لا تذكر ذلك.

(٢٤٧) الدويهي، **الأزمنة** المصدر المذكور، ط. توتل، ص ١٦٠.

(٢٤٨) SALIBI, Maronite Historians..., op. cit., pp. 116 - 117.

(٢٤٩) صالح بن يحيى، المصدر المذكور، ص ٢٧.

(٢٥٠) SALIBI, Maronite Historians..., op. cit., pp. 72; aussi «Maronite of Lebanon...», art. cit., p. 229. راجع أيضاً للصليبي، **منطلق**، المرجع المذكور، ص ١٣٤ - ١٣٥.

(٢٥١) LAOUST, art. cit., PP. 101- 103.

(٢٥٢) صالح بن يحيى، المصدر المذكور، ص ٢٧ H. LAOUST, art. cit., P. 103- 106.

(٢٥٣) صالح بن يحيى، المصدر نفسه، ص ٢٧ - ٢٨.

(٢٥٤) المصدر نفسه، ص ٩٥ - ٩٦. ويمكن التعرف إلى تفاصيل المعركة من خلال النص المدرج سابقاً.

(٢٥٥) راجع حول هذه العائلة، كتابنا: **قواعد الآداب حفظ الأنساب**، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٨٦، ص ٣١، ٤٣. وكان آل أبي اللمع يحكمون تقليديا المتن الحالي والبقاع والشحّار والجرد.

(٢٥٦) حول تفاصيل رواية تادرس، راجع قرألي، **حروب المقدمين**، ص ٨٥ ـ ٨٦. ولا يمكن الجزم بأن النصارى الهاربين من جونية كانوا من الموارنة.

(٢٥٧) SALIBI, Maronite Historians..., op. cit., pp. 72 - 75. وفي كتابه «**منطلق تاريخ لبنان**»، يذكر الصليبي بأنه «لعل الموارنة كان لهم بالفعل وجود في كسروان في ذلك الوقت، فأخرب عسكر دمشق كنائسهم وأديرتهم وقراهم كما أخرب قرى الشيعة»، ص ١٣٨.

(٢٥٨) ابن أسباط، المخطوط المذكور، ص ١١٥. الدويهي، **الأزمنة**، المصدر المذكور، ط. توتل، ص ١٦٣. ويثير مكي مسألة تضارب التواريخ فيرى أن هناك اضطراباً في تحديد السنة ١٣٠٥ م أم ١٣٠٦ م نتيجة لتحويل السنة الهجرية إلى ميلادية باعتبار أن جميع الروايات تجمع على حدوث المعركة في مطلع شهر محرم. كما أن هناك اضطراباً في سير المعركة. فروايات تشير إلى بدء الهجوم من عين صوفر وأخرى من منطقة الفتوح على يد القوات الطرابلسية. علماً بأن تسمية الفتوح لأحد أجزاء كسروان تعود إلى هذه الفترة. مكي، المرجع المذكور، ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩.

(٢٥٩) ابن تيمية، المصدر المذكور، ج ٢٨، ص ٤٠٢.

(٢٦٠) راجع نص ابن كثير المدرج في أول هذا الموضوع.

(٢٦١) أبو الفداء، **جغرافية أبو الفداء**،، باريس، ١٨٤٠، ص ٢٢٩. القلقشندي، **صبح**، المصدر المذكور، ج ١٣، ص ٢٤٨. ابن أسباط، المخطوط المذكور، ص ١١٥ - ١١٦. انظر أيضاً: LAOUST, art. cit., pp. 104 - 107.

(٢٦٢) محمد علي مكي، مثلاً، يذكر بأن البعض يقول بأن السكان كانوا دروزاً والبعض الآخر موارنة. ويرى آخرون أنهم من الظنيين النصيرية. وتشير بعض الروايات إلى أنهم شيعة. «ولكن إذا أمعنا الفكرة... نصل إلى القول بأن السكان كانوا بأكثريتهم الساحقة من الشيعة بدليل بعثة ابن تيمية وفتواه، والنزوح إلى البقاع وجزين (هذا مع التذكير بأن مكي يذكر بأن البقاع كان تكتلاً إسلامياً سنياً، ص ٢١٨)، والقول الصريح عند المقريزي في **السلوك**، ج ٢، ص ١٦، وهو بعلبكي الأصل، إذ قال: «ورفعت أيدي الرفضة عنها»، والرفضة لقب عرفت به الشيعة فقط... وبالإضافة إلى الشيعة كان معهم جماعة من المسيحيين عرفوا باسم الجبلية وهم لم يستهدفوا في هذه المعارك...» مكي، المرجع المذكور، ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩. ثم يقول بأنه ليس من شك على الإطلاق أن الطائفة التي عناها ابن تيمية في رسالته بعد فتح كسروان هي الطائفة الشيعية، المرجع نفسه، ص ٢٣٢.

(٢٦٣) ابن تيمية، المصدر المذكور، ج ٢٨، ص ٤٠١ ـ ٤٠٢، ٤٠٨، ٥٢٨، ٥٤٥.

(٢٦٤) صالح بن يحيى، المصدر المذكور، ص ٢٨.

(٢٦٥) ابن الوردي، المصدر المذكور، ج ٢، ص ٢٥٤.

(٢٦٦) المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ١، ص ٩٠٢ ـ ٩٠٣. الصليبي، **منطلق** المرجع المذكور، ص ١٣٥.

(٢٦٧) LAOUST, art. cit., pp. 95-104, 113, 114. SALIBI, «Maronites of Lebanon...» art. cit., p. 294. راجع أيضاً محمد علي مكي، المرجع المذكور، في شرحه لسياسة التوحيد الديني المملوكي، ص ٢١٧ ـ ٢١٨. ويوضح مكي نقطة مهمة، استناداً إلى ابن حجر في **الدرر الكامنة**، هي أن الناس إذا أرادوا أن يكيدو لشخص ما، دسّوا عليه من رماه بالتشّيع، ص ٢١٨.

(٢٦٨) LAOUST, art. cit., pp. 100, 101. راجع أيضاً: مكي، المرجع المذكور، ٢١٩ ـ ٢٢٢. ويستند في معلوماته إلى المقريزي في السلوك وإلى صالح بن يحي، ويعلّل الحملة بأنها كانت من صنع التنوخيين جيران الكسروانيين. كما يعيد تراجع بيدرا عن مهاجمة الكسروانيين إلى مشاركة سنقر الأشقر فيها، المتهم سابقاً بالتحالف مع الموضوع.

(٢٦٩) صالح بن يحيى، المصدر المذكور، ص ٧٧ ـ ٧٨. راجع النص في مطلع هذا الموضوع.

(٢٧٠) صالح بن يحيى، المصدر المذكور، ص ٢٧. راجع النص أيضاً في مطلع الموضوع وشرح مكي لملابسات هذه الحملة بالرجوع إلى المقريزي، وإلى صالح بن يحيى. مكي، المرجع المذكور، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣. وهو في تحليله لابن القلاعي يستنتج حملة إضافية في عام ١٣٠٢ م، ويرى أن ابن القلاعي تفرّد في روايتها ولم يذكرها غيره من مؤرخي المماليك. المرجع نفسه، ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(٢٧١) ابن تيمية، المصدر المذكور، ج ٢٨، ص ٤٠٤. صالح بن يحيى، المصدر نفسه، ص ٢٨ ـ ٢٩.

(٢٧٢) راجع النص لصالح بن يحيى، المصدر نفسه، ص ٢٨، ٩٦.

(٢٧٣) صالح بن يحيى، المصدر نفسه، ص ٢٨ ـ ٢٩. ويرد ذكر ابن صبح في المؤرخ المجهول في حوليات ٧٠٩ هـ على أنّه «مقدّم الجبلية» وقد حمى الأفرم في الجبال من غضب السلطان، ص ١٣٠، ١٣٤.

(٢٧٤) صالح بن يحيى، المصدر نفسه، ص ٣٧. واستناداً إلى المقريزي، وهو مصدر متأخر، يذكر مكي، المرجع المذكور، ص ٢٢٦، أن المماليك اقطعوا كسروان لبعض أمراء الغرب والبقاع وبعلبك فزرعها لهم الجبلية ورفعت أيدي الرافضة عنها.

(٢٧٥) H. LAMMENS, *La syrie*, 2 V., Beyrouth, 1921, V. 11, p. 38.

(٢٧٦) J. THENAUD, *Le Voyage d'outre mer de Jean Thenaud*, publié et annoté par Ch. SCHEFER, Paris, 1884, pp. 98 - 99.

(٢٧٧) ابن تيمية، المصدر المذكور، ج ٢٨، ص ٤٠٠.

(٢٧٨) راجع حول الوجود الشيعي بجوار الموارنة: ـ الدويهي، **الأزمنة**، طبعة توتل، ص ٢١٧.

-J. GOUDARD, **La Sainte Vierge au Liban**, Paris, 1908, p. 333. ويؤكد «غودار»
على أن مقدمي بشناتا كانوا من الشيعة.

(٢٧٩) الصليبي، **تاريخ لبنان الحديث**، ص ١٨.

(٢٨٠) النويري، **نهاية**، ج ٣٠، مخطوط الفاتيكان رقم ٧٤، ص ٤٦.

(٢٨١) المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ٢، ص ٣٧٩.

(٢٨٢) المصدر نفسه، ص ٣٨٠.

(٢٨٣) أبو الفداء، **المختصر**، المصدر المذكور، ج ٤، ص ١٥٦.

(٢٨٤) ابن حبيب، **درة الأسلاك**، ج ٢، ص ٣٩٥. تدمري **تاريخ طرابلس**، ج ٢، ص ١٤٠.

(٢٨٥) المقريزي، **السلوك** ج ٣، ص ٢٧.

(٢٨٦) محمد، شمس الدين أبو المحاسن الحسيني، **من ذيول العبر** المصدر المذكور، ص ٣١٠.

(٢٨٧) المصدر نفسه، ص ٣١٧.

(٢٨٨) الحسيني، من **ذيول العبر**، المصدر نفسه، ص ٣٥٤.

(٢٨٩) تدمري، **تاريخ طرابلس**، المرجع المذكور، ج ٢، ص ١٤١ ـ ١٤٢. ولا نعرف لماذا يجعل د. تدمري مهاجمة أبي قير نتيجة لغزوة شواطىء قبرص مع أن الثانية جاءت زمنياً بعد الأولى.

(٢٩٠) راجع تفاصيل غزو الإسكندرية وما رافق ذلك من اضطهاد للنصارى في ابن كثير، **البداية**، المصدر المذكور، ج ١٤، ص ٣١٤ ـ ٣١٥. ولقد مكث الفرنجة في الإسكندرية خمسة أيام، لا أربعة كما يذكر تدمري، مع أنه يستعمل ابن كثير الذي يحدّد ذلك. تدمري، المرجع المذكور، ص ١٤٥. راجع أيضاً المقريزي **سلوك**، ج ٣، ص ٣٠، ١٢٩. ابن تغرى بردى، **النجوم**، المصدر المذكور، ج ١١، ص ٢٩.

(٢٩١) تدمري، **تاريخ طرابلس**، المرجع المذكور، ج ٢، ص ١٤٢ ـ ١٤٥.

(٢٩٢) ابن كثير، **البداية**، المصدر المذكور، ج ١٤، ص ٣١٤ ـ ٣١٥.

(٢٩٣) المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ٣، ص ١٠٧.

(٢٩٤) ابن القلاعي، **حروب المقدمين**، المصدر المذكور، ص ٦٠. الدويهي، **الأزمنة**، المصدر المذكور، طبعة توتل، ص ١٨٥ ـ ١٨٦، طبعة فهد، ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣.

(٢٩٥) الدويهي، المصدر نفسه، طبعة توتل، ص ١٨٥، طبعة فهد، ص ٣٢٢.

(٢٩٦) ابن كثير، **البداية**، المصدر المذكور، ج ١٤، ص ٣٢٣.

(٢٩٧) ابن قاضي شهبة، المصدر المذكور، م ٣، ص ٢٩٣.

(٢٩٨) المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ٣، ص ١٤٩ ـ ١٥٠ ابن تغرى بردى، **النجوم**، المصدر المذكور، ج ١١، ص ٥٢ ـ ٥٣. وقد ذكر أن عدد مراكب الفرنج كان

١٣٠ وعدد قتلى المسلمين ٤٠ والفرنج ألفاً.. ابن قاضي شهبة، المصدر نفسه، ، ج ٣، ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩. محمد ابن أياس، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، تحقيق محمد مصطفى، ٥ أجزاء، القاهرة، ١٩٦١، ج ٢، ص ٦٥.

(٢٩٩) تدمري، المرجع المذكور، ج ٢، ص ١٥٠ ـ ١٥١.

(٣٠٠) تدمري، المرجع نفسه، ج ٢، ص ١٥٢ ـ ١٥٣.

(٣٠١) المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ٢، ص ١٨٩.

(٣٠٢) ابن قاضي شهبة، المصدر المذكور، ج ٣، ص ٥٧٣. المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ٣، ص ٣٣١، ٣٣٥، ٣٦٧. ابن أياس، بدائع ج ١ ـ ٢، المصدر المذكور، ص ٢٣٠.

(٣٠٣) ابن الفرات، **تاريخ** المصدر المذكور، ج ٩، ص ٧. الصيرفي، **نزهة**، المصدر المذكور، **نزهة**، ج ١، ص ١٥٢. المقريزي، **سلوك**، المصدر المذكور، ج ٣، ص ٥٦٢.

(٣٠٤) تدمري، المرجع المذكور.

(٣٠٥) ابن الفرات، **تاريخ**، المصدر المذكور، م ٩، ص ٢٢١. الصيرفي، **نزهة**، ج ١، ص ٣١٢، المقريزي **السلوك**، ج ٣، ص ٧٢٣.

(٣٠٦) ابن قاضي شهبة، **الأعلام**، المصدر المذكور، ج ٣، ص ١٩٥ ـ ١٩٦. ج ٤، ص ١٥٤ ـ ١٥٥. المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ٣، ص ١٠٧٩، ابن أياس، **بدائع**، ج ١ ـ ٢، ص ٦٤٢.

(٣٠٧) ابن قاضي شهبة، المصدر المذكور، ج ٣، ص ٢١٢. المقريزي، المصدر المذكور، ج ٣، ص ١١١٤ ـ ١١١٥. صالح بن يحيى، المصدر المذكور، ص ٣٢. الصيرفي، **نزهة**، المصدر المذكور، ج ٢، ص ١٧٩. ابن أياس، بدائع، ج ١ ـ ٢، ص ٦٨١.

(٣٠٨) المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ٣، ص ١٠٥٩.

(٣٠٩) تدمري، **تاريخ طرابلس**، المرجع المذكور، ج ٢، ص ١٦١.

(٣١٠) ابن قاضي شهبة، **الاعلام**، المصدر المذكور، ج ٣، ص ٢١٢. صالح بن يحيى، المصدر المذكور، ص ٣٤. المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ٤، ص ١٢٣١. ابن تغرى بردى، **النجوم**، المصدر المذكور، ج ١٥، ص ٤٨٤. تدمري، **تاريخ طرابلس**، المرجع المذكور، ج ٢، ص ١٦٣ ـ ١٦٤.

(٣١١) المقريزي، **السلوك**، المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٨٢.

(٣١٢) لمزيد من المعلومات عن موضوع الصراع بين المماليك وقبرص، راجع:
A. DARRAG, **L'Egypte sous le règne de Barsbay** *825 - 841\ 1422 - 1438*, Institut Français de Damas, 1961, pp. 239 - 267.

(٣١٣) المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ٤، ص ٦٦٥ ـ ٦٦٦. ابن تغرى بردى، **النجوم**، المصدر المذكور، ج ٤، ص ٢٦٦.

(٣١٤) المقريزي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٦٨، ٦٧١. ابن تغرى بردى، المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٢٦٦. صالح بن يحيى، المصدر المذكور، ص ٢٤٢. الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج ٣، ص ٧٦. DARRAG, op. cit., pp. 244 - 245.

(٣١٥) صالح بن يحيى، المصدر المذكور، ص ٢٤٢. انظر أيضاً: المقريزي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٦٦٨ - ٦٧١ - ٦٧٢. ابن تغرى بردى، المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٢٦٨، ٢٧٠. الصَيرفي، **نزهة**، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٧٧. وقد بلغ العدد عند الصيرفي (١٣) أسيراً وعند المقريزي وابن تغرى بردى (٢٣). ويؤكد ابن شاهين الظاهري أن الأغربة سارت إلى اللمسون (ليماسول) وكانت أربعة، **زبدة**، المصدر المذكور، ص ١٣٨.

(٣١٦) ابن شاهين الظاهري، **زبدة**، المصدر نفسه، ص ١٣٩.

(٣١٧) صالح بن يحيى، المصدر المذكور، ص ٢٤٢ - ٢٤٧. المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ٤، ص ٦٧٩، ٦٨٢ - ٦٨٤، ٦٨٦، ٦٨٩، ٦٩٠، ٦٩٤ - ٦٩٥. ابن تغرى بردى، **النجوم**، المصدر المذكور، ج ١٤، ص ٢٧٢، ٢٧٦، ٢٧٨ - ٢٨١. ابن شاهين الظاهري، **زبدة**، ص ١٣٩ - ١٤١. ابن أياس، **بدائع**. المصدر المذكور، ج ٢، ص ٩٨، ١٠٠. الصيرفي، **نزهة**، ج ٣، ص ٧٧ - ٨٤.

(٣١٨) المقريزي، **السلوك**، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٧١٩ - ٧٢٦. صالح بن يحيى، المصدر نفسه، ص ٢٤٩ - ٢٥٩. ابن تغرى بردى، **النجوم**، المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٢٨٧ - ٢٩٠، ٣٠٤، ٣٠٦. **ابن أياس**، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٠٠، ١٠٦ - ١٠٨. الصيرفي، **نزهة**، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٨٤ - ٩٥. ابن شاهين الظاهري **زبدة**، ص ١٤٢ - ١٤٥. DARRAG, op. cit., pp. 247 - 249, 255 - 261.

(٣١٩) المقريزي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٨٨٢. ويذكر «درّاج» أن القراصنة سطوا على تسع سفن ملأى بالبضائع بقيمة بضعة آلاف من الدنانير. الصيرفي، **نزهة**، ص ٢٤٩. DARRAG, op. cit., p. 344.

(٣٢٠) المقريزي، **السلوك**، ج ٤، ص ٩١٩. الصيرفي، **نزهة**، ج ٣، ص ٢٩٠.

(٣٢١) المقريزي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٩٢١. الصيرفي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٩٠، ٢٩٢، ٢٩٩.

(٣٢٢) المقريزي، **السلوك**، المصدر نفسه، ج ٤، ص ١١٧٠، ١١٧٨.

(٣٢٣) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٢٠٥ - ١٢٠٦، ١٢١٠. ابن تغرى بردى، **النجوم**، المصدر المذكور، ج ١٥، ص ٣٤١ - ٣٤٣. ابن أياس، **بدائع**، المصدر المذكور، ج ٢، ص ٢٢٤.

(٣٢٤) المقريزي، المصدر نفسه، ، ج ٤، ص ١٢٢٧. انظر تفاصيل هذه الأجواء في تدمري، **تاريخ طرابلس**، المرجع المذكور، ج ٢، ص ١٨٤ - ١٨٥.

(٣٢٥) المقريزي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٣٠٥. ابن تغرى بردى، المصدر المذكور، ج ١٥، ص ٣٥١ - ٣٦٣. ابن أياس، المصدر المذكور، ج ٢، ص ٢٣٨.

(٣٢٦) ابن تغرى بردى، المصدر نفسه، ج ١٥، ص ٣٦٠ - ٣٦٣. ابن أياس، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٤٣.

(٣٢٧) ابن أياس، **بدائع**، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٠٩، ٣٥٤، ٣٦٣ - ٣٦٤، ٣٦٦. تدمري، **تاريخ طرابلس**، المرجع المذكور، ج ٢، ص ١٨٩ - ١٩٠.

(٣٢٨) ابن أياس، المصدر نفسه، ، ج ٢، ص ٣٦٦، ٣٧٢، ٣٨٥، ٣٨٩، ابن تغرى بردى، **النجوم**، المصدر المذكور، ج ١٦، ص ٢٦٤، ٢٨٦. تدمري، المرجع نفسه، ج ٢، ص ١٩٢ - ١٩٣.

(٣٢٩) بعد عين جالوت تراجع المغول إلى مملكتهم في بلاد فارس وأضحت الضفة الشرقية لوادي الفرات حدودهم مع «سوريا» و«فلسطين». B. SPULER, «Ilkhans», E. I. 2, 111, PP. 1148 - 1156, p. 1148.

(٣٣٠) ابن الفرات، **تاريخ**، المصدر المذكور، ص ٢١٥ - ٢١٦. المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ١، ص ٦٩٢ ولقد غرب عن بال د. تدمرى ادراج هذا في معرض كلامه على مقاومة طرابلس للتتار.

(٣٣١) اتخذ حكّام بلاد فارس وبلاد ما بين النهرين من المغول تسمية «ايلخان» تمييزاً لهم في البدء عن رئيسهم «الخان» الكبير الذي كان موجوداً في بكين في الصين، وكان زعماؤهم يتقلّبون بين الوثنية والنسطورية والتشيّع إلى أن اعتنق «غازان» الإسلام السنّي، ثم عاد بعده خلفاؤه للتقلب بين السنة والتشيّع، مما قاد إلى انقسامات داخلية. وقد انتهت دولة الايلخان مع موت «أبو سعيد» (أول من اتخذ اسماً إسلامياً) في ٧٣٦ هـ/ ١٣٣٥ م. SPULER, art. cit., p. 1150.

(٣٣٢) علي ابراهيم حسن، **تاريخ المماليك البحرية**، القاهرة، ١٩٦٧، ص ١٤٦.

(٣٣٣) ابن ايبك، **الدر الفاخر**، ج ٩، ص ٩. زترستن، المصدر المذكور، ص٣٧ انظر أيضاً علي ابراهيم حسن، المرجع نفسه، ص ١٤٧.

(٣٣٤) المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ١، ص ٨٨٢ - ٨٨٦، ٩٢٧. انظر علي إبراهيم حسن، المرجع نفسه، ص ١٤٧. تدمري، **تاريخ طرابلس**، المصدر المذكور، ج ٢، ص ١١٩. ويبدو أن حسن يضطرب في ضبط سنة الحرب، إذ بعد إثباتها في ١٢٩٩ - ١٣٠٠ م، يعود بعد صفحة فيجعلها في ٦٩٨ هـ/ ١٢٩٨ م، ص ١٤٨.

(٣٣٥) ابن أيبك، المصدر المذكور، ج ٩، ص ١٥ - ١٨. المقريزي، المصدر المذكور، ج ١، ص ٨٨٦ - ٨٨٧، انظر أيضاً، علي إبراهيم حسن، المرجع نفسه، ص ١٤٨ - ٩١٤ تدمري، المرجع المذكور، ج ٢، ص ١١٩ - ١٢٠.

(٣٣٦) المقريزي، **السلوك**، المصدر نفسه، ج ١، ص ٨٨٦.

(٣٣٧) شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، **المشتبه في الرجال**، تحقيق علي محمد البجاوي، جزءان، مصر، ١٩٦٢، ج ٢، ص ٥٤٦. المقريزي، **السلوك**، المصدر نفسه، ج ١، ص ٨٨٨. العيني، **عقد**، المصدر المذكور، ج ٤، ص ١٦ ـ ١٧، ٢٠. انظر التفاصيل في تدمري، **تاريخ طرابلس**، المرجع المذكور، ج ٢، ص ١٢٠.

(٣٣٨) ابن أيبك، **الدر الفاخر**، المصدر المذكور، ج ٩، ص ٢٤ ـ ٤٠. المفضل بن أبي الفضائل (١٢٧٣ م)، **النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد**، نشره وترجمه إلى الفرنسية زترستن، المصدر المذكور، ص ٥٩ ـ ٩٠ E. BLOCHET, patrologia orientalis, *T. 14, paris, 1911, 1930, p. 636 - 657*. المقريزي، **السلوك**، المصدر نفسه، ج ١، ص ٨٩٤، ٩٠٠، ٩١٨. انظر أيضاً: علي إبراهيم حسن، المرجع المذكور، ص ١٤٩ ـ ١٥٥.

(٣٣٩) أبو الفداء، **المختصر**، المصدر المذكور، ج ٤، ص ٤٩ ـ ٥١. ابن أيبك، **الدر**، المصدر المذكور، ج ٩، ص ٨٢ ـ ٨٨. زترستن، المصدر المذكور، ص ١١٠ ـ ١١١. ابن كثير، **البداية**، المصدر المذكور، ج ١٤، ص ٢٢ ـ ٢٦. المقريزي، **السلوك**، المصدر نفسه، ج ١، ص ٨٩٤، ٩٠٠، ٩١٨، ٩٣١. ابن تغرى بردى، **النجوم**، المصدر المذكور، ج ٨، ص ١٥٨ ـ ١٦٠. ابن أياس، **بدائع**، المصدر المذكور، ١ ـ ١، ص ٤١٣ ـ ٤١٤. إبراهيم علي حسن، المرجع المذكور، ص ١٥٨ ـ ١٥٩. تدمري، **تاريخ طرابلس**، المرجع المذكور، ج ٢، ص ١٢١ ـ ١٢٣.

(٣٤٠) العيني، **عقد**، المصدر المذكور، ص ٢١٠ ـ ٢١٧، ٢٣١ ـ ٢٤٤. أبو الفداء، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٩ ـ ٥١. انظر التفاصيل في تدمري، المرجع المذكور، ج ٣، ص ١٢١ ـ ١٢٣.

(٣٤١) العيني، عقد، المصدر المذكور، ص ٢١٧ ـ ٢١٨، ٢٢٦، ٢٣١ ـ ٢٤٤. إبراهيم علي حسن، المرجع المذكور، ص ١٦٠. تدمري، المرجع المذكور، ص ١٢٥.

(٣٤٢) المقريزي **السلوك**، المصدر المذكور، ج ٣، ص ٧٨٨.

(٣٤٣) المقريزي، **السلوك**، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٠٣٠. ابن حجر، **أنباء الغمر**، المصدر المذكور، ج ٢، ص ١٣٣ ـ ١٣٤. ابن عربشاه، **عجائب المقدور في أخبار نوائب تيمور**، مخطوط مكتبة الفاتيكان رقم ٧٤٢، ص ٨٤ ـ ٨٧، الصيرفي، **نزهة**، ج ٢، ص ٧٤ ـ ٧٦.

(٣٤٤) يذكر محب الدين أبو الوليد محمد ابن الشحنة الذي كان قاضياً لحلب منذ ٧٩٧ هـ، إنه كان يوافق نائب حلب رأيه بالخروج من المدينة، ابن الشحنة، **روض المناظر من علم الأوايل والأواخر**، مخطوط الفاتيكان رقم ٢٧١، ص ١٣٤. المقريزي، **السلوك**، ج ٣، ص ١٠٣٠، ١٠٣٢ ـ ١٠٣٣. ابن قاضي شهبة، تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق عدنان درويش، المعهد العلمي الفرنسي، ٣ م، دمشق، ١٩٧٧، ١٩٩٣، م٣، ص ١٧٣. ابن عربشاه، عجائب، ص ٨٧ ـ ٨٩. ابن تغرى بردى، **النجوم**، ج ١٢، ص ٢١٩ ـ ٢٢٣،

٢٣١ ـ ٢٣٤. الصيرفي، **نزهة**، ص ٧٧. ابن أياس، **بدائع**، ج ١ ـ ٢، ص ٥٩٦ ـ ٥٩٧.

(٣٤٥) ابن الشحنة (الأب)، **روض**، ١٣٧ وفي ابن عربشاه جاء إلى الشام بعد استيلائه على الهند، ص ٧٢ ـ ٩٧. العيني، **السيف المهند**، ص ٢٤٤. الصيرفي، **نزهة**، ج ٢، ص ٧٧ ـ ٨٥.

(٣٤٦) ابن الشحنة (الأب)، **روض**، ص ١٣٧.

(٣٤٧) المقريزي، **السلوك**، ج ٣، ص ١٠٣٩. الصيرفي، **نزهة**، ج ٢، ص ٩٣، ٩٧.

(٣٤٨) المقريزي، **السلوك**، ج ٣، ص ١٠٣٩ ابن تغرى بردى، **النجوم**، ج ١٢، ص ٢٣٤، ابن أياس، **بدائع**، ج ١ ـ ٢، ص ٦٠٥، ٦١٦. ومن غريب المفارقات ان «شارل رو» في كتابه عن تيمورلنك يذكر أن هذا الأخير وصل إلى قنوبين في وادي قاديشا، بحيث أن خبر دخول المغول بين جبلين المذكور أعلاه ينسجم مع رواية المرجع المذكور، الذي لا يسند معلوماته، التي لن نتوقف عندها الآن، ونكتفي بالإشارة إليها.

(٣٤٩) المقريزي، **السلوك**، ج ٣، ١٠٥٧ ـ ١٠٥٨، ابن حجر، **أنباء الغمر**، ج ٢، ص ٢٠٥. الصيرفي، **نزهة**، ج ٢، ص ١٠١، ١٠٦. ابن أياس، **بدائع**، ج ١ ـ ٢، ص ٦٢٣.

(٣٥٠) ابن خلدون، **تاريخ** . . .، ٧ م، ط ٣، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨. م ٧، ص ١٠٥٧ ـ ١١٨٠، ١٢٠٠ ـ ١٢٠٣. ابن أياس، **بدائع**، ج ١ ـ ٢، ص ٦١٨.

(٣٥١) K. SALIBI, «the Maronites of lebanon under frankish and Mamluk rule (1099 - 1516), art, cité, p. 296.

(٣٥٢) شمس الدين الذهبي **دول الإسلام**، تحقيق ف. شلتوت وم إبراهيم، جزءان، طبعة الهيئة العامة للكتاب، مصر، ١٩٧٤، ج ٢، ص ٢٠٠. ابن كثير، **البداية**، المصدر المذكور، ج ١٣، ص ٣٥٢. المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ١، ص ٨٣٣، ٨٣٧. ابن تغرى بردى، **النجوم**، المصدر المذكور، ج ٨، ص ٨٩. النويري، **نهاية**، المصدر المذكور، ج ٢٩، ص ٦٨.

(٣٥٣) النويري، مخطوط الفاتيكان رقم ٧٤، ج ٣٠ ص ٢ . الذهبي، **دول**، المصدر المذكور، ج ٢، ص ٢١١. ابن كثير، **البداية**، المصدر المذكور، ج ١٤، ص ٢٨ ـ ٢٩. المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ١، ص ٩٤٩. تدمري، **تاريخ طرابلس**، المرجع المذكور، ج ٢، ص ١١٢.

(٣٥٤) النويري، المخطوط نفسه، ج ٣٠، ص ٦٦.

(٣٥٥) أبو الفداء، **المختصر**، المصدر المذكور، ج ٤، ص ٩١. ابن كثير، **البداية**، المصدر المذكور، ج ١٤، ص ٩٦. وبينما يجعل النويري نائب طرابلس المسؤول عن قيادة الحملة، نرى أن ابن كثير، يشير إلى أن نائب حلب كان قائداً على كل جيوش المماليك المهاجمين. راجع ابن كثير، المصدر نفسه، الصفحة نفسها. النويري، المخطوط نفسه، ج ٣٠، ص ١١٥، تدمري، **تاريخ طرابلس**، المرجع المذكور، ج ٢، ص ١١٤.

(٣٥٦) أبو الفداء، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٩٤. الذهبي، **دول** المصدر المذكور، ج ٢، ص ٢٢٩. المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ٢، ص ٢٣٧، ٢٤٦.

(٣٥٧) أبو الفداء، **المختصر**، المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٢٣. المقريزي، **السلوك**، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤١٨.

(٣٥٨) ابن الوردي، المصدر المذكور، ج ٢، ص ٣١٤ ـ ٣١٥، ٣٣٩. المقريزي، **السلوك**، المصدر نفسهر، ج ٢، ص ٤١٧ـ ٤٢٨ ـ ٤٣٠، ٦٧٥. ابن تغرى بردى، **النجوم**، المصدر المذكور، ج ١٠، ص ١١٥. **طرابلس**، المرجع المذكور، ج ٢، ص ١١٧.

(٣٥٩) أبو الفداء، **المختصر**، المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٤٤. المقريزي، المصدر نفسه، ص ٦٥٠.

(٣٦٠) تدمري، المرجع المذكور، ص ١١٨.

(٣٦١) المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ٢، ص ٤٥ ـ ٧١ ابن تغرى بردى، **النجوم**، المصدر المذكور، ج ٨، ص ٢٣٢ ـ ٢٧٥.

(٣٦٢) المقريزي، **السلوك**، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٨٧.

(٣٦٣) النويري، مخطوط الفاتيكان رقم ٧٤، ج ٣٠، ص ٣٨ ـ ٥٣. الذهبي، **ذيول**، المصدر المذكور، ص ٦٥. المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ٢، ص ٩٩، ١٠٨ - ١١٠. ابن تغرى بردى، **النجوم**، المصدر المذكور، ج ٩، ص ٣٠ ـ ٣٢.

(٣٦٤) المقريزي، **السلوك**، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٣٨ ـ ١٣٩.

(٣٦٥) أبو الفداء، **المختصر**، المصدر المذكور، ج ٤، ص ١٣٩ ـ ١٤٠. ابن كثير، **البداية**، المصدر المذكور، ج ١٤، ص ١٩٥ ـ ١٩٧. ابن قاضي شهبة، المصدر المذكور، م٢، ص ٢١٦ ـ ٢١٧، ٢٢٤، ٢٣٧. ابن تغرى بردى، **نجوم**، المصدر المذكور، ج ١٠، ص ٣٤، ٣٦ ـ ٣٧، ٤٤، ٥١.

(٣٦٦) الحسيني، **من ذيول العبر**، المصدر المذكور، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥. ابن قاضي شهبة، المصدر المذكور، م٢، ص ٤٧٩ ـ ٤٨٠. ابن تغرى بردى، **النجوم**، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ١٣٤.

(٣٦٧) ابن كثير، **البداية**، المصدر المذكور، ج ١٤، ص ٢٢٣. ابن قاضي شهبة، المصدر نفسه، م ٢، ص ٥٠٦.

(٣٦٨) ابن كثير، المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٢٣٠ ـ ٢٣١. الحسيني، المصدر المذكور، ص ٢٧٨ ـ ٢٨٠. المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ٢، ص ٨٠٠ ـ ٨٠٣. ابن تغرى بردى، **النجوم**، المصدر المذكور، ج ١٠، ص ٢١٣ ـ ٢١٦، ٢٤٥. ابن قاضي شهبة، المصدر نفسه، م ٢، ص ٦٦٤ ـ ٦٦٨.

(٣٦٩) ابن قاضي شهبة، المصدر نفسه، م ٢، ص ٦٦٧ ـ ٦٦٨.

(٣٧٠) ابن كثير، **البداية**، المصدر المذكور، ج ١٤، ص ٢٣٨.

(٣٧١) ابن كثير، المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٦. الحسني، **من ذيول العبر**، المصدر المذكور، ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩. ابن الشحنة، **روض**، المخطوط المذكور، ص ١٢٧، ابن قاضي شهبة، المصدر المذكور، م ٣، ص ٣٤ ـ ٣٥، ٤٦. ابن تغرى بردى، **نجوم**، المصدر المذكور، ج ١٠، ص ٢٧٠ ـ ٢٧٥، ٢٨٤، ٢٩٣. ابن أياس، **بدائع**، المصدر المذكور، ١ ـ ١، ٥٤٠ ـ ٥٤٩.

(٣٧٢) ابن كثير، المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩. ابن قاضي شهبة، المصدر نفسه، م ٣، ص ١٢٩.

(٣٧٣) الحسيني، **من ذيول العبر**، المصدر المذكور، ص ٣٤٠ ـ ٣٤٣. ابن قاضي شهبة، المصدر نفسه، م ٣، ص ١٨٤ ـ ١٨٦.

(٣٧٤) الصيرفي، **نزهة**، المصدر المذكور، ج ١، ص ٨٢.

(٣٧٥) ابن أياس، **بدائع**، المصدر المذكور، ج ١ ـ ١، ص ٥٨٩.

(٣٧٦) المصدر نفسه، ج ١ ـ ٢، ص ٦٠.

(٣٧٧) المقريزي، **السلوك**، ج ٣، ص ٤٤٣. ابن أياس، **بدائع**، ج ١ ـ ٢، ص ٢٨٨.

(٣٧٨) المقريزي، **السلوك**، ج ٣، ص ٥٠٤. الصيرفي، **نزهة**، ج ١، ص ٨٢، ابن أياس، **بدائع**، ج ١ ـ ٢، ص ٣٣٨.

(٣٧٩) حول تفاصيل هذا العصيان، راجع: ابن الفرات، **تاريخ**، المصدر المذكور، ج ٩، ص ٥٤، ١٥٤، ١٦١، ٢٠٢، ٢١٢، ٢١٧ ـ ٢١٨، ٢٢٢، ٢٤٨، ٢٥٠، ٣٣١، ٣٣٣. المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ٣، ص ٥٩٣، ٧٠٨، ٧١٠ ـ ٧٣٤، ٧٤١ ـ ٧٤٣، ٧٥٢، ٧٨٢ ـ ٧٨٣، ٧٨٥ ـ ٧٨٦. ابن قاضي شهبة، **تاريخ**، المصدر المذكور، م ١، ص ٢٢٣، ٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٣، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٨، ٢٧٤، ٢٧٨، ٢٨١ ـ ٣٠٧، ٤٠٠، ٤٢٦، ٤٤١ وغيرها من الصفحات إذ يكاد يحتوي المجلد الأول على أخبار هذه الثورة. ابن تغرى بردى، **النجوم**، المصدر المذكور، ج ١١، ص ٢٥٩، ٢٦١، ٢٨٠، ٣٢٢، ٣٢٧، ٣٨٥، ج ١٢، ص ٨، ١٥، ١٧، ١٩، ٢١، ٢٣، ٢٩، ٣٤، ٣٩ ـ ٤٢، ٦٠، إلخ. الصيرفي، **نزهة**، المصدر المذكور، ج ١، ص ١٨٦، ٢٠٦، ٢٧٦، ٢٩٨، ٣٠٠، ٣٠٢ ـ ٣٠٥، ٣٠٩، ٣١٣، ٣٢٣، ٣٢٨، ٣٣٧، ٣٥٨.

(٣٨٠) ابن قاضي شهبة **التاريخ**، المصدر المذكور، م ١، ج ٣، ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤، ٤٠٠. الصيرفي، **نزهة**، المصدر المذكور، ج ١، ص ٣٠٩.

(٣٨١) الصليبي، **منطلق**، المرجع المذكور، ص ١٢٧.

(٣٨٢) ابن قاضي شهبة، **الأعلام**، المصدر المذكور، ج ٤، ص ١٥٥. المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ٣، ص ٩٨٩ ـ ٩٩١، ١٠٠٢، ١٠٠٤ ـ ١١١٢، ١١١٥. ابن تغرى بردى، وكان أبوه مشاركاً في الصراع إلى جانب تنم، **النجوم**، المصدر المذكور، ج ١٢، ص ١٨٠ ـ ١٨١، ١٩٠، ١٩٢، ٢٠١، ٢٠٧، ٢١٠ ـ ٢١٣. وأهم مصدر معاصر

لشيخ هو بدر الدين العيني، **السيف المهنّد في سيرة الملك المؤيد «شيخ المحمودي»**، تحقيق فهيم شلتوت، القاهرة، ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م، ص ٢٤٠ ـ ٢٤٤. ابن أياس، **بدائع الزهور**، المصدر المذكور، ج ١ ـ ٢، ص ٥٥٥، ٥٦١ ـ ٥٦٢، ٥٧١، ٥٧٤، ٥٧٩، ٥٨٣.

(٣٨٣) ابن أياس، المصدر نفسه، ج ١ ـ ٢، ص ٦٤٧.

(٣٨٤) المقريزي، **السلوك**، المصدر المذكور، ج ٣، ص ١١٢٢، ١١٣٦، ١١٤٣، ١١٤٤، ١١٤٦، ١١٥١، ١١٥٧ ـ ١١٥٨، ابن تغرى بردى، **النجوم**، المصدر المذكور، ج ١٢، ص ٢١٢، ٣٠٣، ٣٠٦، ٣١٠ ـ ٣١١، ٣١٣ ـ ٣١٥ العيني، **السيف المهند**، المصدر المذكور، ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥. ابن أياس، **بدائع الزهور**، المصدر نفسه، ج ١ ـ ٢، ص ٧٠٤ ـ ٧٠٥.

(٣٨٥) المقريزي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١١٥١، ١١٥٤، ١١٥٧. ابن تغرى بردى، المصدر نفسه، ، ج ١٢، ص ٣١٥. ابن أياس، **بدائع الزهور**، المصدر نفسه، ج ١ - ٢، ص ٧٠٧، ٧١٢، ٧١٤، ٧١٦.

(٣٨٦) المقريزي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١١٥٨. ابن أياس، المصدر نفسه، ج ١ ـ ٢، ص ٧١٦ ـ ٧١٧.

(٣٨٧) المقريزي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١١٥٨. ابن أياس، المصدر نفسه، ج ١ ـ ٢، ص ٧١٧.

(٣٨٨) المقريزي، **السلوك**، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١١٥٨، ١١٦٥، ١١٦٧. العيني، **السيف المهنّد**، المصدر المذكور، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧. ابن تغرى بردى، **النجوم**، المصدر المذكور، ج ١٢، ص ٣١٥، ٣٢١، ٣٢٢. ابن أياس، **بدائع الزهور**، المصدر نفسه، ج ١ ـ ٢ ص ٧١٧، ٧٢٠ ـ ٧٢٢.

(٣٨٩) المقريزي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٢٨، ٤٧٣، ٦٢٨، ٩٠٩، ٩٧٥، ١١٠١، ١١٢٢، ١١٥٤، ١١٥٨.

(٣٩٠) المقريزي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١١٧٣، ج ٤، ص ٧، ١١. العيني، المصدر المذكور، ص ٢٤٩. ابن تغرى بردى، المصدر المذكور، ج ١٢، ص ٣٢٤، ج ١٣، ص ٤٤. الصيرفي، **نزهة**، المصدر المذكور، ج ٢، ص ٢١٩ ـ ٢٢٠، ابن أياس، **بدائع الزهور**، المصدر المذكور، ج ١ ـ ٢، ص ٧٣٩، ٧٤٤.

(٣٩١) المقريزي، المصدر نفسه، ج ٤، ١٢ ـ ١٣، ١٦. ابن تغرى بردى، المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٤٤، ٥٠. ابن أياس، المصدر نفسه، ج ١ ـ ٢، ص ٧٤٦.

(٣٩٢) المقريزي، **السلوك**، المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٨ ـ ٢٠. ابن تغرى بردى، **النجوم**، المصدر نفسه، ج ١٢، ص ٣٢٦، ج ١٣، ص ٥٢، ٥٦. الصيرفي، **نزهة**، المصدر المذكور، ج ٢، ص ٢٩١ ـ ٢٢٠.

(٣٩٣) المقريزي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٦، ٣٤، ٣٧، ٥٠. العيني، **السيف المهنّد**، المصدر المذكور، ص ٢٤٩. ابن تغرى بردى، المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٥٦ ـ ٦٠. الصيرفي، **نزهة**، المصدر نفسه، ج ٢، ٢٢٤ ـ ٢٣١. ابن أياس، المصدر المذكور، ج ١ ـ ٢، ص ٧٥٧، ٧٧٢.

(٣٩٤) المقريزي، **السلوك**، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٥٩ ـ ٦٠، ٦٤. العيني، **السيف المهنّد**، المصدر نفسه، ص ٢٥٠ ـ ٢٥٢. ابن تغرى بردى، **النجوم**، المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٦٦، ٦٩ ـ ٧٠.

(٣٩٥) المقريزي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٦٧ ـ ٧٠. ابن تغرى بردى، المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٧٠ ـ ٧٢. ابن حجر، **أنباء الغمر**، المصدر المذكور، ج ٢، ص ٣٨٤ ـ ٣٨٥.

(٣٩٦) المقريزي، **السلوك**، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٦٧، ٧٠. ابن تغرى بردى، **النجوم**، المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٧١ ـ ٧٢، ٨٠.

(٣٩٧) المقريزي، المصدر نفسه، ، ج ٤، ص ٩٨، ٨٠، ١٠٥، ١٠٩، ١١٣، ١١٥، ١٢٠. ابن تغرى بردى، المصدر نفسه، ، ج ١٣، ص ٨٠، ٨٧، ٩٠، ٩٦.

(٣٩٨) المقريزي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٣٥، ١٣٨، ١٤٠. العيني، **السيف المهنّد**، المصدر المذكور، ص ٣٤٠ ـ، ٣٤٣. ابن تغرى بردى، المصدر نفسه، ج ١٣، ص ١٠٥ ـ ١٠٦.

(٣٩٩) المقريزي، **السلوك**، المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٤٣. ابن أياس، **بدائع**، المصدر المذكور، ج ١ ـ ٢، ص ٨٠٩.

(٤٠٠) المقريزي، **السلوك**، المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٦٤، ١٧٩، ١٨٧. العيني، **السيف المهنّد**، المصدر المذكور، ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨. ابن تغرى بردى، **النجوم**، المصدر المذكور، ج ١٣، ص ١١٧ ـ ١١٨، ١٢٢، ١٧٨.

(٤٠١) المقريزي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٨٧، ١٩٤، ٢٠٧، ٢١٦، ٢٥٢. العيني، المصدر نفسه، ، ص ٢٥٧ ـ ٢٦٠. ابن تغرى بردى، **النجوم**، المصدر نفسه، ج ١٣، ص ١٢٩، ١٩١، ٢٠١، ٢٠٥.

(٤٠٢) المقريزي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٥٢، ٢٦٠، ٢٨٣. العيني، المصدر نفسه، ص ٣١٤، ٣٢٨، ٣٣٦. ابن تغرى بردى، **النجوم**، المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٦، ١٢.

(٤٠٣) المقريزي، **السلوك**، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٢٥، ٣٤٩، ٤٣٨، ٤٤٤، ٤٦٤. ابن تغرى بردى، **النجوم**، المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٢١ ـ ٢٢، ٣٦ ـ ٣٨، ٦٥ ـ ٦٦، ٧٢ ـ ٧٣، ١٣٥، ٢٤٦. ابن أياس، **بدائع**، المصدر المذكور، ج ٢، ص ٢٤، ٣٨، ٤١. الصيرفي، **أنباء**، ج ٢، ص ٤١٨. DARRAG, op. cit., p. 14.

(٤٠٤) المقريزي، **السلوك**، ج ٤، ص ٣٧٣، الصيرفي، **نزهة**، ج ٢، ص ٣٧١.

(٤٠٥) ابن تغرى بردى، **النجوم**، ج ١٤، ص ٨٥ ـ ٨٦.

(٤٠٦) المصدر نفسه، ج ١٥، ص ٢٩٤.

(٤٠٧) المصدر نفسه، ج ١٥، ص ٣٢٢.

(٤٠٨) المقريزي، **السلوك**، ج ٤، ص ١١٩٥.

(٤٠٩) السخاوي، **الضوء اللامع**، ج ٦، ص ١٩٥. ابن أياس، **بدائع**، ج ٢، ص ٤٦٠، ج ٣، ص ١٣.

(٤١٠) ابن الحمصي، شهاب الدين أبو العباس، **كتاب تاريخ الجراكسة**، مكتبة الفاتيكان، مخطوط رقم ٢٧٣، ص ٨، ٢٢.

(٤١١) ابن أياس، **بدائع**، ج ٣، ص ١٧١.

(٤١٢) ابن الحمصي، المخطوط المذكور، ص ١٦.

(٤١٣) ابن أياس، **بدائع**، ج ٣، ص ٢١٢.

(٤١٤) البصروي، **تاريخ البصروي**، ٨٧١ ـ ٩٠٤ هـ. تحقيق ودراسة أكرم العلبي، دار المأمون، دمشق، ص ٢٣٥.

(٤١٥) ابن الحمصي، المخطوط المذكور، ص ٦٠.

(٤١٦) ابن أياس، **بدائع**، ج ٣، ص ٤٣٣.

الفصل الثاني: المجتمع

مقدمة:

تتكوّن نيابة طرابلس، من منطقتين جغرافيتين: السهل الساحلي والجبال التي تشرف عليه محتضنة له، وهي تمتد على طول ٢٥٠ كلم تقريباً من الشمال إلى الجنوب، من السويدية إلى جسر المعاملتين، وأعلى نقطة في سلسلة الجبال، التي هي جزء من السلسلة الغربية لجبال لبنان، هي القرنة السوداء التي ترتفع ٣٠٨٨ متراً عن سطح البحر. السهل الساحلي تربته رسوبية خصبة، خاصة في عكار، والكتلة الجبلية، كلسية الصخور، متماسكة، تخزن المياه، وتسيطر على منحدرات المتوسط الخصبة، سهولا ساحلية ضيقة.

هذا التناوب بين السهل الضيق، الخصب، والجبال المرتفعة الصعبة المسالك، الملاصقة للبحر، جعل من هذه المنطقة، كما في باقي أراضي لبنان الحالي، ومع توالي الأيام، بما تؤمنه للإنسان من عزلة من جهة ومن انفتاح من جهة أخرى، ملجأ ممتازاً للأقليات.

وفي القرون الوسطى، خاصة في العهد المملوكي، كان جبل لبنان، محصوراً في نيابة طرابلس، وقد حدّده مؤرخو العهد المملوكي، بالجزء الشمالي من السلسلة الجبلية التي تشرف على بعلبك من الشرق وعلى طرابلس من الغرب[١].

وحسب المصادر اللبنانية، وبالضبط حسب تعريف ابن القلاعي، جبل لبنان هو الأجزاء التي يقطنها الموارنة، والتي تمتد من كسروان (كسروان والمتن الحاليين) إلى الضنية وجبة بشراي[٢].